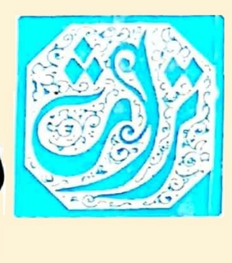



حكايات من أغانى الأصفهانى




كمال النجمى

كل من كان ذا هيام وحزن فقد برا
غير محبوبة الق[illegible]الموت يشترى

دار الهلال

حكايات من الأغانى

# يوميات المغنين والجوارى

●

بقلم

كمال النجمى

●

دار الهلال

الغلاف بريشة

الفنان بهجت عثمان

# مقـــدّمة

قبل الف سنة كتب أبو الفرج الاصبهانى ، أو (( الاصفهانى )) كتـــاب الاغانى ، فصار من أشهر الكتب فى عصره ، ولبث محتفظا بسهرته وقيمته هذا الزمان الطويل ، وسوف يبقى كذلك ..

فان (( كتاب الاغانى )) موسوعة ممتعة باهرة ، للادب والفن والتـــاريخ والاخلاق والمروءة والفكاهة والشجاعة ، وكل شىء تقريبا .. شـــهد بذلك طلاب العلم وطلاب القراءة وطلاب التسلية ، على امتداد العصور التى قرىء فيها هذا الكتاب الممتع الفريد .

وطوال مئات السنين ، حاول كثير من الادباء (( اختصار )) كتاب الاغانى، او (( تلطيف)) حجمه الضخم،بتجريده من العنعنة والاســـتطراد والتكـرار وبعض الحكايات ، فاجتمعت فى المكتبة العربية عـدة مختصرات للاغانى ذهب أصحابها مذاهب مختلفة فى الاختصار والتجريد والانتقـاء ، وظن كل منهم أن عمله أوفى بالغرض من سواه ، واجتهد فيه ما وسعه الاجتهاد ..

وفى عصرنا وجد كاتبو (( الدراما )) مادة لاعمالهم فى (( كتاب الاغانى )). فانقلبت صفحات كثيرة من هذا الكتاب العظيم ، الى مرئيات ومســـموعات درامية ، ولكن ما يصلح للدراما من هذا الكتاب يحتاج الى التصرف الواسع، بالحذف أو الاضافة أو التخيل أو التعمل الذى يخرجه عن أصله ! ..

ولم يبق بعد هذا كله مجال لا للتجريد والاختصار ، ولا للاعمال الدرامية الا فى القليل ، ولا يحسن أن ننســـج على نفس المنـــوال فنختصر أو ننتقى او نجرد أو نبنى من صفحات الكتاب العظيم أعمالا درامية ، فذهبنـا فى النظر اليه مذهبا آخر ، يعلو فيه قدره فوق الاختصار والتجـــريد ، وفوق التمزق مرئيا أو مسموعا ، وحاولنا أن نقدم الكتاب جديدا جذابا ، ولـكن بلا هدم لأصله فى اللغة والرواية والروح الادبيـــة والفنية التى كتبه بهـا قبل ألف عام صاحبه الاديب الفنان العبقرى أبو الفرج الاصفهانى .

لهذا جاء كتابنا هذا الجديد ، فى شكل يوميات للشخصيات التى تعيش على صفحاته ، ولكن القصص الكبيرة والحـــوادث التـــاريخية ثابتة فيه متماسكة ، وان لم تتعاقب وتتشابك ، كتعاقب الليل والنهار ، ســـاعة بعد ساعة ! ..

فاذا قرأنا الفصول الزاخرة التى كتبها ابو الفرج ، راعتنا كثـرة الايام التى تفصل بينها الايام والشهور والسنون .. فتجرء حكاية من الحكايات

فى هذا اليوم ، ثم تتلوها حكاية فى ذاك اليوم ، وبينهما عشرون عاما ، فمن هنا تداخلت أيام كتاب الاغانى وتباعدت وتقاربت وتداخلت ، وعلى هذا الاساس جمعناها فى كتابنا هذا ، فجعلنا الحكاية يوميات ، وجعلنا اليوميات تتسع فى الزمان أو تنقص كما يقتضى المقام ، فقد تنبسط يوميات مطرب أو مطربة فوق عشرات السنين ، وقد تتركز فى أيام أو ساعات ..

وكتاب الاغانى حافل بقصص وحكايات عن القادة والزعماء والعلماء والصلحاء والشعراء والادباء ، فضلا عن المغنين والمغنيات ، وقد آثرنا أن نبدأ بما كتبه عن المغنين والمغنيات فى هذا الجزء الذى نرجو أن تتلوه أجزاء تستكمل بقية قصص الكتاب عن أهل الغناء من المطربين والجوارى ثم عن غير هؤلاء من أبطال الكتاب الذين تتألف من سيرتهم صورة تامة الملامح لمجتمع العصر العباسى الاول وما قبله من العصور الاسلامية والعربية ..

والغناء هو أصل كتاب الاصبهانى ، وانما استطرد من قصص الغناء الى القصص الاخرى .. فجاء بما لم يسبقه اليه أحد فى التأليف ، وجعل كتابه هذا معرضا للغة الصحيحة والبيان الرفيع ..

وحين أخذت فى كتابة هذه اليوميات الغنائية ، بدا لى أن أحاول الاقتراب بأسلوب الكتابة قدر الاستطاعة ، من أسلوب مؤلف الاغانى العظيم الذى هو امام فى البلاغة ، ونسيج وحده فى صياغة الكلام ، والتعلق به يمنح كتابنا هذا نفحة من عبق التاريخ ، مع التزامنا بتقريبه الى قارئنا المعاصر ، لهذا أبقيت شذرات واضحة من أصول الكتاب العظيم العريق يتنسم القارىء عبيرها خلال السطور ، وحاولت تطويع النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى الذى تم فيه تأليف (( كتاب الاغانى )) لمقتضيات الكتابة فى أيامنا ، لكيلا يقع فى كتابنا هذا تفاوت بين طبقات التعبير ، أو تنافر بين القديم والجديد .

ولست أظن طريقتى هذه أمثل الطرائق ، ولكنها - فيما يبدو - غير مسبوقة فى بابها ، وقد لا تكون كذلك ، اذ لم نطلع على كل ما أخذه المؤلفون من كتاب الاصبهانى ، ولكنى أرجو لها على أية حال كرم القبول من قرائها ، وسماحة الاغضاء عن هناتها ..

ولعلنا بهذه الطريقة نسهم فى عقد صداقة بين القارىء العصرى وبين كتاب عظيم قرأته الاجيال اكثر من الف سنة .. كتاب الاغانى للاصفهانى ، او الاصبهانى ! ..

كمال النجمى

# حكاية أول مطرب فى المدينة

## ● اليوم الاول :

أنا ــ ولا فخر ــ أول من رفع عقيرته بالغناء فى المدينة المنــورة بعد أن خرجت من ظلام الجاهلية الى نور الايمان !

لا أضرب بالعود مثلما يفعل الآخذون من غناء الاعاجم ، كابن مسجح فى مكة ، وسائب خاثر فى المدينة ، ولكننى أنقر بالدف وأتمشى به خلال الغناء بين صفوف المستمعين ، أحسن مشية ، على مذهب أهل الحجاز فى التمشى على نقر الدفوف ! ..

صوتى أجمل الاصوات ، كما يقول العرفاء بالغناء ، ولو أنصــفنى الدهر لاغتنيت من صناعة الغناء . ولكننى ــ لكى أعيش ــ أجمع الى هذه الصــناعة الجميلة ، صناعة الاضحاك والتسرية عن السراة من أهــل المدينــة وانى لاكسب من أضاحيكى ونوادرى أكثر مما أكسب من غنائى ! .. فان الناس لايتحرجون من سماع النوادر والاضاحيك أما الغناء فيتأثم منه اكثرهم ، الا من كانت فى طبيعته سماحة وأريحية كعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وهو من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أشد الناس معرفة بالدين وعملا بأحكامه ! .. وقد انتزع للمغنى سائب خاثر عطاء من الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، أخرجه له من بيت المال مع أعطيات أهل المدينة ، وقال ابن جعفر لمعاوية وهو يذكر له أحقية سائب خاثر فى عطاء من بيت المال

ــ حسب هذا الرجل من فضل ، تحسينه الشعر بصوته وألحانه !

لم يعترض معاوية ، وأعطى ســائب خاثر ما اقترحه له ابن جعفــر من عطاء ! ..

أما أنا فما أخذت درهما واحدا من بيت المال ، فلا عطــاء لى ، بل أنا مطارد متهم بالعبث والفساد ! ..

اسمى عيسى بن عبد الله ، ولقبى « طويس » وقد نسى الناس اسمى فلا يذكرون الا لقبى أصلى عجمى ، وسادتى من بنى مخزوم فى قريش .. نشأت بالمدينة أدخل بيوتها فلا يحجبوننى ، فعرفت دخائلهم ، وحفظت أنسابهم ، وصحبت أمى فى طوافها ببيــوتهم تخــدمهم وتمشى بالنميمة بينهم ، فتعلمت منها النميمة والوقيعة ، ومشيت بهما بين الناس كما مشت

امي من قبل حتى اتقونى لحدة لساني وطوله وخوضه بالوشاية والنميمة فى كل مجال ! ‥ ولكنني ـ والله ـ افعل كل ذلك بحسن نية ! ‥

وانا ممتع الحديث حاد الفهم ، أرعي واحفظ حق المجالسة ، واعظم موالى من بنى مخزوم ومن اليهم من سائر قريش ‥ مسالم لا أحب التحكيك بأحد ، الا من ظلمنى ، فانى انتصف منه ، والبادىء أظلم ! ‥

ابناء المهاجرين والانصار فى المدينة يكتنفوننى ويحبون مجالستى وينصتون الى حديثى ، ويشتهون غنائى ‥ ولولا ما أشاعه أعدائي حولى من سوء القالة لما بقى أحد من قريش والانصار الا أدنانى واعطانى ! ‥

يقولون انى على ظرفى وحلاوة غنائى ، مشئوم ! ‥ فقد ولدت يوم مات النبى صلى الله عليه وسلم ، وفطمت يوم مات أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وختنت يوم طعن أبو لؤلؤة المجوسى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وتزوجت يوم قتل الثائرون عثمان بن عفان ، وانجبت ولدا يوم مقتل على ابن أبى طالب ‥ وولدا آخر يوم مات الحسن بن على رضى الله عنهما ! ‥

وأنا رجل طويل أحول ، ولدتنى امى بعين واحدة هى هذه العين الحولاء أما الاخرى فولدتنى بها عمياء ! ‥ لكنى برغم ذلك أحسن الناس علما وظرفا وحسن غناء وجودة نقر بالدف ، واضحك الثكلى بنوادرى ! ‥

اقرأ كتاب الله ، ولست مثل ذلك الشخص المخنث الذى قبض عليه حاكم المدينة فقال له

ـ أيها الرجل هل تقرأ أم الكتاب ؟!

فقال المخنث :

ـ والله ما اقرأ بناتها ، فكيف اقرأ امهن !

فقتله حاكم المدينة ، وكان محقا فى قتله ! ‥

وبعض الناس يحاولون أن ينسبونى الى هذا النوع من الاشخاص ، وكل من ينسبنى اليهم فهو عدو لى أو حاسد ‥ والله بينى وبينه ‥ وسأتعلق برقبته يوم القيامة أطلب الاخذ بحقى منه !

## ● اليوم الثاني :

جاء ابان بن عثمان بن عفان أميرا على المدينة من قبل الخليفة عبد الملك ابن مروان ‥ فلما دنا منها تلقاه أهلها ، وخرجت معهم فسلمت عليه وهو يعرفنى وقد سمع غنائى مرات ‥ فقلت له أيها الامير ، انى كنت أعطيت الله عهدا لئن رأيتك أميرا لاخضبن يدى بالحناء الى المرفقين ثم انقر بالدف بين يديك واغنى وأمشى على نقراته أحسن مشية رآها أهل الحجاز كله ! ‥

ثم أخرجت يدى مخضوبتين ، واخرجت دفى وتغنيت

ما بال اهـــلك يا رباب

خزرا كأنهم غضـــاب

فطرب ابان بن عثمان حتى كاد أن يطير ، وجعل يقـــول لى : حسبـــك يا طاوس ، ولا يقول لى : يا طويس ، حتى لا يصغر اسمى ، ثم أمرنى بالجلوس ، وقال لى متبسطا متفكها :

ـ قد زعموا انك كافر ياطويس ! ..

قلت :

ـ جعلت فداءك ! .. والله .. انى لاشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وأصلى الخمس ، وأصوم رمضان ، وأحج البيت ! ..

قال الامير :

ـ فانت أكبر سنا أم اخى عمرو بن عثمان بن عفان ؟!

قلت :

ـ أنا والله كنت غلاما صغيرا أتعثر فى أذيال نســـــاء قومى يوم زفت « أمك المباركة » الى « أبيك الطيب » ! ..

فاستحيا الامير ابان بن عثمان وأطرق الى الارض عندما ذكـرت له زفاف أمه الى أبيه !

غير انه أعجب بفطنتى وحـــذقى ورقة أدبى ، فانى لم أقل له : « أمك الطيبة » الى « أبيك المبارك » .. لان ذلك يحمل معنى فى لغة العـــرب ، يعرفه الرجل اذا خلا بالمرأة « الطيبة » التى تلذ الخلوة بها ! ..

ثم قال لى وقد رفع رأسه :

ـ يقولون انك مشئوم .. فما بلغ من شؤمك ؟! ..

فذكرت له ما يتناقله الناس عنى فى هـــذا البـــاب ، فضـــحك وقال لى مداعبا :

ـ اخرج منى ، أبعدك الله ! ..

## ● اليوم الثالث :

أمطرت السماء اليوم مطرا شديد الغزارة أســـال كل شىء حتى صـــار وادى العقيق بالقرب من منـــزلى فى المدينة يرمى ماؤه بالزبد كأنه نهـــر الفرات ، فخرجت أتنزه فى هـــذا اليوم المطير الذى يطيب فيه الهـــواء ، فوجدت عند العقيق عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ســـيد بنى هاشم يتنزه هناك مع صحب له بينهم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ..

استدنانى ابن جعفر ، والسماء تنهمر انهمارا بالغيث ، فقال لاصحابه :

ـ هذه سماء خليقة ان تبل ثيابنا ، فهـــل لكم فى منزل طويس فانه قريب ، فنستكن فيه ، ويحدثنا ويضحكنا ويغنينا ؟! ..

قال له عبد الرحمن بن حسان بن ثابت

ـ جعلت فداءك ، وما تريد من طويس المخنث عليه غضب الله ؟!

قال له عبد الله

ـ لا تقل ذلك ، فانه مليح خفيف ، لنا فيه انس ! ..

غاظنى كلام عبد الرحمن بن حسان ، ولكن لم أكد أسمع قول عبد الله ابن جعفر حتى تعجلت الى منزلى فقلت لامرأتى

ـ ويحك ! قد جاءنا عبد الله بن جعفر سيد الناس ، فما عندك من طعام ؟! ..

قالت

ـ نذبح هذه العنز السمينة !

فذبحناها واختبزنا خبزا رقاقا ، وخرجت فتلقيت عبد الله بن جعفر مقبلا وصحبه ، ومشيت بين أيديهم حتى نزلوا دارى ، فحدثتهم واضحكتهم حتى جاء الطعام ، فأكل ابن جعفر وأكل القوم ، فأعجبه وأعجبهم طعامى .. فلما غسلوا أيديهم ، استأذنته فى أن أغنى شيئا .. ثم غنيت :

يا خليلى نابنى سهدى
لم تنم عينى ولم تكد
فشرابى ما أسيغ وما
اشتكى ما بى الى احد
كيف تلحونى على رجل
انس تلتذه كبدى ؟!
نظرت يوما فلا نظرت
بعده عينى الى احد

فطرب القوم وقلت لابن جعفر

ـ أتدرى يا سيدى لمن هذا الشعر ؟!

قال :

ـ لا والله ، ما أدرى لمن هو ، الا انى سمعت شعرا حسنا فى غناء حسن

قلت :

ـ هذا الشعر لفارعة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت وكانت تتعشق عبد الرحمن بن الحارث المخزومى فقالت فيه هذا الشعر !

فنكس عبد الرحمن بن حسان بن ثابت رأسه الى الارض حتى التصق رأسه بصدره خزيا ، فلو انشقت الارض له لدخل فيها ، من سوء ما سمعه عن عمته ! ..

هكذا انتقمت منه لنفسى ، اذ وصفنى بالتخنث ودعا على بغضب الله ، ونهى عبد الله بن جعفر من النزول فى دارى ! ..

## ● اليوم الرابع :

قدم مطرب مكة المشهور عبيد بن سريج المدينة فغنى أهلها فاستحسنوا غناءه ، وقدموه على كل من غناهم من المطربين ، وطلعت عليهم فسمعتهم يبالغون في مدحه ، وهو بينهم منتفش كالديك ، فاستخرجت دفا من حضني ونقرت به وغنيتهم حتى طربوا ، وصاح ابن سريج

ــ هذا والله أحسن الناس غناء ، وان كان لا يضرب بالعود ولا يعرف نغماته ! ..

وابن سريج هذا هو أحد فحول المغنين الذين أخذوا من فنون الفرس والروم في ضرب العود ، وعربوا هذه الفنون ، واستبعدوا منها ما لا يتفق وذوق العرب ولغتهم وباطن قلوبهم ونفوسهم .. وقد رأيت من هؤلاء المغنين في المدينة نشيطا الفارسي وسائب خاثر وجميلة المغنية البارعة .. أما في مكة فأستاذهم ابن مسجح ، وعنه أخذ ابن سريج ثم زاد عليه حتى لم يعد أحد يذكر ابن مسجح ! ..

قلت لابن سريج

ــ أنا والله أول من صنع غناء الهزج والرمل ، والناس يضربون بى المثل فيقولون « أهزج من طويس » ! ..

قال ابن سريج

ــ صدقت والله ، وما سمعت قط مثل هزجك ، ولكنى فى الرمل ــ بفتح الميم ــ أبرع خلق الله !

فعجبت لثنائه على نفسه ، ثم ذكرت انى سبقته بالثناء على نفسى ، فزال عجبى !

## ● اليوم الخامس :

رأيت جارية حسنة المشية ، جميلة الوجه ، فتبعتها ، فراوغتنى ولم تكلمنى ، فلم أنقطع عنها ، فأسرعت فى المشى لتبعد عنى فلم أنقطع عنها ، فلما مرت بمجلس حافل بالناس ، وقفت فقالت لهم

ــ يا هؤلاء .. لى صديق ولى زوج ولى مولى يملكنى ، فسلوا هذا الصفيق ما يريد منى ؟! ..

فخجلت من قولها حتى تمنيت انى لم أمش وراءها خطوة واحدة ! .. ثم تمالكت جاشى حين انصرفت المرأة فغنيت القوم غناء جميلا حتى انسيهم قبح ما صنعت معها ، فلما طربوا وضعت دفى فى حضنى وقلت لهم

ــ اكتموا على هذه الزلة ، فانى ما تبعت هذه المرأة لريبة ، ولكن أعجبتنى مشيتها ! ..

قالوا

قد سترنا عليك هذه الزلة فلا تعد الى مثلها !

# أستاذ المطربين

## ● اليوم الاول :

الناس يسمعون غنائي فيطربون أشد الطرب ويقولون لى انك يا سعيد ابن مسجح لمنقطع القرين في صناعة الغناء ، والمقدم بين المطبوعين البارعين فيها وانك لتغنى على مذهب فى هذه الصناعة اشتققته لنفسك على غير مثال سابق فى غناء العرب ، فكيف تم لك ذلك ؟!

ارجع بذاكرتي الى أيام طفولتي وأقول لهم كنت فى صباى مملوكا لبعض السادة فى مكة ، أخلو بنفسى فأترنم ، فسمعني مولاى مرة فأعجبه غنائى وقال لى ليكونن لك يا غلام شأن ، فان لك حلقا طيب المسموع ، كأنك طويس أو سائب خاثر

ولم أكن فى ذلك العهد أعلم شيئا عن طويس أو سائب ، ولا أعرف كيف يغنيان ، فانهما مطربان كبيران فى المدينة المنورة ، وأنا غلام صغير أسود مسكين فى خدمة سيد من سادات مكة !

فاتفق بعد ذلك أن معاوية بن أبى سفيان ، وقد صار خليفة ، أراد أن يبنى بيوتا له فى مكة ، ولم يكن فيها من البنائين من يتقن بناء المنازل الملوكية الفخمة ، بالآجر الاحمر والجص الابيض والرخام ، فاستجلب معاوية بنائين من بلاد فارس ، فكنت أسمعهم يتغنون فى أثناء البناء بالاغانى الفارسية ، فأعجبنى الكثير من غنائهم ، فلزمتهم ، أصيخ اليهم ، وأنقل ما أنتخبه وأستحسنه من ألحانهم الى الشعر العربى ، متصرفا فى اللحن على مقتضى الذوق العربى الذى ينفر من تنطع الاعاجم !

سمعنى مولاى بعد أن برعت فى تركيب الالحان الفارسية على الكلام العربى فقال لى : من أين لك هذا الغناء العجيب ؟!

قلت سمعت هذه الاعاجم التى تبنى بيوت أمير المؤمنين تتغنى بالفارسية فقلبت بعض ما استحسنت من ألحانهم الى الكلام العربى ! .. فهتف بى سيدى معجبا اذهب فأنت حر لوجه الله !

صرت حرا فطلبت الشعر والادب واتسعت فى الغناء ، وصنعت لنفسى الحانا لم أسمعها من الفرس ولا من غيرهم فافتتن الناس فى مكة بما صنعت وقالوا لى أنت زهرة أصحاب هذه الصناعة ، وانك فيها لخير من مطربى المدينة فهذا الذى تعمله هو نظام هذه الصناعة وقوامها وعمادها ،

وسيتبعك في هذا الطريق كل مغن ومغنية في مكة والمدينة ! ..

هكذا استفتحت باب الخير في صـــناعتي وانقلبت الى الرفاهية والرغد والسعد في الحياة ، وصار لي تلاميذ يتعلمون مني ، فمنهم ابن سريج أحسن الناس صوتا ، ومنهم الغريض النائح المطرب وغيرهما ! .. وصرت بحمد الله أستاذ المطربين ..

ثم رحلت الى الشام واخذت من الحان الروم شيئا وحورته الى الذوق العربي وزدت عليه من صناعتي ، وقصدت الى فارس فتعلمت ضرب العـود واشتريت عبدانا كثيرة ، ثم عدت الى مكة وقد أخذت محاسن تلك النغم ، وصدفت عما استقبحته من النبرات والانغام ، وهي كثيرة في غناء الروم والفرس ، تخرج عن غناء العرب ولا توافق أعاريض أشـعارهم وقوافيها وتوزينات كلماتهم واستنبطت مذهبا في الغناء العـربي ، جديدا متقنـا ولحنت الاشعار فيه ، وتبعني المغنون في هذا المذهب حتى تكاثروا

## ● اليوم الثاني :

تنقضي الايام وصـناعة الغنـاء في مكة تزدهر ، وأنا على رأسها ، وقد رحلت الى المدينة مرات وسمعت مطـربيها وليس فيهم حتى الآن من يتقن الغناء على العود ، ولكن بعضهم سمع الغناء الفـارسي والرومي وأخـذ منه شيئا وبنى عليه غناء عربيا ، فكأنه كان معي في ذلك على ميعاد ..

ونحن الآن في زمان ممرع معشب بالفتن الجسام     مات معاوية وابنه يزيد ومروان ، وجاء اثنان يتنازعان الخلافة أحدهما في دمشق وهو عبد الملك بن مروان .. والآخر في مكة وهو عبد الله بن الزبير ..

والحرب بينهما لا تنقطع ، وفي بلدنا مكة تغيرت أحوال كثير من الناس، فاصاب الخمول أناسا ، وارتفع آخرون ، وان خمول مائة من فضلاء الناس لأهون عندي من ارتفاع شخص واحد من السفلة !

احترق المسجد الحرام في معـارك ابن الزبير وابن مروان .. فان ابن الزبير سمع ذات ليلة أصواتا فوق الجبل فخاف أن يكون جند ابن مروان قد وصلوا الى مكة ، وكانت ليلة ظلماء ذات ريح شديدة صعبة ورعد وبرق، فرفع نارا على رأس رمح لينظر ما يجرى من حوله ، فاطارت الريح النـار فوقعت على أستار الكعبة فأحرقتها وتساقطت الكعبـة ، وماتت امرأة من قريش في الحريق ، فخرج أهل مكة كلهم في جنازتها خـوفا من أن ينزل الله العذاب بهم ، وسجد عبد الله بن الزبير ، يدعو ويقول « اللهم اني لم أتعمد ما جرى ، فلا تهلك عبادك بذنبي ، وهذه ناصـيتي بين يديك » !

فلما مضى يوم ولم ينزل العذاب على الناس ، ابتدأ ابن الزبير يهـدم ما تبقى من الكعبة ، وتبعه الفعلة ، حتى بلغوا الى قواعدها ! ..

ثم دعا بنائين من الفرس والروم ، فأخذوا في بنائها !

مررت بالمسجد الحرام وهؤلاء الروم والفرس يبنونه وينشدون أغانيهم

فأعادنى ذلك الى صباى ، حين سمعت أغانيهم لاول مرة ، وبنيت عليها مذهبى فى الغناء !

تبدو لى أغانى هؤلاء الناس الآن ساذجة كثيرة النشاز ، متشابهة فقيرة الالحان ! ٠٠ وأين هى مما صار اليه الغناء العربى فى وقتنا هذا من الثراء النغمى الباذخ والايقاعات المبتكرة التى لا يعرفها الفرس ولا الروم ! ٠٠

لقد اتخذ الغناء العربى سمتا خاصا به ، وارتفع شأنه ، وانحدر غناء هؤلاء الاعاجم والموالى وعافته أسماع العرب ، فلا تجد أحدا الآن يصغى اليه ! ٠٠

## ● اليوم الثالث :

وضعت الحرب أوزارها بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ، بعدما رأينا الحجاج بن يوسف قائد المروانيين يرمى الكعبة بحجارة المجانيق فتتهدم مرة أخرى عقب أن بناها ابن الزبير ٠

انتهت الفتنة بهزيمة عبد الله بن الزبير ومصرعه ، ودخلت مكة كما دخل الحجاز كله فى طاعة عبد الملك بن مروان ، ووطأ الحجاج الثقفى له المنابر، وفتح له بحد السيف قلوب الرجال ، فملأها رهبا ورغبا ٠٠

وجاء الينا فى مكة وال جديد من رجال عبد الملك ، فأسرع اليه بعض حسادى يزعمون ان فتيان مكة انشغلوا بى عن كل شىء ، وانفقوا أموالهم على سماع غنائى !! ٠٠ فكتب الوالى الى الخليفة فى أمرى ، وحرضه على اخراجى من مكة ومعاقبتى ، فأرسل اليه الخليفة يأمره بمصادرة أموالى وتسييرى الى دمشق ليحاسبنى بنفسه على جنايتى ! ٠٠ فأمرنى الوالى أن أمضى الى الخليفة فى دمشق ، وحذرنى مغبة أمرى ان توانيت أو هربت !

دخلت دمشق بعد رحلة طويلة شاقة ، وليس فى كيسى الا دريهمات بقيت لى بعد المصادرة ، فوقفت عند مسجدها فسألت أحد الخارجين من الصلاة :

ــ من أخص الناس بأمير المؤمنين هنا ؟!

قال :

ــ هؤلاء النفر من قريش من بنى عمه !

فسلمت عليهم وقلت

ــ يا فتيان ٠٠ من فيكم من يضيف رجلا غريبا من أهل الحجاز ؟!

نظر بعضهم الى بعض ، وسمعت أحدهم يقول ضاع والله موعدنا مع « برق الافق » ! ٠٠

تثاقلوا عن اجابتى ، على ما فيهم من كرم ، الا فتى منهم هزته أريحيته العربية فقال : أنا أضيفك أيها الحجازى ! ٠٠

ثم قال لاصحابه

ـ انطلقوا أنتم الى دار برق الافق ، وأنا أذهب مع ضيفي الى داري ..
قالوا

ـ لا .. بل تجيء أنت وضيفك معنا ! ..

ذهبنا جميعا الى بيت برق الافق ، وهي مغنية في دمشق ، تقتنى في دارها جوارى مغنيات تبرزهن لعلية القوم من بنى أمية ، فيتغنين لهم ويفزن بجوائز وهدايا وتفوز ربة الدار بنصيب الاسد ! ..

فلما أتوا بالغداء قلت لهم على استحياء :

ـ اني رجل اسود ، ولعل فيكم من لا يحب الاكل معى ، فأنا أجلس ناحية وأتناول طعامي ! ..

فلما فرغوا من تناول الطعام ، وفرغت أنا أيضا ، جيء بالشراب ، فشربوا وشربت ، ثم أخرجت « برق الافق » لنا جاريتين من جواريها المغنيات ، فكأنها أطلعت علينا قمرين مضيئين ، أو شمسين تبهران العيون .. فتمثلت هذا البيت

فقلت اشمس ام مصابيح بيعة
بدت لك خلف السجف ام أنت حالم

فغضبت احداهما وقالت

ـ أيضرب هذا الاسود بنا الامثال ؟!

وقال لى بعض الحاضرين

ـ قم فانصرف فقد ثقلت علينا !

فلما تهيأت للقيام أمسك بى الرجل الذى أضافنى وقال

ـ بل اقم معنا واحسن ادبك !

غنت احدى الجاريتين لحنا مشهورا من الحاني يتردد على حناجر المغنين والمغنيات من مكة الى المدينة الى دمشق ، فأساءت اداءه وكثر خطؤها حتى استفزنى فوثبت قائلا

ـ أخطأت وأسأت !

فنظر القوم الى نظرا منكرا ، واعتذروا للجارية الغاضبة ، فلم تقبل اعتذارهم وامتنعت من الغناء ..

وغنت الجارية الاخرى لحنا من الحانى أيضا فأخطأت فى بعض اقسامه ، ولكنها كانت أفضل من الجارية الاولى ، فقلت لها :

ـ أحسنت ، ولكنك لم تكملى احسانك ! ..

ثم اندفعت بغير اذن منهم ، فغنيت هذا اللحن على وجهه الصحيح ، فوثبت الجارية تصيح

ـ هذا والله أبو عثمان سعيد بن مسجح ! ..

قالوا لها

ـ ومن أدراك ؟!

قالت

ـ هذا الاحسان فى الغناء لا يبلغه الا ابن مسجح ! ..

قلت :

ـ انى والله أنا هو !

فالتف القوم حولى وقد أكبروا شأنى ، فغنيت لهم الى آخر الليل ، ثم سألونى عما أقدمنى الى دمشق فأخبرتهم ، فقال الرجل الذى أضافنى

ـ انى أسمر غدا مع أمير المؤمنين ، وهو لا يسمع الغناء ، فهل تحسن الحداء ؟!

ـ نعم ! .. وان كنت لم أحد قافلة ولا جملا واحدا طوال حياتى !

ومضى صاحبنا من الغد الى عبد الملك بن مروان وحدثه عنى ، وعن براعتى فى الحداء .. فلما مثلت بين يديه حدوت :

**انك يا معاذ يا ابن الفضل**

**ان زلزل الاقدام لم تزلزل**

فقال عبد الملك لصاحبه القرشى

ـ ان حداءه لحسن ، فمن هو ؟!

ـ رجل حجازى قدم قاصدا أمير المؤمنين !

ـ قال لى الخليفة

ـ هل تغنى غناء الركبان ؟!

فغنيته واستحسنه .. فقال

ـ هل تغنى الغناء المتقن ؟!

فغنيته بعض ألحانى فاهتز الخليفة طربا وقال لى وهو يتفحصنى

ـ من أنت ؟! .. ان لك لقصة !

ـ نعم يا أمير المؤمنين أنا المظلوم الذى صودر ماله وأخرجه والى مكة من وطنه ! .. أنا سعيد بن مسجح ، قبض مالى عامل الحجاز ونفانى

فتبسم عبد الملك وقال

ـ قد وضح الآن عذر فتيان قريش فى أن ينفقوا عليك أموالهم !

وأمر لى بجائزة ، وكتب الى عامله فى مكة أن يرد الى أموالى ، وألا يتعرض لى بسوء ! ..



# وجه الباب

## ● اليوم الاول :

الناس يلقبوننى « وجه الباب » وأنا لا أغضب من هذا اللقب ، أما اسمى فهو أشهر الاسماء فى المدينة ومكة والحجاز والشام ، فانا « ابن سريج » أمير الغناء فى عصرى هذا ، لا يبارينى أحد ، حتى الذين سبقونى الى الغناء المتقن ، فان لهم فضلهم ، ولكنى زدت عليهم بما اخترعت وأضفت الى هذا الفن !

يتعجب الناس من العود الذى أضرب عليه وأغنى وفق نغماته ، وهو على مثال عيدان الفرس ، وقد رأيت مثله مع العمال العجم الذين قدم بهم عبد الله بن الزبير لاعادة بناء الكعبة بعد ان احترقت وتهدمت ٠٠ وأنا فى الضرب بالعود أشد حذقا من كل المطربين ، ولم يسبقنى أحد الى الاخذ عن غناء العجم الا ابن مسجح فى مكة وسائب خاثر فى المدينة ، ولكنى تقدمت عليهما ٠٠ ثم انتهى أمرهما وبقيت !٠٠

اذا غنيت أسدلت قناعا على وجهى ، ذلك اننى أحول ، ولا أحب أن يرى الناس الحول فى عينى فانه يزداد حين أغنى ! ٠٠

وأنا أحمر الوجه لان أبى كان مملوكا تركى الاصلى ، نشأ عند سادته من بنى نوفل بن عبد مناف ٠٠ وعاش فى مكة ، وولدت له فيها ، ونشأت هناك وتكلمت بفصاحة قريش ، ورأيت أمير المؤمنين عثمان بن عفان وأنا طفل ، وحضرت الفتن والقلاقل فى عهده وبعد عهده ٠٠

اسمى « عبيد » ٠٠ وابى هو « سريج » وكان يكنى « أبا يحيى » واسم أمى « رائقة » ولا أصل لى فى مكة الا أبى وأمى ، وصناعتى هى التاج الذى أضعه فوق رأسى ! ٠٠

مرت الايام فصار لى منافسون ٠٠ أما فى مكة فمعى مطرب ملحن قدير اسمه « ابن محرز » ٠٠ وأما فى المدينة فان فن الغناء فيها قد انتهى الى اثنين بارعين أولهما « معبد » والآخر تلميذه « مالك بن أبى السمح » .

ويعترف الجميع لى بالسبق والاستاذية ، فان معبدا — على فضله وعلو قدره — اذا أعجبه غناؤه قال : أنا اليوم سريجى ٠٠ أى كأنه « ابن سريج » فى احسانه وبراعته ! ٠٠

وسمعت بعض المعجبين بى يقول

ـ ما خلق الله تعالى بعد داود عليه السلام أحسن صوتا من ابن سريج ، ولا صاغ الله عز وجل أحدا أحذق بالغناء من ابن سريج ! ..

وقال لى آخر

ـ كأنك يا ابن سريج قد خلقت من كل قلب ، فأنت تغنى لكل انسان ما يشتهى قلبه ! ..

وأنا لم أبدأ حياتى مغنيا ، بل بدأتها نائحا ، يدعونى الناس لانوح على موتاهم ، ثم أرسل الحاكم الفاسد يزيد بن معاوية جيشه الى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة فقتل أهلها وأباحها لجنده ثلاثة أيام يفتكون فيها ويهتكون كأنها من بلاد الكفار وهى مدينة رسول الله وموطن أصحابه من المهاجرين والانصار !

فلما وقعت هذه الحادثة الفاجعة التى هزت الاسلام والمسلمين ، صعدت جبل أبى قبيس فنحت بهذا البيت

**يا عين جودى بالدموع السفاح**
**وابكى على قتلى قريش البطاح**

فبكى الناس من اللوعة ، ونكأ غنائى جراحهم ، وكان هذا أول شهرتى ، وتقدمت على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف وغيرها ، وكانوا كثيرين ! ..

ثم بعثت سيدتى سكينة بنت الحسين الى دارى بمملوك لها اسمه عبد الملك ، اعلمه النياحة ، فلم أزل أعلمه مدة ، ثم توفى عمها محمد بن على الملقب « ابن الحنفية » ، وكنت عليلا علة صعبة فلم أقدر على النياحة فى مأتمه ، فانتدبت للنياحة مملوكها عبد الملك الذى تعلم على يدى ، فكان نوحه عند سامعيه غاية فى الجودة ، وقيل وقتئذ هذا نوح غريض ، فلقبوا عبد الملك هذا بالغريض ، وقال لى بعض الناس يغيظنى :

ـ والله لقد ناح عبد الملك أجود نياحة ، حتى فضله الناس عليك ! ..

فحلفت الا أنوح بعد ذلك اليوم ، وتركت النوح الى الغناء .. وبدأ به مجدى الحقيقى ، ولكن نغصنى ان « الغريض » أيضا عدل عن النياحة الى الغناء ، فصارت بيننا منافسة ، وهو تلميذى ! .. ولكننى تفوقت عليه وتقدمت عند جميع الناس !

## ● اليوم الثانى :

لقيت الفقيه العظيم عطاء بن ابى رباح ، فى موضع بمكة وأنا ألبس ثيابا مصبغة وفى يدى جرادة مشدودة الرجل الى خيط أطيرها به ثم أجذبها كما يفعل الاطفال فى العابهم ، فقال لى الفقيه العالم الزاهد العظيم :

ـ يا فتان ! .. ألا تكف عما أنت عليه ؟! كفى الله الناس مؤنتك !

قلت

ـ وما على الناس من تلوينى ثيابى ، ولعبى بجرادتى ؟! ..
قال :
ـ تفتنهم أغانيك الخبيثة ! ..
قلت له :
ـ سألتك بحق من تبعتهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الا ما سمعت منى بيتا من الشعر ، فان سمعت منكرا أمرتنى بالامساك عما أنا فيه .. وأنا أقسم بالله لئن أمرتنى بعد استماعك منى بالامساك عما انا عليه لافعلن ذلك فلا أغنى أبدا ..
فطمع الفقيه العظيم فى اقلاعى عن الغناء ، فقال لى
ـ اذن قل
فاندفعت أغنى فى شعر جرير :

ان الذين غدوا بلبك غادروا
وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لى
ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فلما سمعنى عطاء بن ابى رباح ـ وهو الزاهد فى الدنيا وزخرفها ـ اضطرب اضطرابا شديدا ، ودخلته أريحية ، وحلف ألا يكلم أحدا بقية يومه الا بهذا الشعر ، وصار الى مكانه من المسجد الحرام ، فكان كل من يأتيه سائلا عن حلال أو حرام أو خبر من الاخبار ، لا يجيبه الا بأن يضرب يده على الاخرى وينشد هذا الشعر ، حتى صلى المغرب .. ولم يعد بعد ذلك الى التعرض لى فى أمر الغناء ..

وقد أعجبنى ذلك جدا ، فان ابن أبى رباح هو الفقيه الجليل الذى سمعت مناديا فى موسم الحج ينادى بأمر الخليفة
ـ لا يفتى الناس فى الموسم الا عطاء بن أبى رباح ! ..

## ● اليوم الثالث :

حج يزيد بن عبد الملك فى هذه السنة بالناس ـ وهو ولى عهد ـ وخرجت مع الشاعر عمر بن أبى ربيعة على جملين ملبسين بالديباج فجعل عمر بن أبى ربيعة يتلقى الحاج ويتعرض للجميلات من النساء كعادته التى عرفها الناس الى أن أظلم الليل وطلع القمر فجلسنا على كثيب رمل مرتفع ، واندفعت أغنى صوتا لى جديدا ، فطلع علينا رجل راكب فرسا فارها فسلم علينا وقال لى :
ـ ايمكنك ـ أعزك الله ـ أن تعيد هذا الصوت ؟!
فأعدته عليه ، فقال لى
ـ بالله أنت ابن سريج ؟!

ـ نعم

ـ حياك الله !

والتفت الى عمر وسأله

ـ بالله أنت عمر بن أبى ربيعة !؟

ـ نعم !

ـ حياك الله !

ـ فقال له عمر

ـ وانت فحياك الله ! .. قد عرفتنا فعرفنا نفسك ! ..

قال

ـ انا يزيد بن عبد الملك

فوثب اليه عمر فاعظمه ، ووثبت أنا فقبلت ركابه ، فنزع حلته وخاتمه فدفعهما الى ومضى يركض حتى لحق ثقله !

فدفعت الحلة والخاتم الى عمر وقلت له :

ان هذين بك اشبه ، وأنت بهما أحق ! .

فأخذهما عمروأعطانى ثلثمائة دينار وغدا فيهما الى المسجد الحرام ، فعرفهما كثير من الناس ، وجعلوا يتعجبون ويقولون

ـ كأنهما والله حلة يزيد بن عبد الملك وخاتمه !

وعمر بن أبى ربيعة من أعطر الناس وأحسنهم هيئة ، وقد اتخذ بعيرا عظيما مخضوبا بالحناء ، والرحل من فوقه يتضوأ بلون ذهبى .. ومع عمر غلام يقود فرسا له أدهم أغر محجلا يسميه « الكوكب » فى عنقه طوق من ذهب وأنا معهما أركب بغلة شقراء جميلة والناس يعجبون من حسن هيئتنا ! ..

كذلك كنا فى موسم الحج ! .. فللّه تلك الايام ! .. وشتان بينها وبين أيام كان يحكم فيها مكة عبد الله بن الزبير ، قبل هزيمته ومقتله وقيام حكم بنى أمية فيها ..

فقد خرج ابن الزبير ليلة الى جبل أبى قبيس فسمع غناء ، فلما انصرف وجده أصحابه مضطربا فقالوا ان بك لشرا ! .. قال انه ذاك ! .. قالوا ما هو ؟! .. قال لقد سمعت من الجبل صوتا ان كان من الجن انه لعجب .. وان كان من الانس فما انتهى منتهاه شىء ! ..

قالوا له انه ابن سريج !

فى تلك الايام كنت أجد القوت بصعوبة فقد منع ابن الزبير الغناء وحرمه ، فكنت اذا أردت أن أغنى لنفسى خلوت ليلا فى الجبل فغنيت وبكيت ! ..

## ● اليوم الرابع :

بعد ذهاب دولة ابن الزبير ، دعاني فتية من بنى أمية ، فدخلت اليهم وأنا في ثياب غلاظ جافية ، وهم فى ملابس الوشى يرفلون كأنهم الدنانير الهرقلية تلمع فى الشمس ، فغنيتهم وأنا محتقر لنفسى قول الاحوص

دعى القلب لا يزدد خبالا من الذى
به منك أو دارى جــواه المكتما
ومن كان لا يعدو هواه لســانه
فقد حل في قلبي هــواك وخيما
وليس بتزويق اللسان وصوغه
ولكنــه قد خـالط اللحـم والدما

فتضاءل فتيان بنى أمية فى عينى لما داخلنى من الزهـو بغنـــائى حتى ساويتهم فى نفسى ، ورأيتهم يعظموننى ويطـربون ويتواضعون لى ، وظللت اغنيهم حتى رقصوا طربا ثم جلسوا بين يدى وخلعوا حللهم كلها حتى غطونى بها ، فمثلت لى نفسى اننى الخليفة وأن أبناء الخلفاء هؤلاء هم بعض أتباعى، فملأنى التيه حتى خشيت أن أفتضح ! ..

ذكرت هذا اللقاء الذى مضت عليه سنوات طوال حين زارنى اليوم فى منزلى بمكة بعض شبان بنى أمية قادمين من دمشق وكانوا قد سمعوا بالمدينة مالكا ومعبدا فاعجبوا بهما .. فلما دخلوا بيتى وجدونى مريضا فقالوا :

ـ أتينا مسلمين عليك ، وكنا نشتهى أن نسمع غناءك !

ـ انى مريض كما ترون !

ـ ان الذى نكتفى منك به يسير !

فخجلت وأنا أعرف أقدار هـؤلاء العلية من القــوم أن أردهم ، فقلت يا جارية هاتى جلبابى وعودى ! .. فاتتنى الخادمة بهما ، وأسدلت قناعا على وجهى كما أفعل عادة عندما أغنى ، لقبح ما صار اليه وجهى بعد ماكبرت سنى وسقط شعر رأسى وازداد الحول فى عينى ..

فغنيت حتى اكتفوا ، وعدت أعتذر اليهم بمرضى ، فقالوا

ـ والله ما سمعنا قط أحسن مما أسمعتنا ، فأحسن الله عليك ، ومسح مابك من العياء !

وأجزلوا لى العطاء ، وانصرفوا يتعجبون مما سمعوا من غنـــائى على ما بى من المرض !

فبلغنى انهم لما مروا بعد ذلك بالمدينة منصرفين الى الشام ، غناهم معبد ومالك ، وكانوا قد طربوا لهما قبل أن يسمعوا غنائى ، فلما سمعوا منهما هذه المرة جعلوا لا يطربون ولا يستحسنون شيئا مما يغنيه معبد ومالك . فقال أهل المدينة لهم

ـ نحلف بالله انكم سمعتم ابن سريج فى مكة قبل قدومكم

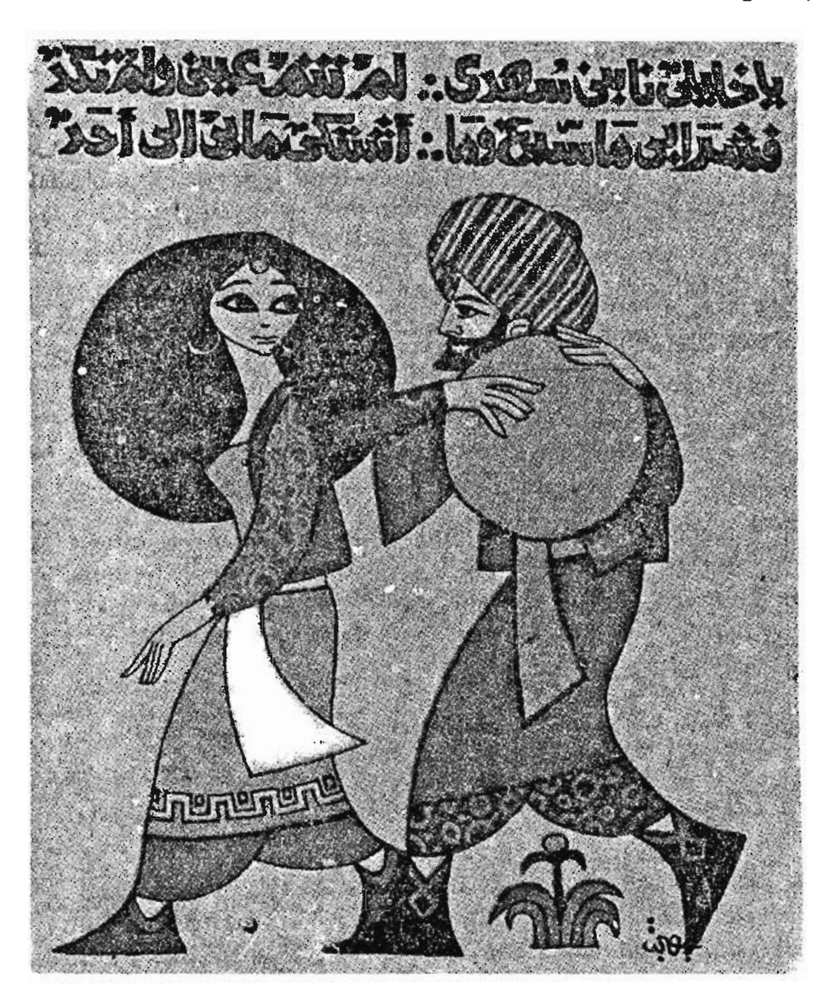
قالوا :

ـ أجل سمعناه ، فسمعنا ما لم نسمع مثله قط ، ولقد نغص علينا كل غناء نسمعه بعد غنائه مهما كان جميلا ! ٠٠

تذكرت اللقاء الاول ٠٠

وجاءنى خبر الاثر الذى تركه هذا اللقاء الثانى

وأعجبتنى نفسى ، وان نفسى لتعجبنى حتى أخاف أن يقتلنى الاعجاب بالنفس ! ٠٠



# ابن الرومية

**● اليوم الاول :**

نشأت خلاسيا ، مديد القامة ، أحول .. أمي بيضاء .. أبي اسود ، وأنا منهما بين الاسود والابيض كان أبي من الخدم الارقاء عند بعض أتباع الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وكانت أمي جارية رومية بيضاء عنده ، زوجها لابي فجئت أحمل من لونه ولونها هذا المزيج الاسمر الذى يصفه بعض الناس بالجمال ، ويقولون لولا ان معبدا أحول ، شديد الحول لكان من أجمل الناس بلونه وامتداد قامته !

جئت الى الدنيا محكوما بالرق مثل أبي وأمي ، فرعيت لسادتي أغنامهم وابلهم وأنا صغير ، وسافرت البلاد بتجارتهم وأنا كبير ، وعدت اليهم بأرباحها ، ولم أربح منها الا شرف الخدمة !

كنت مع ذلك أختلف أحيانا الى المغنى الفارسى (نشيط ) الذى كان يقيم بالمدينة المنورة ، فأتعلم منه شيئا ثم أجلس الى ( سائب خاثر ) المغنى الحاذق ، مملوك عبد الله بن جعفر الهاشمي فأرى كيف يغنى ويصنع صنعته فى فن الغناء العربى ، وكان هذا الفن وقتئذ فى نشأته يرتفع ويتسع على أيدى أمثال نشيط وسائب خاثر ، حتى أخذت منهما ما شئت من أسرار الصناعة واشتهرت بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت وصنعت الالحان فأجدت وتفوقت عليهما ، وصار لى فى ضرب العود واستنباط الالحان طريقة انفردت بها فتقدمت على أهل عصرى من عرفاء هذه الصناعة ..

كان الغناء العربى المتقن قد نشأ بمكة أيضا كما نشأ عندنا فى المدينة ، وشق طريقه ومهده هناك العبقرى ابن مسجح ، وسار على طريقته ابن سريج والغريض وغيرهما فتجاوبت أصداء فحول المغنين على الطريق بين القريتين ..

يقول الناس الآن : ليس فيمن يغنى بالمدينة ومكة والحجاز والشام ، أحد أعلم بالغناء من معبد ! ..

والحق انه لولا الاوائل الذين فتحوا لنا باب الغناء العربى المتقن ، ما بلغت فى هذه الصناعة شيئا .. وما زلت أذكر كيف كنت غلاما مملوكا لبعض موالى الخليفة معاوية وكانوا تجارا يكلفوننى برعاية تجارتهم ،فكنت

اذا تعبت أسندت راسي الى صخرة ، فأسمع وأنا نائم صــوتا يجـرى فى مسامعى ، فأقوم من النوم فأحكيه كأنى تلقنته وحفظته نائما ! ..

وسمعت مرة بعض من يحبون غنائى يقولون ان معبداً من أحسن الناس غناء ، وأجودهم صنعة وأحسنهم حنجرة وحلقا وهو فحل المغنين وامام أهل المدينة فى الغناء ، لا يدانيه الا فحل المغنين وامام أهل مكة فى الغنـاء « ابن سريج »

وسئل مالك بن ابى السمح وهو من أحسن المغنين أنت أحسن غنـاء أم معبد ؟! .. قال مالك والله ما بلغت قط شراك نعل معبد ! ..

ويعجبنى الانصاف والصدق في القول ، وان مالكا على تواضعه هذا لى ، لمن أحسن المغنين فى المدينة ومكة وسائر الامصار

## ● اليوم الثانى :

تعلمت مني الغناء جارية تدعى « ظبيـــة » .. وجـاء رجـل من أهــل العراق فاشتراها ثم علمت انه باعها في البصرة لرجل من أهــل الاهــواز فعاشت معه في منزله هناك واعجبته كل الاعجاب وحفظت عنها جــواريه أكثر الالحان التى تعلمتها منى .. وكانت كلما طارحتهن لحنا قالت لهن : هذا من صنعة أستاذى معبد فيقول لها سيدها لقد شوقتنا الى رؤيته يا ظبية !

ثم ماتت ظبية وانقطعت عنى أخبار هــذا الرجل الذى لم اره قط ولا أعرفه

خـرجت أخـيرا من مكة أريد البصرة ، ثم بدا لى فى البصرة أن أقصـد الاهواز فنزلت فى سفينة امتلأت بالجوارى وليس معهن الا رجل واحد هو صاحبهن ، وهن ملك يمينه ..

فلما صرنا فى نهر « الابلة » أمر الرجل جواريه فغنين وســمعتهن مليا وأنا ساكت ، حتي غنت احداهن لحنا من الحاني فغلطت فيه ، فصـحت بها يا جارية ، ان غناءك هذا ليس بمستقيم !

فغضب مولاها وقال لى

ـ صه ! .. ما شأنك أنت بالغناء ؟!

فعدت الى السكوت ، فغنت جارية أخرى لحنا لى من شعر عبد الرحمن ابن أبى بكر

**بابنة الازدى قلبى كئيب**

**مستهام عنـدها ما ينيب**

**ولقد لاموا فقلت : دعونى**

**ان من تنهـون عنه حبيب**

انما أبلى عظامى وجسمى

حبها والحب شىء عجيب

فاختلت بعض أقسام اللحن فى حلق الجارية ، فقلت لها مغضبا

ـ يا جارية لقد أخللت بهذا الصوت ! ..

فصاح الرجل

ـ ويلك ! .. ما أنت والغناء ! الا تكف عن هذا الفضول ؟!

ثم غنت الجارية الثالثة لحنا لى فى قول كثير عزة

خليلى عوجا فابكيا ساعة معى

على الربع نبلغ حاجة ونودع

وقولا لقلب قد سلا : راجع الهوى

وللعين : أذرى من دموعك او دعى

فلا عيش الا مثل عيش لنا مضى

مصيفا أقمنا فيه من بعد مربع

فقلت لها ما قلته لزميلتيها وبينت لها خطأها فوجدت صاحب الجوارى يكاد يسل سيفه ليقتلنى من شدة غيظه منى ، فاندفعت أغنى هذا الصوت على وجهه الصحيح ، واجتهدت فى أدائه وتحفظت ، فصاحت الجوارى وقد زلزلت السفينة عليهن وعلى صاحبهن طربا وعجبا ، ووثب الرجل فقبل رأسى ، وقال

ـ سيدى اخطانا عليك ولم نعرف موضعك وقدرك ، وأنا أعتذر اليك مما جرى !

فقبلت اعتذاره وسألته

ـ ممن أخذت جواريك هذه الالحان ؟!

ـ من جارية كانت لى ، وقد ماتت ، وكانت ـ رحمها الله ـ قد أخذت هذه الالحان من « معبد » سيد مطربى المدينة

ـ أكان اسمها « ظبية » ؟!

ـ نعم ! فمن أدراك ؟!

ـ هى من تعليمى وتخريجى فأنا معبد ؟!

فاكب الرجل والجوارى على يدى ورجلى يقبلونها ويقولون

ـ كتمتنا نفسك طول الوقت حتي جفوناك في المخاطبة ، وأسأنا عشرتك ، وأنت سيدنا ومن كنا نتمنى على الله أن نلقاه ! ..

ثم قام الرجل فجاءنى بخلعة من أفخر ملابسه ، وأعطانى ثلثمائة دينار وهدايا وطيوبا ، وانحدرت معه فى السفينة الى الاهواز وأقمت فى منزله أطارح جواريه الحانى حتى حفظنها وبرعن وصارت فيهن واحدة أو اثنتان

فى مثل براعة « طبية » رحمها الله ! ٠٠

كان أهل الحجاز طوال هذه المدة يسألون عنى ويبحثون حتى عدت اليهم وقد انقضت شهور كثيرة ! ٠٠

### ● اليوم الثالث :

جاء البريد من دمشق الى المدينة يطلبنى ٠٠

قال لى صاحب البريد : ان أمير المؤمنين الوليد بن يزيد ، قال : لقد اشتقت الى معبد ! ٠٠

دخلت على أمير المؤمنين ، فاذا هو جالس عند بركة قد ملئت بماء ورد قد خلط بمسك وزعفران فقال : غننى يا معبد :

**لهفى على فتيـــه دان الزمان لهـم**
**فما يصـــيبهم الا بما شـــاءوا**
**مازال يعدو عليهم ريب دهـرهم**
**حتى تفانوا وريب الدهر عـداء**

فما غنيت اللحن ، حتى نزع ثيابه وألقى نفســـه فى بركـة ماء الورد والمسك والزعفران ، فغاص فيها ، ثم خرج منها ، فاستقبلته الجـــوارى بثياب غير الثياب الاولى ٠٠

ثم شرب وسقانى من ابريق ، وقال : غننى يا معبد :

**يا ربع مالك لا تجيب متيمـــا**
**قد عاج نحوك زائرا ومســـلما**
**جادتك كل سحـــابة هطـالة**
**حتى ترى عن زهرة متبســـما**
**لو كنت تدرى من دعاك أجبتـه**
**وبكيت من حـــرق عليه اذن دما**

فغنيت اللحن واجتهدت فى غنائه بملء صـــوتى واحساسى ، فرأيته قد أخذته رعدة الطرب ، فألقى نفسه بثيابه فى البركة فغاص فيها ثم خـرج ، فنزعت الجوارى ثيابه وألبسته غيرها ، ثم شرب قدحا وسقانى ، وقال لى :

ــ بحياتى غننى :

**عجبـــت لمـــا أرتنى**
**اندب الربع المحيـــــلا**
**واقفـــا فى الدار ابكى**
**لا أرى الا الطـــــلولا**
**كلمـــا قلت اطمـــأنت**
**دارهم قالوا : الرحيــلا**

فلما غنيته وثب فى البركة ثم خرج يرتعد ، لا أدرى أمن الطـرب أم من برد أصابه لكثرة ما رمى بنفسه فى الماء ، فجاءت الجوارى بالمجامر والبخور حتى سرى فيه الدفء فسكن وشرب قدحا وسقانى ! ..

وانتشى الوليد ، وبان فى وجهـه السرور بى فى ذلك اليـوم ، وقال لى مبتهجا مبتسما :

ـ يا معبد سررتنى ، وأسمعتنى شيئا لم أسمعه من حلق مغن ولا مغنية ، ولا أظن انى أسمع مثله أبدا ..

ثم دعا بخمسة عشر الف دينار فصبها ذهبا نضـــارا يبرق بين يدى .. وقال :

ـ يا معبد .. من أراد أن يزداد عندنا حظوة فليكتم الاسرار !

قلت :

ـ ذلك ما لا يحتاج سيدى الى ايصائى به ! ..

## ● اليوم الرابع :

تمضى الايام ، وتزحف الشيخوخة على جســـدى كله ، وبخاصة حنجرتى وحلقى ، فأنا الان أكاد أعجز عن الغناء وهو حياتى ! ..

اصابنى الفالج ، أرتعشت أوصالى .. بطل صوتى .. صـــار من كان يطرب لى ، يهزأ بى ويضحك اذا حاولت أن أنطق حرفا ..

أمر أمير المؤمنين الوليد بن يزيد بحملى اليه حين سمع بحالى ، وقال لى :

ـ لو كانت الصـــحة والعـــافية مما يمكن شراؤه ، لاشـــتريتهما لك بالنفائس ! ..

وأنزلنى أمير المؤمنين فى قصره ، لتعتنى بى الجارية المغنية الحـــاذقة سلامة القس التى تعيش هناك منذ اشتراها أبوه الخليفة يزيد بن عبد الملك هى وزميلتها « حبابة » التى توفيت منذ بضعة وعشرين عاما ..

وقفت سلامة على سريرى تبكى وتغنى بصوت خافت لحنـا لى تندبنى به والموت يحوم على سريرى :

قد لعمـــرى بت لى

كاخى الداء الوجيع

ونجى الهـــم منى

بات أدنى من ضجيعى

كلما ابصرت ربعـا

خاليا فاضت دموعى

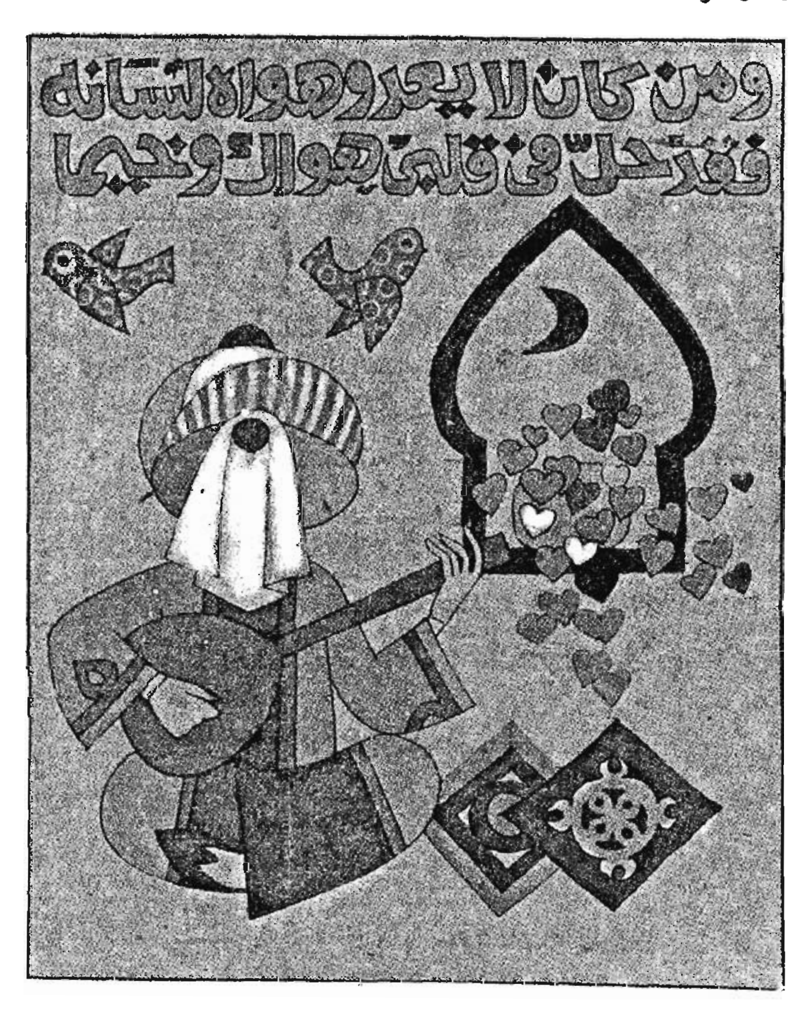
**قد خلا من سيد كان**

**لنا غير مضـــــيع**

ففاضت دموعى حزنا وطربا وأنا على قيد أنملة من الموت ٠٠ ورأيت الخليفة وبعض اخوته قد تجردوا فى قمصانهم وأرديتهم الخفيفة يحفون بسريرى ! ٠

وما أبالى ان ياخذنى الموت بعد ساعة او بعض ساعة ، فقد أخذت نصيبى من الدنيا ، وما فرطت فى أمر الآخرة من شيء ! ٠٠

الموت يزحف ، وسلامة تغنى وتبكى ٠٠ والخليفة مشـــمر فى أمرى ، يريد أن يخرجنى بنفسه الى موضع قبرى ، تكـريما لى ! ٠٠ فالحمـد لله أولا وآخرا ٠٠



# بطـــة الأفـــراح

## ● اليوم الاول :

نشأت في ( الحيرة ) من أرض العراق ‥ منزلى الآن بمدينة الكـــوفة ، وأهلى من قدماء العرب سكان هذا الاقليم منذ الجاهلية ، عاشــوا فيه تحت حكم ( المناذرة ) ملوك الحيرة المشهورين ، حتى جاء الاسلام فدخل فيه أكثر اهل الحيرة مع أكثر أهل العراق ، وبقى على دينهم القديم أناس ‥

في صباى الباكر كنت خفيفا رشيقا حسن المنظر ، أبيـــع الفـــاكهة والرياحين ، أحملها الى قصور الامراء والكبراء في الكوفة ، فيأذنون لى أن أستمع عندهم الى جواريهم المغنيات اللاتى جلبن من الحجاز والشـام ‥ ولا يطردوننى لما عرفوا عني من خفة الروح واللباقة والهيام بالغنـاء حتى لاستغنى به عن الطعام والشراب وكل لذائذ الحياة ! ‥ ويســمحون لى ـ في عطف بالغ ـ بالوقوف قرب مجالسهم أصيخ الى المغنيات ، حتى حفظت الكثير من الالحان ‥ وكنت منذ صباى مطبوعا على الغناء ، حسن الصوت، سريع الحفظ ، فاشتريت عودا وتعلمت الضرب عليه ‥ ثم أردت الزيادة من العلم بالغناء فرحلت الى بعض نواحي الحجاز واخـذت من أهـل هـــذه الصناعة كثيرا من أسرار صناعتهم حتى دخلت في الصنعة وأحكمتهـــا ‥ وصرت وحدى مطرب العراق كله ، فليس في العراق غيرى من الكـــوفة الى البصرة الى النجف ‥ الى شرقه وغربه ، الا بعض الضعفاء ممن لا يؤبه لهـم في هذه الصناعة ولا يطلبهم أحد من الكبراء وأهل الثراء ! ‥

ومع صناعة الغناء ، لم أنقطع عن عمل آخر لى ، فانى أكـرى الابل الى الشام وغيرها ، وكنت دائما جمالا نشيطا ، لان صناعة الغناء كانت تكسد في العراق أحيانا ، حين يجىء الينا أمير لا يحب الغناء فيأمر بمنعه ! ‥

وأنا أتنقل بين الكوفة والحيرة والنجف والبصرة ، أحمل عودى وأرتزق وما أصعب الارتزاق بالغناء في العراق ! ‥

يقول الناس ان مطربى الحجاز يكسبون عشرات الالوف من الدراهم في سهرة واحدة ‥ واذا طلبهم الخليفة في دمشق انفتح لهم باب الثراء ! ‥ وأين أنا من ابن سريج ومعبد والغريض ومالك ابن أبى السمح وابن عائشة وحكم الوادى وغيرهم ممن سمعنا عن ثرائهم ؟! ‥

هؤلاء أغناهم عملهم بين مكة والمدينة ودمشق ، ولم يكســـد بينهم الا

( ابن محرز ) على تفوقه فى الغناء والتلحين ، لانه منعزل فى بيته لايقصد الناس الا قليلا ..

وقد جاء ابن محرز أخيرا الى الكوفة قاصـدا أميرها ، فتلطفت له حتى دعوته الى منزلى وغنيته لحنى :

انا حنين ومنزلى النجف
وما نديمى الا الفتى القصف

اقرع بالكاس ثغر باطية
مترعة تارة واغترف

من قهوة باكر التجار بها
بيت يهود قرارها الخزف

والعيش غض ومنزلى خصب
لم تغذنى شقوة ولا عنف

فلما سمعنى ابن محرز وهو البصير بالغناء ، قال لى :
ـ أحسنت يا حنين والله ، ولم تبق شيئا جميلا لم تأت به ، من الشعر الى اللحن ! ..

فشكرته وسألته أن يسمعنى بعض غنائه ، فغنانى هذا اللحن :

وحر الزبرجد فى نظمه
على واضح الليت زان العقودا

يفصل ياقوته دره
وكالجمر ابصرت فيه الفريدا

فسمعت من غنائه ما هالنى وحيرنى ، وأذهلنى تلحينه وجمال حنجرته ، فخشيت أن يسمعه الامير ثم يسمعه الناس فيستولى عليهم بروعة غنائه ويسقط غنائى وتبور بضاعتى .. فقلت له :

ـ كم تمنيت من المال حين فارقت بلدك قاصدا العراق ؟! ..

ـ ألف دينار ! ..

ـ فانك لا تجمع هذه الدنانير كلها الا بعد أن تغنى بضعة أشهر فى فى العراق ، ولك منى هذه الدنانير الخمسمائة فخذها عاجلة ضربة واحدة تملأ بها كيسك ، وانصرف راشدا الى بلدك ! .. ثم احلف لى انك لا تعود الى العراق مرة أخرى فانه مورد رزقى ، ولك فى الحجاز والشام متسع !.

أخذ ابن محرز ما أعطيته وانصرف .. ولو أعطيته أقل من ذلك لرضى به لانه لا يحب معاشرة الملوك ولا السعى الى النـاس ، ولا يؤثر على الخلوة شيئا ! ..

## ● اليوم الثانى :

جاء الى الكوفة أمير جديد اســـمه خالد بن عبد الله القسرى ، فأبطـل الغناء بالعراق كله ، فصرت لا أستطيع الغناء عند أحد من النـاس ، حتى ساءت حالى وانقطعت كارها الى صناعتى الاولى ، اكرى الابل بين العــراق والشام •• وهى صناعة لا يكفينى رزقها ••

انتظرت طويلا ، فلم يرحل عنا هذا الامير كانما خلت الدولة الاموية من الامراء فلا ترسل الينا بأمير آخر يكون له رأى حسن فى الغنـــاء وأهـل صناعته ! ••

فلما طال الانتظار ، وساءت الحال ، وأحوجت الخصاصة ، دخلت اليه يوما مع عامة الناس حين أذن لهم بالدخول ، ومعى العود أخبئه فى ثيابى، فقلت له :

ـ أصلح الله الامير •• كانت لى صناعة اعود بها على عيالى ، فحـرمها الامير فاضر ذلك بهم وبى ! ••

قال الامير :

ـ وما صناعتك ؟! ••

فكشفت عنعودى وقلت : هذا ! ••

فعبس الامير فظننت أنه سيأمر بقتلى أو سجنى ، ولكنه قال لى وقد زال عبوسه :

ـ غن ! ••

فحركت أوتار عودى وأنا أقول فى نفسى : « هذا رجل صالح يحب من يعظه ويذكره بالموت والآخرة » •• ثم غنيت فى هذا المعنى :

**أيها الشامت المعير بالدهر**
**أأنت المبرأ الموفـــور**
**أم لديك العهد الوثيق من الايام**
**بـل انت جاهـل مغـــرور**
**من رأيت المنون خلدن أم من**
**ذا عليه من أن يضـــام خفير**

فبكى الامير مما ورد عليه من الاتعاظ بذكر الموت فى هذا الغناء ، ولا أظنه طرب لغنائى أو التفت الى لحنى •• ثم قال لى :

ـ قد أذنت لك وحدك خاصة بالغناء •• فلا تجالس سفيها ولا معـربدا فى غنائك ! ••

قلت :

ـ نعم •• أصلح الله الامير ! ••

ومضيت فرحا فقد فتح الامير من جديد باب الرزق لى وكأنه يظن انى سأغنى الناس عن « الموت » كما غنيته هو ، وأننى سأجلس فى أفراحهم أضرب العود وأغنى بالمواعظ بينما العروس فى الجلوة ، والناس يضجون بالسرور ·

## ● اليوم الثالث :

نقل الخليفة أميرنا خالدا القسرى ، وجاءنا غيره ، فلم يكد يجلس فى دار الامارة بالكوفة حتى سأل عنى ، فأسرعت اليه أقول له : لبيك سيدى !

وكنا ليلة فى سهرة عند هذا الامير ، فاذا حاجبه يدخل ويقول له ان الفقيه العظيم « الشعبى » يطلب الاذن بالدخول ، فأشار عليه بعض الحاضرين ان يعتذر له من عدم لقائه فى هذه الساعة من الليل ، حتى لا يرى ما نحن فيه من الغناء ··

ولكن الامير اذن للفقيه الامام الشعبى فدخل ·· وقال له الامير :

ـ يا أبا عمرو ·· لو كان غيرك لم آذن له ونحن على هذه الحال ! ··

قال الشعبى فى ذكائه ولباقته وحلاوة منطقه المأثور عنه :

ـ أصلح الله الامير ، عندى لك الستر لكل ما أرى منك ، والشكر على ما توليني ان شاء الله ·

ـ كذاك الظن بك يا أبا عمرو ·· وأنت أنت ! ··

ثم التفت الشعبى نحوى فتضاءلت وانكمشت كأننى أريد أن أختبىء منه ولو فى جوف عودى ! ·· فابتسم وقال لى :

ـ كيف أنت يا أبا كعب ؟! ··

قلت :

ـ بخير يا سيدى أبا عمرو ! ··

قال لى :

ـ أحزق الزير فى عودك وأرخ البم ، فذلك أفضل لنغمة هذين الوترين !

ففعلت ذلك ، وضربت فوجدت نغمة العود أحلى ، فقال الامير لاصحابه هامسا :

تلومونني على أن آذن لهذا الشيخ الجليل بالدخول فى كل حال ؟! ·

ثم أقبل الامير على الشيخ الامام الشعبى قائلا :

ـ يا أبا عمرو ·· من أين عرفت حزق الزير وارخاء البم فى أوتار العود؟!

قال الشعبى باسما

ـ ظننت ان الامر هناك ! ··

قال الامير :

ـ فان الامر كما ظننت هناك كله ! ·

ثم قال له الامير غامزا بعينه :

ـ فمن أين عرفت حنينا ؟! ···

فالتفت الى الشعبى وقال :

ـ هذا بطة أعراسنا وأفراحنا فكيف لا أعرفه ؟!

فضحك الامير وجلساؤه ، وغنيت فاجدت وأطربتهم ورأيت الشعبى ينصت منبسط الاسارير ، وأعجبنى جدا انه قال عنى : هذا بطة أفراحنا ·

أمر لى الامير بجائزة كبيرة ·· وكانت ليلة لم أر مثلها ، ولا استمتعت بشىء فى الدنيا أمتع منها ، لوجود الشعبى فيها ، وهو من هو بين الناس، خاصتهم وعامتهم ! ··

## ● اليوم الرابع :

اجتاز أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك الكوفة فى طريقه الى الحج ، فوقفت له فى بعض الطرقات ومعى عودى والى جانبى زامر يزمر لى ، وأنا أغنى :

**امن سلمى بظهر الكوفة**
**الآيات والطلل**
**يلوح كما تلوح على**
**جفون الصيقل الخلل**

فقال هشام لمن معه :

ـ من هذان ؟! ··

قالوا :

ـ حنين المغنى وزامره ! ··

فأمر بى وبالزامر فحملنا فى محمل على جمل ، وسار بنا ، فغنيت وهشام يسمع ·

**صاح هل ابصرت بالخبتين**
**من اسماء نارا**
**موهنا شبت لعينيك**
**ولم توقد نهارا**
**كتلالى البرق فى المزن**
**اذا البرق استطارا**
**اذكرتنى الوصل من سعدى**
**واياما قصارا**

فلم أزل أغنى لهشام حتى نزل ، فأمر لى بمائتى دينار ، وللزامر بمثلها !

وكانت عطية قليلة ، فان بعض الامراء يعطون المغنين أضعافها ، ومع ذلك حسدنى بعض الناس وقالوا لى :

ـ أنت تغنى منذ خمسين سنة ، ما تركت لكبير من الكبراء مالا ولا دارا ولا عقارا الا أتيت عليه ! ..

قلت لهم :

ـ بأبى أنتم ! .. انما هذه أنفاسى أقسمها بين الناس ، أفتلوموننى ان أغلى بها الثمن ؟! ..

## ● اليوم الخامس :

جاءتنى دعوة من ابن سريج ومعبد والغريض أن أزورهم فى الحجـــاز ، فخرجت اليهم ، فلما كنت على مرحلة من المدينـــة جاءوا مع جمـــع هائل يتلقوننى ، وذهبوا بى الى منزل السيدة سكينة بنت الحسين ، فلما دخلنا أذنت للناس كلهم أن يدخلوا فغصت بهم الدار وصعدوا فوق السطح ، ثم سألونى أن أغنى لحنى الذى أوله : « هلا بكيت على الشباب الذاهب » .. فغنيتهم وازدحم الناس على السطح ليسمعونى فسقط الرواق على من تحتـه فسلموا جميعا وخرجوا أصحاء ! .. الا أنا فقد تهشمت عظامى ! ..

وسمعت سكينة بنت الحسين تقول :

ـ لقد انتظرنا حنينا مدة طويلة كأننا والله كنا نسوقه الى الموت ! ..

وأرانى لابد ميتا ، فانى أشعر بالموت يتمشى فى جسدى علوا وسفلا ! .. وأرى بعينى شبح الموت ! .

# غلام من اليمن

**● اليوم الاول :**

أول ما عرفت قسوة الدنيا كنت غلاما صغيرا ، هاجرت من بلدى فى اليمن مع أمى واخوتى واخواتى الايتام ، لا نملك شيئا ، قد أجدبت أرضنا ، وأخذ الجوع بخناقنا .. فنزلنا « المدينة » وهى يومئذ مزدهرة بأهلها الاماثل الذين كثر فى أيديهم المال مما يغمرهم من أعطيات الخلفاء ، وصاروا مضرب الامثال فى التنعم والرفاهة وطيب العيش ! ..

أوينا الى خص على مشارف المدينة المنورة ، وقالت لى أمى :

ـ اذهب يا مالك فاسأل الناس ، فانهم متى رأوا بؤسك أشفقوا عليك وأعطوك مما أعطاهم الله ! ..

فكنت قليلا ما أسأل الناس ، الا على مقربة من دار بعض أحفاد عبد الله ابن الزبير ، فسمعت يوما صوتا عجبا ينبعث من هذه الدار ، فوقفت على بابها أتسمع ، فاذا غناء لم أسمع مثله قط ، سألت بعض خدم الدار عنه فقالوا لى : هذا « معبد » أشهر المغنين فى المدينة ! ..

صار دأبى بعد ذلك الا أسأل الناس احسانا الا وأنا واقف على باب هذه الدار التى ينبعث منها غناء « معبد » كل ليلة تقريبا .. فاذا عدت الى أمى واخوتى الجياع ، لم أعد الا بقليل من الزاد لا يشبعهم ، فتقول لى أمى غاضبة :

ـ كأنك لا تطوف بالمدينة ولا تطلب من أحد شيئا ، بل تقف فى مكان واحد لا تريم ، فمن مر بك وأعطاك أخذت منه ، ومن منعك لم تلحف عليه فى السؤال ، والناس لا يعطون الا لمن يسألهم الحافا ..

قلت لامى :

ـ هو ذاك والله ! .. وانى يا أماه لمشغول البال بما هو أجدى علينا من استجداء الناس ! ..

قالت غاضبة

ـ وأى شىء أجدى علينا من أن تنشط فى السؤال لى كل مكان بالمدينة ؟! .. وماذا يشغلك أيها الاحمق الجاهل عن طلب العيش لاخوتك الصغار الجياع المساكين ؟! .

قلت لها :

ـ غناء أسمعه من دار بعض آل الزبير بن العوام ، لا يتعلق به أحد من المغنين في المدينة كلها ! ..

فلطمت أمي خديها وصاحت :

ـ اخوتك وأخواتك يقتلهم الجوع وأنت واقف على باب أولئك السادة تسمع الغناء ؟! .. أية مصيبة يا ربي حلت بنا من حماقة هذا الغلام وبلادة حسه ؟! ..

## ● اليوم الثاني :

ضربتني أمي ضربا مبرحا لاني لم أكتسب شيئا امس ، ولكني لا أبرح موضعي على باب آل الزبير ، استمع الى معبد ، فاحفظ ألحانه ، ولا أتبين كلمات الشعر الذي يغنيه ، فاكتفي بحفظ النغمات دون الكلمات ، فاذا رددت اللحن مترنما كان لحنا خالصا لا أعرف له كلاما ! ..

واليوم رآني صاحب الدار واقفا عند بابه كعادتي كل يوم وليلة فقال لي :

ـ اظنك تقف على بابي لتسمع غناء معبد ؟! .

ـ نعم يا سيدي ! ..

ـ من أنت ؟! ..

ـ غلام من اليمن ، اسمي مالك بن أبي السمح أصابنا الجدب فجئت المدينة ومعي أمي وأخواتي واخوتي الصغار ، وأنا أسأل الناس لهم ، وقد لزمت باب دارك ، أسمع معبدا وأسأل الناس ! .

ـ فكيف وجدت ملازمتك لبابنا ؟! ..

ـ أما الغناء الذي أسمعه فلا شيء مثله ، وأما العيش فوالله ما شبعت على بابك شبعة قط ، ولا انقلبت منه الى أهلي بخير ! ..

جزع الرجل وتجهم ، وأمر لي ولامي واخوتي بمنزل ورزق يجرى علينا وكسوة ، وخادم يخدمنا ، وعبده يحمل الينا الماء ! .. وقال لي :

ـ هل تستطيع أن تغني شيئا مما سمعت ؟!

كان معبد قد حضر كعادته ، فجلس يسمعني وأنا أترنم بالحانه دون كلمات ، فاديتها كلها بما فيها من نبراته وتعليقاته وصيحاته وقراراته وعطفاته ومداته ولياته ، نغمة نغمة .. حتى رأيت الدهشة في وجه معبد كما رأيتها في وجه النبيل الزبيري الذي أدخلني داره بعد أن وقفت على بابها أياما وليالي !

قال الرجل لمعبد :

ـ خذ هذا الغلام فخرجه وأطلعه على أسرار الغناء ، فاذا عرفه الناس يوما،

كانت محاسنه منسوبة اليك وقالوا : هذا خريج معبد وتلميذه ! ..

## ● اليوم الثالث :

مضت مدة منذ اجلسني معبد لاول مرة يطارحني الالحان ويعلمني ، وقد مهرت وحذقت حتى أدهشت معبدا بحذقي ومهارتي .. ووجدني معبد أقلده في التلحين ، فنصحني الا أفعل ذلك ، ولكني لم أنتصح ، وصرت ألحن على طريقته ، فاذا سمعني الناس قالوا : هذه ألحان معبد ، فأقول لهم : بل ألحاني ! ..

غضب معبد وذهب الى صديقه الزبيري وقال له :

ـ هذا الغلام قد عرف طريقتي وادعاها لنفسه ، وهو يتزايد على الايام لانه ما زال شابا ، وأنا أشيخ وأضعف ، ويجف حلقي ، ويتغير صوتي حتى يتجافاني من كان يشتهي سماعي ! .

قال له يواسيه :

ـ سيقول الناس انك عوضتهم من نفسك بهذا الغلام الذي يجري في نهجك !

قال معبد وهو منكسر :

ـ صدقت أيها الامير !

فأمر الرجل لمعبد بجائزة وكسوة حتى طابت نفسه ، وقمت أنا الى معبد فقبلت رأسه ، وقلت له :

يا أبا عباد .. أساءك مني هذا الغناء الذي أجري فيه على طريقتك ؟! .. والله لا أغني لنفسي شيئا أبدا الا نسبته اليك وقلت للناس : هذا من صنعة معبد .. فطب نفسا وارض عني !

قال معبد :

ـ أوتفعل هذا ، وتفي به يا مالك بن أبي السمح ؟! ..

قلت :

ـ أي والله وأزيد عليه ان شئت ! ..

قال معبد :

ـ ان رأيت ألا تفعل ذلك كان أقرب الى العدل ، فانك أحق بثمرة عملك !

## ● اليوم الرابع :

سافرت الى مكة أغني عند بعض نبلائها من قريش ، فنزلت بدار صديق لي ، فسمعت غناء من غلام يشتغل حائكا عنده ، فقلت للغلام : أعد علينا هذا الغناء ، فغناه حتى حفظت اللحن فأخذته ووجدت كلامه رديئا فاخترت له شعرا جيدا والبسته هذا اللحن فصار جميلا رائقا ، وغنيته للناس فرأيتهم

يقولون : هذا لحن مالك ، ووالله ما هو الا ما سمعته من ذلك الحائك ولا أدرى من أين وقع له ، ولعله من فطرته وطبعه فى الغناء ! ..

افتتن الناس هنا بغنائى حتى مدحنى شاعر منهم فقال :

**لاعيش الا بمالك بن أبى السمح**
**فــلا تلــحنى ولا تلــم !**
**ابيض كالبدر أو كما يلمع البارق**
**فى حـــالك من الظــلم**
**من ليس يعصيك ان رشدت ولا**
**يهتك حق الاســلام والحرم**
**يارب ليل لنا كحاشــية البرد**
**ويــوم كــذاك لـم يـلم**
**نعمت فيه ومالك بن أبى الســمح**
**الكــريم الاخــلاق والشــيم**

صنعت فى هذا الشعر الجميل لحنا طرب له الناس ، وربحت فى هـذا اللحن ثناء الشاعر وثناء كل من سمع الشعر واللحن ! ..

وقال لى أحد العارفين بصناعة الغناء :

ـ يا أبا الفضل .. ان الناس ينسبون الحانك الى معبد ، فما تقول ؟! ..

ـ انى آخذ ألحانه فأحسنها وأهيئها فينسبها الناس لى ..

ـ ليس الامر كذلك والله يا أبا الفضل ولكنك تفى لمعبد بما وعدته حين كان يعلمك الغناء ، من نسبتك ألحانك اليه عرفانا بجميله ! ..

ـ أترى ذلك ؟!

ـ نعم ، فان لك صنعة كثيرة حسنة ، تجرى فى أسلوب واحد ، ويشبه بعضها بعضا ، ولو كنت تدعى الالحان لاختلف غناؤك .. وقد ســمعنا لحنك : « لاعيش الا بمالك بن أبى السمح » .. فهل هذا أيضــا من تلحين معبد ؟! ..

فلم أحر جوابا ولزمت الصمت ! ..

## ● اليوم الخامس :

أشخصنى أمير المؤمنين الوليد بن يزيد اليه فى دمشــق ، فغنيتــه أول مرة فلم يعجبه غنائى واحتبس صوتى تهيبا له ، فلما خرجت من حضرته قيل له :

ـ يا أمير المؤمنين ان هذا المغنى قد هابك فاحتبس لسانه فأبعث اليه مرة أخرى ..

فلما أرسل يطلبنى ، وقفت قبل دخولى مجلسه فى دهليز بالقصر ، فقلت

للفراش : اسقنى قدحا من شراب ولك دينار ، فسقانى وأخذ الدينار ، ثم زادنى قدحين آخرين واخذ دينارين أيضا .. حتى انتشيت ودخلت على الوليد ابن يزيد أخطر فى مشيتى فلم أسلم عليه وأخذت بحلقة الباب فقعقعتها ، ثم رفعت صوتى فغنيت :

لاعيش الا بمالك ابن أبي السمح
فـلا تلـــحنى ولا تلـــم ! ..

فطرب الوليد ، ورفع يديه ، حتى بدا ابطاه ، وقام فاعتنقنى وقـال لى : ادن يا ابن أخى .. وأمرنى فأعدت اللحن مرات ، وهو يزداد طربا ، وأجزل صلتى ..

ثم غنى المطرب القدير ابن عائشة ، فازداد طرب الوليد ، وهو يفضـــل ابن عائشة على غيره من المغنين ويقول ان غناءه يتركه كأنه يتقلب على الجمر من فرط حرارته ! ..

وابن عائشة يظن نفسه أعقل الناس ويتهمنى بالحمق ، وما الحمق الا فى رأسه هو ! ..

فبينما نحن فى سرور عند أمير المؤمنين الوليد وقد فرغنا من الغناء وفزنا بالجوائز ، هجم على القصر جمـــاعة الثائرين على أمير المؤمنين ممن يتهمونه بشتى التهم ، وأولها انشغاله بالغناء والنساء والشراب وتبذيره فى أموال الدولة وتبديدها فى لذاته ! ..

ولما رأيت السيوف مصلتة فى أيديهم تريد رأس الوليـد التفت الى ابن عائشة فقال لى :

ـ اثبت بنا فى مكاننا فان هؤلاء لا يقصدوننا !

قلت له :

ـ بل اهرب بنا أيها الغبى المتعاقل !

فجادلنى فى ذلك الموقف الضنك وقال لى : لماذا نهرب نحن ، وماذا يريدون من أمثالنا ؟! ..

قلت له وقد نفد صبرى وملأنى الخوف والسيوف تقترب :

ـ لو أخذوا رأسينا لجعلوا بينهما رأس الوليد ، ثم جمعوا الناس وقالوا لهم تحسينا لفعلتهم : أمسكنا بهذا الفاسق ، ومعه هذان الفاسقان يغنيـانه ويشربان فى مجلسه .. فجمعنا رءوس الثلاثة ! .. فيكون قـولهم هــذا تبريرا وتحسينا لامرهم عند العامة ! ..

فرأيت ابن عائشة قد فهم كلامى ، وجرينا كفرسى رهان فى دهاليز القصر حتى خرجنا ونحن لا نصدق اننا نجونا ! ..

قال لى ابن عائشة وقد ابتعدنا عن دمشق وأخذنا طريقنا الى الحجاز :

ـ ما رأيت منك عقلا ولا حكمة قط الا فى ذلك اليوم ! .. فلو بقينا مع

الوليد ، لرفع القتلة على رماحهم ثلاثة رءوس لا رأسا واحدا ! ٠

## ● اليوس السادس :

تمضى الايام ٠٠ يتناقص صوتى ويجف حلقى كما حدث لمعبد وغيره من شيوخ المطربين ! ٠٠

مررت امس بفتية من قريش جلوسا فسألونى أن أغنيهم فاعتذرت بذهاب صوتى وضيق أنفاسى ، فقالوا : يكفينا منك القليل ! ٠٠ فرفعت صوتى فلم أقدر ، ثم خفضته فلم أقدر ، فبكيت وجعلت أصيح : واشباباه ! ٠٠

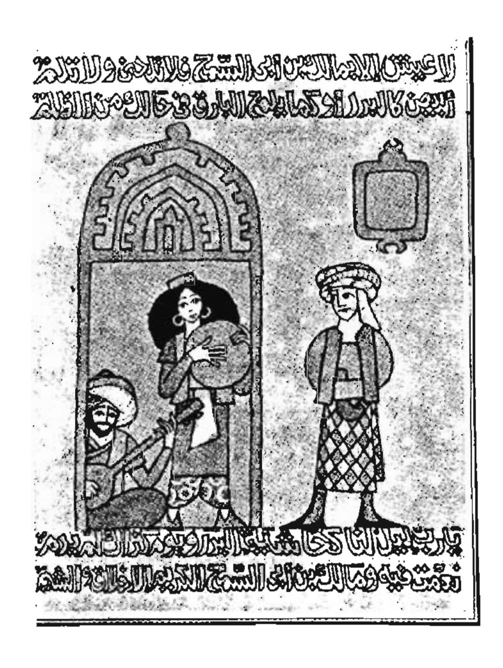
ضعف بصرى فصرت كفيفا ، فبينما أنا فى الحمام الكبير بالمدينة ، وصاحب الحمام يدعك جسدى وينظفه ، سمعت حس انسان بجانبى يقول لى : ياعماه ٠٠ من أحسن الناس غناء ؟!

قلت له : كم بلغت من السن أيها الفتى ؟

قال : عشرين سنة ! ٠٠

فبكيت وصحت بما تبقى فى صوتى :

ـ واشباباه !



# الزرقاء تلتقط اللؤلؤتين

**● اليوم الاول :**

تتحدث الكوفة كلها عني الآن ، ويقول ظرفاؤها وعشـــاق الجمال فيها : ما على وجه الارض مثل سلامة الزرقاء ، حســـنا وحلاوة ورقة وبراعة فى الغناء ، فلا يلحقها الوصف فى ضرب من ضروب جمالها وفتنتها !

وافتتن بى محمد بن الاشعث الكاتب الكوفى ، فقال هذه الابيـــات التى ملأت الكوفة وسارت بها الركبان الى مكة والمدينة ودمشق والبصرة :

**امسى لســلامة الزرقاء فى كبدى**
**صـــدع مقيم طوال الدهر والابد**
**لا يستطيع صـــناع القوم يشعبه**
**وكيف يشعب صدع الحب فى الكبد**
**الا بوصل التى من حبها انصـدعت**
**تلك الصدوع من الاســقام والكمد**

وقد صنعت لحنا فى البيت الثانى من هذه الابيات وغنيته محمد بن الاشعث فصاح وقد تملكه الوجد والطرب :

ــ كيف يشعب صدع الحب فى كبدى يا سلامة ؟! ‥ كيف يشعب صدع الحب ؟! ‥

وأنا مع ذلك غير سعيدة فى حياتى ، فما أنا الا جـارية فى دار عبد الملك ابن رامين تاجر الجوارى فى الكوفة ، ومعى جاريتان جميلتان تحسنان الغناء هما « ربيحة » و « سعدة » وعدد من الوصائف ‥

وأغنياء الكوفة وأهل الشرف والوجاهة يدخلون دار ابن رامين ويخرجون ‥ يسمعون جواريه يغنين أو يتحدثن ‥ وهو يبيع الوصائف الجميـــلات ولكنه يحتفظ بى وبزميلتى ربيحة وسعدة ، ليجمع المال من هؤلاء الوجهـاء الكرام بعد غنائنا بين أيديهم ‥

وأمس اجتمع عنـــدنا معن بن زائدة وروح بن حاتم وعبد الله بن المقفع وبعض ذوى الرياسة فى الكوفة من رجال الدولة الاموية ، فقال لى سـيدى ابن رامين :

ــ يازرقاء ‥ غنى .

ايه حال يا ابن رامين

حال المحبين المساكين

فغنيت هذا الصوت ، ورددته مرارا حتى استبد الطرب بالقوم ، فقـام معـن بن زائدة فصـب بين يـدى عشرة آلاف درهم ، ثم قام روح بن حاتم فصب مثلها .. ولم يكن فى يد ابن المقفع ساعتئذ مال ، فأخرج صك ضيعة له وقال لى : هذه ضيعة لى خذيها ، فليس عندى من الدراهم شيء يصـلح لك ! ..

فلما انقضى المجلس ، اجتمع لابن رامين عشرون ألف درهم وضيعة كبيرة ولم يكن لى فى هذا كله الا جهد الغناء ، وعناء استخراج المال من خزائن أصحابه ! ..

## ● اليوم الثانى :

يعاملنى ابن رامين الآن معاملة طيبـة ، فأنا أكبر موارد رزقه .. يجيء الناس الى داره لسماع صوتى والنظر الى وجهى .. ثم يصدرون عن داره وقد ملأوها أموالا ..

وهو يعطينى بعض المال الذى يكسبه من المعجبين بى ! ..

وقد جاءنا محمد بن الاشعث الذى اكسبنى شعره شـهرة فى العـراق والشام والحجاز ، وهو من ظرفاء الكوفة وفتيان قريش فيها ، وحبه للجوارى لا يقف عند حد ..

لم يكد ابن الاشعث يجلس حتى بصر باحـدى الوصائف الجميـلات فأعجبته ، فقال لى : هبى لى هذه الجارية يا زرقاء ! .. فوهبتها له ، فلما أخذها ومضى بها الى بيته ، نظرت أرى أثر ذلك فى ابن رامين وهو صاحب الجارية ومالكها ، فوجدته لا يتكلم ولا يعارض ما صنعت ، كأننى أنا المالكة لهذه الجارية أتصرف فى أمرها كيف أشاء ، وأهبها لمن أشـاء ، فيخسر ابن رامين ثمنها وما أنفقه عليها ..

لقد أدرك ابن رامين أخيرا ان ما يدخل خزانته من المال ، انما هو من عملى، فصار لا يبالى أن أهب لاحد أصدقائى جارية جميلة لا يقـل ثمنها عن ثلاثين ألف درهم ! .. وما وهبتها له الا نكاية فى ابن رامين ! ..

## ● اليوم الثالث :

غنيت الليلة ساعة أو ساعتين لبعض وجهاء الكـوفة ، ثم جاء الخـادم يستأذننى فى دخول يزيد بن عون الصيرفى الملقب بالماجن .. فأذنت له .. وقد صار الاذن لى دون مولاى ابن رامين ، فأنا صاحبة الامر فى هذا بعد أن كان هذا اليه وحده ! .. ان شئت اذنت بالدخول ، وان شئت منعت ! ..

دخل يزيد بن عون الصيرفى ، فأقعى بين يدى ، وهو أثير عندى لظـرفه وكرمه وحبه لى وتمييزه الجيد من الردىء فى الغناء تمييزا دقيقا لم أره عند

أحد سواه ممن يغشون بيت ابن رامين لسماعي ، مع كثرة العارفين بالغناء منهم ..

ادخل « الماجن » الصيرفي يده في ثوبه فأخرج لؤلؤتين ، وقال لي :

ـ انظري يا زرقاء .. جعلت فداك ! ..

نظرت الى اللؤلؤتين ، فحلف لي انه نقد فيهما بالامس أربعين الف درهم . قلت له :

ـ فما أصنع بذلك ياماجن ؟! ..

قال :

ـ أردت أن تعلمي ! ..

فغنيت صوتا تأنقت في أدائه تأنقا خلاف ما كنت أفعل قبل حضوره ، حتى أحس ذلك وفهمه كل من حضر ، ثم قلت له :

ـ يا ماجن .. هب لي اللؤلؤتين .. ويحك !

قال :

ـ ان شئت والله وهبتهما لك !

قلت :

ـ قد شئت !

قال :

ـ اليمين التي حلفت بها لازمة لي أن آخذتهما الا بشفتيك من شفتي يا زرقاء ! ..

تهامس الحاضرون ، يقول بعضهم لبعض :

ـ ان أصحاب هذا البيت انما يتكسبون مما ترون ، ولولا الماجن وأمثاله لما جمع ابن رامين ما جمع من الذهب والفضة .. واللؤلؤ ..

ولم يتثاقل الحاضرون في الانصراف ،فقد فهموا اني لا أريدهم شهودا لمنظر التقاطي اللؤلؤتين بشفتي من شفتي الصيرفي الماجن ! ..

ووثب ابن رامين يقول متكلفا سببا للانصراف :

ـ يا غلام .. ضع لي ماء للوضوء ! ..

ثم خرج ليخلي المكان .. وكانت على رأسي جارية تخدمني فأومأت اليها أن تخرج ، فانصرفت مستأذنة كأنها تريد حاجة ! ..

وخلا المجلس الا مني ومن يزيد الصيرفي الملقب بالماجن ! ..

فمشى على ركبتيه وكفيه ، واللؤلؤتان في شفتيه فقال لي : هاك ! ..

فلما ذهبت آخذهما بشفتي صد عني يمينا وشمالا ليستكثر من ملامستهما ، فلما وجدته يزوغ مني مرة بعد مرة أمسكته حتى انتزعت

بشفتي اللؤلؤتين من شفتيه ، وقد رشح جبيني عرقا حياء من ذلك ! ··

فلما أخذتهما أردت أن أعرفه انني غلبته ، وأنه المغبون في هذه الصفقة فقلت له :

ـ المغبون منا من خسر اللؤلؤتين ! ··

فقال لى :

ـ اما أنا فما أبالى ·· لا يزال طيب هذه الرائحة فى أنفى وفمى أبدا ما حييت ! ··

وقد فرح ابن رامين باللؤلؤتين ، وأخذهما ليضيفهما الى كنوزه ! ··

## ● اليوم الرابع :

سقطت الدولة الاموية ·· واضطربت أحوال الكوفة ، اذ صارت عاصمة الدولة الجديدة ، دولة بنى هاشم أو بني العباس ، وبدأ ابن رامين يبيع جواريه ، فباع ربيحة وسعدة لبعض الهاشميين الحكام الجدد ·· وباعني أنا للهاشمي جعفر بن سليمان بن علي ·· ومضى بى جعفر الى البصرة التى أصبح والده واليا عليها ··

لم يكن الوالى سليمان بن علي يعلم ان ابنه جعفرا اشترانى حتى وشى بنا بعض الوشاه ففاجأنا الرجل ليلة وأنا أغني والعود بين يدى ، وجعفر يصيح طربا ·· فقال الرجل لابنه :

ـ ويحك ·· أما علمت ان عبد الله بن علي قد تحرك بالثورة ، وقد يهجم علينا وينتزع منا البصرة ، ويقتلنا جميعا ، وأنت على هذا الحال ومعك جارية تغنيك قد اشتريتها كما بلغنى بثمانين ألف درهم ! ··

فوثبت الى الوالى فأكببت على رأسه فقبلته ودعوت له بالنصر على أعدائه وأظهرت له في كلامى من العقل والفهم ما أعجبه ، فانصرف ولم يعد الى مغاضبة ابنه فى شأنى ! ··

وبعد أن استقرت الاحوال ، وأخفق الثائرون على الدولة ، دعا جعفر أباه ليسمع غنائى ، فاقترح الرجل أن أغنيه :

اذا ما أم عبد الله

لم تحلل بواديه

ولم تشف سقيما هيج

الحزن دواعيه

فقلت للشيخ :

ـ فديتك · قد ترك الناس مثل هذا الغناء منذ زمان ·· ولكنى احفظه وأغنيه ! ··

ثم غنيت له هذا اللحن القديم ، فرأيته يهز رأسه طربا ٠٠ فعجبت لقلة علمه بالغناء المتقن ٠

● **اليوم الخامس :**

لم أر مثل هذا اليوم منذ صرت جارية لجعفر بن سليمان ، فقد انفجرت غيرته فجأة ، ومضى يستجوبني ، ويمطرني بالسؤالات العجيبة عن أيامي الماضية في بيت ابن رامين ، ولم تقنعه جواباتي ، حتى قال لي :

ـ هل ظفر منك أحد ممن كان يهواك بخلوة أو قبلة في بيت ابن رامين ؟!

فعلمت من سؤاله هذا ان شيئا قد بلغه ، وعزمت أن أصدقه ، ايثارا للسلامة ، فقلت له :

ـ لا والله ٠٠ الا يزيد بن عون الصيرفي الملقب بالماجن ، فانه قبلني قبلة !

ورويت له باختصار شديد قصة هذه القبلة واللؤلؤتين ! ٠٠

فرأيت وجهه قد احتقن ، ولم يتكلم ، وخرج ولم يعد الا بعد وقت طويل ! ٠٠

ويا عجبا ! ٠٠ كيف يطلب هذا الرجل من جارية كانت في كل وقت معروضة للبيع ، أن تبقى مصونة لا تمس طوال ماضيها قبل شرائه اياها !

● **اليوم السادس :**

ليتني لم أعش حتى أرى هذا اليوم ! ٠٠

جاء جعفر بن سليمان بيزيد الصيرفي الماجن ، بحيث أرى وأسمع ما يجري له ٠٠

وسأله عن أمور لفقها له ، فدافع الماجن عن نفسه ونفى كل تهمة ٠٠

ولم يدر الماجن ان تهمته الحقيقية التي يستجوبه عنها هي قبلة اللؤلؤتين التي مضت عليها سنوات ! ٠٠

لم يستطع جعفر أن يمسك الماجن بجرم ، ولكنه أصر على اتهامه بجرائم ملفقة ! ٠٠

وأمر جعفر الجند فخلعوا ثياب الماجن ، ووثبوا يضربونه بالسياط ! ٠٠

ووضعت أصابعي في أذني حتى لا أسمع صراخ الماجن ، وقد زاد عدد السياط التي ضربوه بها على خمسين سوطا ٠٠

ثم خفت صوته حين جاوز عدد السياط مائتين ٠٠ ثم كفوا عن ضربه ٠٠ وحملوه ميتا ٠٠ والامير جعفر يغمره الارتياح ، فقد قتل غريمه المسكين !

# مجلس الطرَب والفكاهة

**● اليوم الاول :**

زميلتى « مكنونة » جارية مغنية حاذقة ، جميلة الوجه ، لكنهـــا نحيفة مكشوطة من وراء ! ..

اذا رايتها من خلف وهى تمشى رأيت فى قوامها استواء تاما كاستواء خشبة صلبة ، من ظهرها الى عجزها الى فخذيها ، حتى قال لها بعضهم مازحا : يا مكنونة .. ظهرك جميل الاستواء كظهر الطست ! .. .

ولكن مكنونة لا تبالى ما يقولون عن ظهرها ، فهى بارزة الصدر ، حسنة البطن ، مكتملة الحسن فى كل شىء تواجه به الناظرين .. وتمشى مشية لطيفة ، تشد قوامها فيكون صدرها متقدما عليها ، كأنه يقـول عنهـا للناس : أنظروا ! أو يقول لهم : افسحوا لها الطريق ! ..

وأنا والله أجمل منها وجها ، وأحسن غناء ، ولكن حظها عظيم ، وحظى قليل ، فان « المهدى » ولى عهد الخليفة ابى جعفر المنصور ، اشتراها بمائة ألف درهم ، ولا علم لابيه بذلك ، ولو علم ، لانتزعها منه وباعها واسترد دراهمه ، فان أباه هذا بخيل متشدد ! ..

والناس يسموننى « بصبص » .. ولا أعلم اسما لى غيره ، وأعيش منذ طفـولتى فى دار مولاى يحيى بن نفيس فى المدينـة ، ويجيء الاشراف والظرفاء فيسمعون غنائى ، وغناء زميلاتى جـوارى ابن نفيس ، ولـكنى أبرعهن جميعا ، وأشدهن تقدما فى الغناء ..

وممن يغشى دارنا ليسمعنى ، محمد بن يحيى ، حفيد الامام الحسـين ، وعبد الله بن مصـعب من آل الزبير بن العـوام ، وكثير من الهاشـميين والقرشيين ! ..

وأبخل زوارنا وأبعثهم للضحك اسـمه « مزبد » .. يبلغ فى بخله حد الجنون ، الا انه لطيف خفيف ! ..

قلت لجلسائى أمس : أنا آخذ لكم من مزبد درهما كاملا لا ينقص وزنه شعرة واحدة ! ..

فصاحوا :

ـ والله ما يقدر الشيطان نفسه أن يأخذ درهما من مزبد ، ولا مقـدار حبة شعير من الدرهم ! ..

وقال لي سيدي ابن نفيس :

ـ أنت حرة لئن أخذت منه درهما ، ان لم اشتر لك قلادة ذهب وجوهر بمائة ألف دينار ، وثياب وشى بما شئت من المال العظيم ، ثم اجعل لك مجلسا بالعقيق خارج المدينة عند العشب والماء ، فانحر فيه لك ناقة أو بقرة ، وأجمع لك ظرفاء المدينة ! ..

فقلت له :

ـ جيء به وارفع عني الغيرة ، مهما داعبته ! ..

قال :

ـ أنت حرة فاصنعي ما شئت ، فقد رفعت عنك الغيرة ! ..

فذهب عبد الله بن مصعب الى مزبد فقال له :

ـ أبا اسحاق .. أما تحب أن ترى بصبص جارية ابن نفيس ! ..

فتوسل اليه أن يصحبه الى مجلسي ! ..

فلما جاء وغنيت صوتا شرب ابن نفيس والقوم معه أقداحا ، وتصنعوا السكر وتناوموا ، فأقبلت على مزبد فقلت :

ـ يا أبا أسحق ، كأنك تشتهي أن أغنيك :

**لقد حثوا الجمال ليهربوا**

**منـــا فلـم يئلــوا**

فألقى الرجل نظرة على القوم النائمين فاطمأن وهمس :

ـ هل تعلمين الغيب ؟! .. فهذا والله ما أشتهي ان أسمعه الســاعة منك ! ..

فغنيته وهو ينعر ويصفق طربا ، وأنا أسأله الا يفعل ، حتى لا يصحو النائمون ! ..

ثم نظرت في عينيه وقلت له :

ـ أبا اسحاق ! .. أليس في نفســك أن أقوم فأجلس لصــيقة بك وأغنيك !

**قالت وابثثتها وجدى فبحت به**

**قد كنت قدما تحب الستر فاستتر**

**ألست تبصر من حولى فقلت لها**

**غطى هــواك وما ألقى على بصرى**

فصاح طربا ، وقال :

ـ كأنك تعلمين مافي الارحام ، وما تكســب الانفس غدا ، وبأى أرض تموت ! .. وكأنك .. وكأنك ..

قلت له :

ـ استغفر ربك يا أبا اسحاق ، ولا يخرجنك الطرب الى مثل هذا القول
ثم غنيته هزجا :

**انا ابصرت بالليل**
**غلاما حســـن الدل**
**كغصن البان قد اصبح**
**مســـــقيا من الطـــل**

فكاد يخرج من ثيابه طربا ، وصاح :
ـ كانك نبية مرسلة فى هذه الصناعة ! ..

فقلت له وقد قربت منه جدا : « قد نهيتك عن مثل هذا الكلام .. فالان برح الخفاء ، وظهر ما احتجب من حبك لى ، وأنا أعلم انك تشتهى أن تقبلنى قبلة شق التين » ! ..

فدنا منى ، فنحيته متلطفة ، وقلت له وقد ملكته كخاتم فى أصبعى :

ـ أبا اسحاق ! .. ارايت أسقط من هؤلاء النـــائمين .. يدعـونك ويخرجوننى اليك لاغنى ولا يشترون ريحانا بدرهم ؟!
يا أبا اسحاق : هلم درهما نشترى به ريحانا ! ..

فتغير وجهه حتى كلح وصار كوجه الكلب حين يتهيا للعض أو العراك ، ثم وثب صارخا مستغيثا :

ـ واحرباه ! .. أيتها الخاطئة ! .. والله لو غنيتنى مائة صـــوت ، ومنيتنى مائة من « شق التين » .. ما كان ذلك كفاء درهم ولا دانق يخرج من كيسى ! .. الان انقطع والله عنـك ذلك الوحى الـذى كنت ظننت انه يوحى اليك ! ..

فضج القوم بالضحك ، وخرجوا من تناومهم ، وركبـوا الرجـل بالدعابة والسخرية ، وقالوا لى :

ـ أما حذرناك من درهمه ودانقه . وقلنـــا لك انه لو علم ان الجنـــة لا يدخلها الا بدرهم ، لزحزح نفسه عنها الى النار ! ..

### ● اليوم الثانى :

كثر المعجبون بى ، وكلهم يزعم انه انما يحب غنائى ، ولكن أشـــعارهم تنم عليهم ، وتشى بعشقهم لى لا لغنائى ! ..
هذا شاعر يقول :

**بصبص انت الشـــمس مزدانة**
**فان تبـدلت فانت الهـــلال**
**ســـبحانك اللهم ما هكـذا**
**فيما مضى كان يكون الجمـــال**

اذا دعت بالعود في مشـــــهد
وعاونت يمنى يديها الشـــمال
غنت غناء يســـــتفز الفتى
حذقا وزان الحذق منها الدلال

وبالامس حضر مجلسى أبو السائب المخزومى فغنيت :

قلبى حبيس عليك موقوف
والعين عبرى والدمع مذروف
والنفس في حسرة بغصتها
قد شف ارجاءها التساويف
ان كنت بالحسن قد وصفت لنا
فانني بالهوى لموصـــوف
يا حسرتا حسرة أموت بها
ان لم يكن لى لديك معروف

فطرب السائب وبكى ولطم خديه وقال :

ـ لاعرف الله قدرى ان لم أعرف لك معروفك ! ‥ بأبى والله أنت ! ‥ انى لارجو أن تكونى عند الله من الشهداء لما تولينا من السرور !

وجعل يصيح : واغوثاه ! ‥ واغوثاه ! ‥ يالله لما يلقى العاشقون ! ‥

فلما هدأ السائب المخزومى ، سألت فتى فى المجلس أعرف انه يحبنى ، أن يأتينى بحاجة ، فقام ليأتى بها فنسى أن يلبس نعله ومشى حافيا ، فقلت له : نسيت نعلك ! ‥ فتنبه ولبسها وقال لى :

ـ أنا والله كما قال الشاعر :

وحبك ينسينى عن الشيء في يدى
ويشـــــغلنى عن كل شيء احاوله

فظننت به حمقا ، لا عشقا ، لانه يذكرنى والنعل في بيت واحد ! ‥

● اليوم الثالث :

قدم أمير المؤمنين المنصـــــور المدينة منصرفا من الحج ، وقيل ان بعض حاشيته يزعم أن زميلتى « مكنونة » التى اشتراها ولى العهد « المهدى » قد حظيت عنده ، حتى نافست زوجته « الخيزران » ‥ وان مكنونة قد ولدت بنتا سمتها « علية » وانها تعلمها الغناء منذ طفولتها ‥ فليت شعرى ، أتظن مكنونة ان ابنتها الصغيرة هذه ، ستكون مغنية تباع فى ســوق الرقيـق مثلها ، فهى تنشئها على ما نشأت عليه ؟! ‥

استقبل أهل المدينة مقدم الخليفة بفتور ، ولما أخذ يتأهب للرواح ، قال

عبد الله بن مصعب ، حفيد عبد الله بن الزبير :

**ارائح انت ابا جعفـــــر**
**من قبل ان تسمع من بصـــبصا**
**هيهات أن تســمع منها اذا**
**جاوزت العيس بك الاعوصـــا**
**احلف بالله يمينــــا ومن**
**يحلف بالله فقد أخلصـــا**
**لو انهـا تدعـــو الى بيعــة**
**بايعتها ثم شققت العصـــا**

فبلغت الابيات الخليفة ، فغضب ودعا عبد الله بن مصعب فقال له :

ـ أما انكم يا آل الزبير قديما ما قادتكم النساء ، وشققتم معهن العصا ، حتى صرت أنت آخر الحمقى تبايع المغنيات ! ..

يشير الخليفة فى كلمته هـــذه الى خروج جد هـــذا الفتى « الزبير بن العوام » رضى الله عنه ، فى وقعة الجمل مع السيدة عائشة رضى الله عنها، مع ان الزبير انصرف من الوقعة تائبا ولم يحارب وقتلوه غدرا ! ..

وجاءنى عبد الله بن مصعب فسألته عن حاله بعد غضـــب الخليفة عليه فقال : والله لا أبالى .. ولئن خرجت عليه يابصبص لابايعنك ، فما هو عندى بأفضل منك ! ..

## ● اليوم الرابع :

رحل المنصور ، فبلغنى من بعض من شيعوا موكبه خـارج المدينة ، انه قال : « يعجبنى الحداء ، فانه أحسن فى السمع من غناء بصبص وأمثالهـا من القيان المتبذلات ، وأحرى أن يختاره أهل العقل ! ..

ثم أمر فحدا به الحادى :

**انى وان كان ابن عمى كاشحا**
**لمـــزاحم من دونـه وورائـه**
**وممــــده نصرى وان كــان امــرأ**
**متزحزحا فى ارضـــه وســمائه**
**واذا تريش فى غنــــاه وفـــرته**
**واذا تصعلك كنت من قرنائه**
**واذا غدا يوما ليركب مركبـــا**
**صـــعبا قعدت له على سيسائه**

فقال المنصور :

ـ هذا والله أحث على المروءة ، وأشبه بأهل الادب من غناء بصبص التى

يزعم ذلك الزبيرى الاحمق انه يبايعها بالخلافة ! ..

ثم أراد أن يتكرم على الحادى فأمر باعطائه درهما واحدا ! ..

فقال له الحادى :

ـ يا أمير المؤمنين .. حدوت بهشام بن عبد الملك منذ سنين فأمر لى بعشرين الف درهم ، وتأمر لى أنت بدرهم واحد ؟! .

فقال المنصور :

ـ ذلك رجل ظالم كان يغتصب الخلافة ويأخذ مال الله من غير حله ، وينفقه في غير حقه ! .. وانى آمرك بأن ترد المال الذى أخذته منه ! ..

فبكى الحادى وقال :

ـ يا أمير المؤمنين ، قد مضت لهذا السنون ، وقضيت به الديون ، وتمزقته النفقات ، وما بقى عندى منه شىء ! .

فلم يزل المقربون الى الخليفة يسألونه ان يعفى الحادى من رد المال الذى أخذه من الخليفة الاموى هشام ، حتى كف عنه ، على أن يحدو به ولا يأخذ شيئا ، واسترد منه الدرهم اليتيم الذى كان أعطاه ! ..

فهذا الخليفة والله أشنع بخلا بدراهمه من « مزيد » .. وأقبح منه فى معاملة الناس ! .. فهل يلام ذلك الفتى الزبيرى الذى حلف يمينا لو اننى شققت العصا على هذا الخليفة لخرج معى عليه وبايعنى بالخلافة ؟! ..

# تلميذة الموصلى وجارية الرشيد

## ● اليوم الاول :

نشأت فى بيت واسع يموج بالجوارى والغلمان ، صغارا وكبارا ٠٠ كل يوم أرى جارية أو غلاما يخرج من هذا البيت ولا يعود ، ثم يجىء غلام أو تجىء جارية لا نعرفها ولم تكن معنا من قبل فى البيت ! ٠٠

صاحب البيت اسمه « قرين » صناعته « نخاس » يبيع الجوارى والغلمان ويشتريهم ٠٠ وهو من هذه التجارة فى ربح ينهمر عليه كالمطر بلا انقطاع !

جوارى « قرين » النخاس ٠٠ قسمان : أحدهما قسم الجوارى الفاتنات والمغنيات ، والآخر قسم جوارى الخدمة ، ومن لا موهبة لهن الا موهبة الفتاة العادية ٠٠ وشتان بين الثمن الذى تباع به الجارية من القسم الاول ، والثمن الذى تباع به جارية القسم الثانى ! ٠٠

وكذلك الغلمان ! ٠٠ .

فمن كان منهم مغنيا أو ذا موهبة ترفع من ثمنه عند المشترين ، اهتم به « قرين » النخاس وجاء اليه بالمدرسين ومن يثقفه ويعلمه أصول الحياة فى بيوت السادة ٠٠ ومن لم يكن كذلك باعه كيفما اتفق ، ورضى فيه بما تيسر من الربح ! ٠٠

كنت صغيرة السن حين اشترانى « قرين » من سوق الرقيق وضمنى الى جوارى بيته ٠٠ وبدت له منى مخايل الذكاء ، فضلا عن جمالى ، وقد عرف النخاس الذكى اللماح الذى حنكته التجارب أن جمالى هذا سوف يصبح باهرا ساحرا بعد سنوات قلائل ٠٠ فقال لى يوما وهو يلاطفنى :

ــ يا ذات الخال ٠٠ أراك أجمل الناس وجها ، ولك خال على خدك لم ير الناس أحسن منه فى موضعه ، وانك لجديرة بأن تباعى للسراة والاعيان والكبراء ، ولكنى أحب ان اسمعك تغنين لحنا مما تحفظين ، فان رأيت أن لك حنجرة عذبة ، جئت لك بمن يطارحك الالحان ويعلمك الغناء ، فانك عندئذ تصبحين من أغلى الجوارى ثمنا ، فأبيعك لعظماء بغداد ، وأربح أنا ، وتعيشين أنت فى قصورهم معززة مكرمة ! ٠٠

فلما غنيته ما أحفظ من الالحان ، نعر وصفق ورقص ، وقال لى والبهجة تعصر ملامح وجهه فرحا وطمعا :

ـ ويحك يا ذات الخال ·· والله انك لجميلة الصوت جمالا مفـــرطا ، كأنما اتفق صوتك ووجهك على أن يتقاسما مافى الدنيا من متاع الاسماع والابصار ، ومثلك ـ أكرمك الله ـ لا يصلح لتثقيفه فى الغنـــاء الا كبير المغنين فى بغداد ورأس صناعتهم ، ابراهيم الموصـــلى ! ·· وان غلا ثمن الدروس عنده ! ··

## ● اليوم الثانى :

جاءنى سيدى « قرين » النخاس بكبير المطـــربين والملحنـــين ابراهيم الموصلى ، وأفرد لى حجرة خاصة ، فسيحة مريحة ، واشترى لى عودا ·· وأسرف فى برى واكرامى ، كأننى أعز أولاده وبناته :

تأملنى الموصلى وقال لى والاعجاب بجمالى يطفر من عينيه :

ـ ما اسمك يا صبيحة الوجه ؟! ··

ـ ذات الخال ! ··

ـ أهذا اسمك أم لقبك ؟! ··

ـ اسمى « خنث » ·· ولكنى لا أسمعهم هنا ينادوننى الا بذات الخال ، لما ترى من موضع الخال على خدى هذا ··

وأشرت الى خدى ، والخال الاسود الجميل الذى يتخذ فيه موضعا بديعا يلفت العيون والقلوب ··

اهتز الموصلى طربا لجوابى هذا ، وافتتن بظرفى وحلاوة اشـــارتى ·· وقال لى :

ـ والله لاعلمنك حتى تحذقى بالصناعة فلا يفوتك منها شىء ، ولا تفوقك فيها مغنية فى بغداد كلها ··

ثم بدأ الموصـــــل درسه الاول ·· وتعلمت فى هذا الدرس الاول كيف أمسك بالعود وأضرب عليه ضرب المبتدئين ! ··

فلما أتم الموصلى الدرس ، تنفس كأنه يزفر من الوجد ، وســـلم وحيا وانصرف ، وهو لا يريد أن يصرف عنى عينيه ! ··

ثم توالت الدروس فى أيام كثيرة حتى برعت فى الغناء وضرب العــود ، وأخذت عن الموصلى الحانا كثيرة من غناء الفحول القدماء ومن غنائه هو ··

وتوثقت علاقتنا حتى صارت حبا ·· وما كنت أظن أن مثله فى شهرته وثروته وجاهه يتعلق بمثلى ، ولا ظننت انى أتعلق بمثله ! ··

## ● اليوم الثالث :

جاء الموصلى يطارحنى الالحان ، فقال لى :

ـ أتعلمين من يريد شراءك الآن يا خنث ؟!

ـ لا أعلم ! ..

ـ هارون الرشيد ! ..

هزني الخبر ، سألته بلهفة وقد تعاظمني الخبر حتى ظننت أن الموصلي يمزح :

ـ ومن أدراه بي وبمكاني يا سيدي ؟! ..

ـ أنا ! ..

صمت ابراهيم الموصلي ، ونظرت اليه باهتة ، فقال لي متلطفا باسما :

ـ لا تعجبي ، فما يصلح لك أن تعيشي الا في قصره ، وما يعرف قدر غنائك وصنعتك أحد كالرشيد ..

وجاء من القصر قهرمان اشتراني من قرين النخاس ، فاشتط في الثمن حتى باعني بسبعين ألف درهم ، وقد كان يقول لي من قبل انه اشتراني بخمسين درهما وأنا طفلة صغيرة ! ..

ووجدت في القصر جاريتين اصطفيتهما من دون سائر الجواري هما : ضياء .. وسحر .. « بكسر السين » ..

كانتا من أحب الجواري الى الرشيد ، فصرت معهما ، وحظيت مثلهما .. ثم تفوقت عليهما بتقدمي في صناعة الغناء ! ..

ويزعم بعض الناس ان الرشيد قال شعرا فينا نحن الجواري الثلاث ، ويدعون أن هذا الشعر بيتان هما :

**ان سحرا وضياء وخنث**
**هن سحر وضياء وخنث**
**اخذت سحر ولا ذنب لها**
**ثلثي قلبي ، وترباها الثلث**

لم يقل الرشيد هذا الشعر ، ولكن لفقه عليه بعض الوضاعين الذين كثروا في بغداد وكثر وضعهم للشعر ونحله للشعراء ولغير الشعراء .. وأشد من هذا امعانا في التلفيق قولهم ان الرشيد قال فينا هذه الابيات:

**ملك الثلاث الآنسات عناني**
**وحللن من قلبي بكل مكان**
**مالي تطاوعني البرية كلها**
**واطيعهن وهن في عصياني**
**ما ذاك الا ان سلطان الهوى**
**وبه عززن أعز من سلطاني**

وانما قال هذا الشعر العباس بن الاحنف ، كأنه يتفكه ، فلم يجيء الا بما يسمج عند سامعه ممن يعرف الرشيد وحفاظه وهيبته ! ..

● **اليوم الرابع :**

سهر الرشيد ، فدعانى فوافيته فى مجلسه فلم أجد معه الا الموصـــلى ، فقال لى الرشيد :

ـ يا خنث غنى صوت « الروم » ••

فغنيت هذا اللحن وكان يسميه « صوت الروم » لانه يصف الجـــوارى الروميات :

**جئن من الـــروم وقاليقـــلا**
**يرفلن فى المـرط ولـين الملا**
**مقرطقات بصـــــنوف الحلى**
**يا حبذا البيض وتلـك الحلى**

فاستحسن غنائى ، ثم أمر الموصلى ، فغنى :

**جزى الله خيرا من كلفت بحبه**
**وليس بـه الا المموه مـن حبى**
**وقالوا لها : هذا محبك معرضا**
**فقالت : أرى اعراضه أيسر الخطب**
**فما هو الا نظـــرة بتبســـم**
**فتنشب رجلاه ويســـقط للجنب**

فرغ الموصلى من غنائه ، فصرفه الرشيد ولم يأمر له بجائزة •• وصـــمت برهة ثم قال لى :

ـ يا خنث •• أسألك عن شىء ، فاصــدقينى ! •• هل كان بينك وبين ابراهيم الموصلى شىء حين كان يطارحك الالحان فى دار النخاس « قرين » ؟!

دهمنى سؤاله وحيرنى ، فتلكأت فى الجواب ، ولكنى لم أســـتطع أن أكذب لكيلا يسأل ويتحرى ويعرف الحقيقة ويعاقبنى •• قلت :

ـ نعم ! •• مرة واحدة •• ولم يكن شيئا ذا بال ! ••

وجم الرشيد ، وقال :

ـ فلهذا نظم الموصلى فيك وغنى هــذه الاشعار الكثيرة التى يرويها الرواة ويغنيها المغنون ! ••

ورأيت الكراهة فى وجهه ، وأرسل من فوره الى « حموية » الوصيف فى القصر ، فقال له :

ـ يا حمويه •• قد وهبت لك هذه الجارية فخذها ••

● **اليوم الخامس :**

جاءنى حمويه اليوم يقول لى :

ـ سأحدثك بما يسرك ويشرح صدرك ! ..

ـ خيرا .. ان شاء الله ..

ـ طلبني أمير المؤمنين منذ ساعة فقال لي : ويلك ياحموية ، أوهبنا لك الجارية لتسمع غناءها وحدك ؟! .. فقلت له : يا أمير المؤمنين : مر فيها بأمرك ! .. قال : نحن عندك غدا ! ..

قلت لحمويه :

ـ قد كنت في قصره لا أغنى له الا وأنا في الوشي والديباج والجوهر والذهب .. فأي شيء أرتديه أو أتحلى به ، وأنا عندك ؟! ..

قال :

ـ لا تبتئسي ، فوالله لن تبرزى اليه الا في أبهى الحلل ! ..

ثم مضى حمويه فاستأجر من بعض الجوهريين في الكرخ ملابس فاخرة مما اعتاد أصحاب الجوارى استئجاره لهن في الافراح والليالى والاعراس .. ثم مضى الى بعض من يعرفهم من الجوهريين البغداديين ممن يهابونه لمنزلته في القصر ، فاستأجر لى منهم عقودا من اللؤلؤ والجوهر ثمنها اثنا عشر ألف دينار ! ..

فلما جاء الرشيد وأخرجني اليه ، تعجب الرشيد لحسن منظرى ، وقال لحمويه :

ـ ويلك يا حمويه ! .. من أين لك هذا وما وليتك عملا تكسب فيه ما تشترى به هذا الجوهر الثمين وهذه الثياب التي أراها على جاريتك ؟! ..

فأخبره حمويه بما فعل من استئجار الجواهر والثياب حتى تبدو في زى لائق في حضور أمير المؤمنين ..

فجلس الرشيد ، فغنيته ما اقترح من الالحان حتى اكتفى ، وأمر لى بجائزة عظيمة ، وقضى لى حوائج كثيرة ، ثم بعث الى التجار أصحاب الجوهر فأحضرهم واشتراه منهم ، ووهبه لى ! ..

فلما هم بالانصراف قال لى في عطف بالغ :

ـ أبقيت لك حاجة ؟!

قلت في امتنان :

ـ لم تبق لى حاجة الا قضيتها لى يا أمير المؤمنين ، ولكنى أسألك أن تولى حمويه عملا في بلاد العجم بضع سنين !

فولاه الرشيد الحرب والخراج في بعض المواقع هناك ، وأن حمويه لمن احسن وأبرع أرباب السيوف في عسكر الرشيد ..

## ● اليوم السادس :

بينما نحن في أسعد الاوقات بقصرنا في هذه الجهة من بلاد فارس ،


لو انها تدعو الى البيعة

سمعت وسمع حمويه صوت مغن يأتى من دار قريبة منا ، يغنى هذه الابيات من شعر ابراهيم الموصلى وصنعته :

**تقـــول ذات الخـــال**
**لى : يا خـــلى البـــال**
**فقلت : حاشـــاك من ان**
**يكـــــون حـــالك حـــالى**
**اعرضـــــت عنى لمـــا**
**اوقعتنى فى الحبـــال**
**ان الخـــلى هو الفـــا**
**فل الذى لا يبـــالى ! ٠٠**

فلما فرغ المغنى من اللحن ، تفكر حمويه قليلا ثم قال لى وقـد اعتكـــر مزاجه وتربد وجهه :

ـ لولا أن يقول الناس : قتل حمويه جاريته لريبة ، لقتلتك الساعة ، لما ورد على قلبى من هذا الشعر وهذا الغناء ! ٠٠ فمن صاحبهما ؟! ٠٠

قلت :

ـ هذه من مداعبات ابراهيم الموصلى حين كان يطارحنى الالحـان ، وأنا أستحق بهذا الشعر التكرمة والاعزاز منك ! ٠٠ ألا تراه يعترف بأننى قد أعرضت عنه وأننى غافلة عنه غير مبالية به ؟! ٠٠ فما ذنبى ؟! ٠٠

تهلل وجه حمويه ، وقال :

ـ نعم ٠٠ صدقت ! ٠٠ ليس لك ذنب ! ٠

# السجن طريق الشهرة

## ● اليوم الاول :

ما فكرت يوما أن أحترف الغناء ، ولا تصورت انى امسك بالعود واضرب على أوتاره واغنى للناس وأتلقى استحسانهم ثم أتلقى أجر الغناء قليلا كان أو كثيرا ..

غنيت تلذذا بالغناء ، أطرب نفسى واصحابى ولا اكسب شيئا .. وهربت في صباى من جميع الكتاتيب التى ألحقنى بها أهلى ، أسعى وراء المغنين ، أسمع منهم ، وأتعلم وأتطرب ولا أتكسب .. ونسيت في غمرة طلبى للغناء أن أتعلم القراءة والكتابة ، فعشت حتى مطلع شبابى اميا أجهل كيف أكتب اسمى ..

واستبد بى حب هذا الطريق ، حتى صار يطرقنى في المنام طيف رائع الجمال ، لا أدرى أهو جنى أم انسى .. فيغنينى ألحانا لم أسمع مثلها حلاوة وبراعة فى الصنعة والاداء والنبرات وامتداد الانفاس ، مع ضرب بالاوتار كأنه يخرج من أصابع ساحر مبين ! ..

وكنت أسأله :

ـ لماذا أصحو من نومى فأجدنى غير قادر على أداء ما تسمعنيه من هذه الالحان ؟! ..

فيجيب دائما :

ـ ستجدها متفرقة فى ألحانك طوال حياتك .

فأعود أسأل :

ـ وهل ستكون لى ألحان ؟!

فيضحك وينصرف ! ..

وقلت له يوما وقد تجارينا فى الكلام عن الغناء وكان قد غنانى لحنا كاد أن يذهب بعقلى :

ـ هب لى هذا اللحن حتى أحفظه واغنيه ، ثم لا تهب لى بعده شيئا ! .

فشملتنى منه نظرة حنان كأنى طفل وقال لى :

ـ يا بنى لو حفظته فغنيته الناس لاصيبوا بالجنون .. فما حظك من ذلك ؟! ..

ثم انصرف الطيف في لمحة عين ! ..

## ● اليوم الثاني :

كنت جالسا وقد أغلقت باب بيتي ، ومجلسي ليس فيه غيري ، وعودي في يدي أترنم وأجس أوتاره ، وأنشط نفسي للغناء ، فلا تنشط !

واذا بشيخ ذي هيئة وجمال ، في قدميه خفان قصيران وعلى بدنه قميصان ناعمان ، وعلى رأسه قلنسوة قد لزقت برأسه كأنها منه ، وبيده عكازة من الفضة ، ورائحة المسك تفوح منه حتى ملأت البيت ، فأذهلتني المفاجأة ، وهممت أن أسأله كيف دخل والباب موصد ، فسبقني فسلم فأحسن السلام ، فرددت عليه ، ودعوته الى الجلوس ..

وحدثني فوجدت عنده أدبا وظرفا .. فسألته : هل لك في الطعام ؟! .. فقال : لا حاجة لي فيه ، فقلت : هل لك في الشراب ؟! .. فقال : ذلك اليك ..

شربت في قدح كبير ، وأعطيت ضيفي مثله ، فلما شربه ، قال لي :

هل لك أن تغني شيئا من صنعتك أو من صنعة الاوائل ، فأخذت العود فجسسته ثم ضربت فغنيت ما لا يحسن أحد من المطربين أن يغني مثله ، فلم يزد الشيخ على أن قال : أحسنت ! ..

غاظني استحسانه الفاتر لغنائي ، فهممت به ، ولكنه بادر يقول مبتسما : هل لك أن تزيدنا ؟! .. فنظرت اليه مستهينا بعقله ، وقلت في نفسي : ظننت الشيخ ممن يعقلون هذه الصناعة ، وهو لا يكاد يعرف شيئا فيها ، واندفعت أغني لحنا ، مجتهدا فيه لا مبالاة بهذا الشيخ المتطفل على بيتي ، وانما تفننا في الصنعة وتطريبا لنفسي ! ..

لم أفرغ من اللحن حتى قال لي : أتأذن لي في الغناء ، فهذه نوبتي ؟! .. فاستصغرت هذا الشيخ جدا ، واستضعفت عقله اذ يغنيني بعد الذي سمعه مني ، وخطر لي ما قد يجيء في غنائه من سخف فضحكت حتى استغربت من الضحك ، فقال : ما يضحكك ؟! .. قلت : شيء خطر ببالي ، فامض لما عزمت عليه من الغناء .. أمتعنا الله بك ! ..

أمسك الشيخ بالعود فجسه وربط أوتاره ، وضرب .. فوالله لكأنه ينطق بلسان عربي مبين ، ثم انطلق يغني ، فوالله لقد ظننت الحيطان والابواب وكل ما في البيت يجيبه ويغني معه من حسن غنائه ، حتى خلت والله انى أسمع أعضائي وثيابي تجاوبه ، وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبي .. ثم غنى صوتا ثانيا فكاد عقلي أن يذهب طربا وارتياحا لما سمعت .

وفرغ الشيخ من غنائه ، فنظر لي مليا ثم قال : هذا غناء وهبته لك فغنه للناس ، فقلت متلهفا : أعده يا سيدي حتى أحفظه ! .. فقال : لست تحتاج الى اعادته مني فانك حفظته وأحكمت حفظه ! .

فالتفت ورائي أطلب شيئا ، وما كانت لفتتى هذه الا كلمحة البرق ، وأقبلت بوجهى على الشيخ فاذا به قد اختفى من المجلس فى هذه اللمحة ، فارتعت وقمت أعدو وأصيح نحو الباب فوجدته مغلقا كما تركته قبل ظهور الشيخ فى البيت ، ففتحت الباب وعدوت الى البواب أسأله ، فقال لى : أى شيخ تسأل عنه ؟! .. ما دخل اليك اليوم أحد ! ..

**● اليوم الثالث :**

قعدت أتأمل أمرى ، فاذا صوت يقول ولا أرى صاحبه : لا بأس عليك يا صديقى ! .. أنا الطيف الذى تسمع غناءه فى نومك ! .. وأنت الان أحسن المغنين ، فلا تحجم عن احتراف الغناء ، فان هذا العصر هو عصرك ، وأنت رأس هذا الفن منذ اليوم ..

واختبرت نفسى فوجدتنى أحفظ ما غنانيه هذا الشيخ ، وأنا الى ذلك احسن الناس صنعة فى الغناء واغزرهم علما به .. وصرت أغنى لبعض كبراء الهاشميين من رجال الدولة ، حتى سمع عنى أمير المؤمنين المهدى ، فطلبنى ولازمته أغنى فى مجلسه ، وما سمع قبلى أحدا من المغنين الا اثنين لا أكثر .. فقد مضى عهد أبيه الخليفة المنصور من قبله ولم يكن يسمع الغناء، وكذلك كان الخليفة عبد الله السفاح من قبله .. فانقضت خمس وعشرون سنة لا يدخل المغنون قصر الخليفة العباسى ، اذ كانت خلافتهم فى أول أمرها ، وهم انما ثاروا على بنى أمية لما كان من تعاطيهم الشراب ، وادمانهم سماع الغناء والملاهى وتضييعهم أموال المسلمين فى اللهو والسماع .

فلما جاء ثالث الخلفاء العباسيين المهدى ، سمع الغناء وأجاز عليه .. ولكنه كان لا يشرب النبيذ ولا غيره من الاشربة ، فلما صرت فى بطانته أرادنى على ترك الشرب فأبيت عليه ، وكنت أتغيب عنه الايام ، فان جئته جئته منتشيا ، فضربنى وحبسنى مدة وتعلمت القراءة والكتابة فى الحبس ، وكنت قبل أن أتعلم فصيحا ألهج بالشعر كبنى تميم لانى تربيت فى بعض بيوتهم ، فاكتملت فصاحتى بالقراءة والكتابة ..

هكذا بدأت قصتى فى الغناء .

وصرت فى بطانة الخليفة المهدى فلم أجد فيها سعادة ولا راحة ، وكنت أظن أننى وقد وصلت الى الخليفة وصرت ثالث من يغنى للخلفاء العباسيين وأولهم اتقانا للصنعة والاداء ، قد بلغت أعظم ما أرجو لنفسى فى الحياة ! ..

ضيق المهدى على الخناق ومنعنى أن أغنى للناس ، حتى اجترأت يوما فقلت :

ـ يا أمير المؤمنين ، انما تعلمت هذه الصناعة للذتى وعشرتى لاخوانى ، ولو أمكننى تركها لتركتها وجميع ما أنا فيه لله عز وجل ! ..

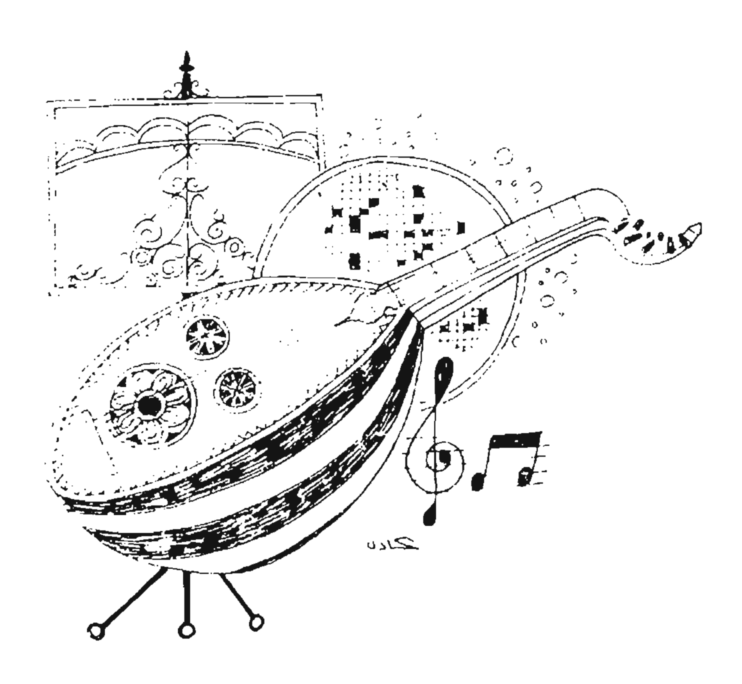
فغضب المهدى غضبا شديدا من جرأتى هذه وشدد على النكير ! ..

وكان وليا عهد المهدى ، موسى الهــادى ، وهارون الرشـــيد شــابين صغيرين ، فكانا يحبان سماعى سرا ، حتى وشى بهما أحد الخــدم وقــال لابيهما انهما لا يكتفيان بسماع الغناء ، بل يضيفان الى سماعه شرب النبيذ ويستهتران بشربه مع الموصلى ··

فجىء بى الى الخليفة فأمر بضربى ثلاثمائة وستين سوطا ، وقيدنى بأغلال ثقال حتى ظننت اننى سأموت من هذا العذاب ، فاجترأت وقلت للمهدى :

ـ يا أمير المؤمنين ·· ان جرمى ليس من الاجــرام التى يحل لك بها سفك دمى ! ·

فاستشاط الخليفة غضبا ، ووثب فضربنى بالســيف وهو فى قرابه ، فشجنى به ، وسقطت مغشـــيا على ·· فلما أفقت أخرجــونى وأنا ارى الدنيا صفراء وحمراء وخضراء من حر ضرب السياط ، وألبسونى على جلدى الممزق جلد كبش ذبيح لتهدأ جراحى ! ··



# لعبة الجارية

## ● اليوم الاول :

المال عندى ـ بحمد الله ـ كثير لا ينفد ، ولكنى أخاف من نفاده اذا حبس عنى أمير المؤمنين الرشيد عطاءه ولو شهرا واحدا أو بعض شهر وقد سافر ـ أعزه الله ـ لغزو الروم منذ مدة ، فاعتراني خوف من الفقر ، على كثرة ما عندى من المال ، فقلت فى نفسى : أقصد الى جعفر بن يحيى البرمكي الوزير ، فانه محب لى ، وهو كريم لا يراني حتى يأمر لى بجائزة ٠٠

كانني كنت ناسيا من شدة خوفى على المال الذى فى خزانتى ، وشدة رغبتى فى المال الذى فى خزانة جعفر بن يحيى ، فما خطوت خارج دارى حتى تذكرت ان جعفرا يصحب الرشيد فى غزاته هذه التى لا أدرى متى يفرغ منها ، فانه عبأ الجيش ومضى ليؤدب « كلب الروم » ـ كما يسميه ـ مع انه « ملك الروم » العظيم « نقفور » الذى يقال انه أقوى الملوك ! ٠

قلت فى نفسى : أذهب اذن الى الفضل بن يحيى البرمكى فانه لا يقل كرما عن أخيه جعفر ! ٠٠ ركبت دابتى ومضيت اليه تتنازعنى الآمال ! ٠

قلت له ، وقد غنيته صوتا شرب عليه وطرب

ـ يا أبا العباس ، جعلت فداك ، هب لى دراهم أو دنانير ، فان الخليفة فى الغزو ، ولا أعلم متى يعود ! ٠٠

قال الفضل

ـ ويحك يا أبا اسحاق ٠٠ ما عندى من المال ما أرضاه لك ، ولئن أعطيتك قليلا ، ليقولن الناس : الفضل بن يحيى أعطى ابراهيم الموصلى عطاء البخلاء ! ٠٠

جزعت وقلت للفضل :

ـ فما العمل أيها الامير ؟!

تفكر شيئا فقال

ـ ها هنا فرصة طيبة ! ٠٠ أتانا رسول من صنعاء ، يحمل الينا ولاء حاكم اليمن ويرفع الينا حوائجه ٠٠ ووجه الينا صاحب اليمن بخمسين الف دينار يشترى بها محبتنا ، وهو يعلم اننا لا نأخذ منه هذا المال ،

فالتمس منا أن يشترى لنا به ما نشاء من أسواق بغـداد ! ٠٠ وقد علمت انك تعرض جاريتك « ضياء » للبيع ، فأنا أقول لرسول صاحب اليمن : أذهب الى ابراهيم الموصلى فاشتر منه جاريته ضياء ، وجئنا بها فاننا نقبلها هدية من سيدك صاحب اليمن ! ٠٠

ثم قال لى الفضل :

ـ يا ابراهيم ٠٠ اذا جاءك هذا الرجل يشترى جاريتك فلا تنقصها عن خمسين ألف دينار !

## ● اليوم الثاني :

بكر على دارى رسول صاحب اليمن ومعه صـــديق لى يتشفع به عندى ، فقال لى الرسول :

ـ يا أبا اسحاق ٠٠ جاريتك ضياء ، هل تبيعها ؟! ٠٠

قلت :

ـ لا والله ، فقد تعبت فى تعليمها حتى صارت فى الغنـاء حاذقة راوية محسنة كل الاحسان ، وقد طلبها منى الامراء والوزراء فأبيت أن أخرجهـا من دارى ! ٠٠

فوثب صديقى الذى جاء معه فقال :

ـ يا أبا اسحاق ٠٠ قد تشفع الرجل بى عندك فشفعنى !

فلم أجبه بشيء ، واغمضت عينى كأنى افكر واقلب وجوه الرأى ، فقال لى صديقى :

ناشدتك الله أن تقبل وتشفعنى ، فقلت له :

ـ قد شفعتك ! ٠٠

فوثب رسول صاحب اليمن فسألنى :

ـ فبكم تبيعنى الجارية ؟!

قلت :

ـ بخمسين الف دينار ، لا أنقص منها دينارا واحدا ٠٠

قال الرجل :

ـ هل لك فى ثلاثين الف دينار مسلمة لك معجلة ؟! ٠٠

فلما وقع فى سمعى ذكر ثلاثين الف دينار ، ارتج على ، ولحقنى خوف وشبه ارتعاد ، كأننى أصبت بالحمى ، وقلت فى نفسى وأنا أعالج اضطرابى ورعدتي : قد كان شرائى هذه الجارية على أربعمـــائة دينـار فقط ، فالربح فيها بأكثر من تسعة وعشرين الف دينار ! ٠٠

وأشار على صديقى الذى معه بالبيع ، وركبتنى الوســاوس فخفت أن

تموت الجارية فى تلك الساعة قبل أن أبيعهـــا ، أو أمـوت أنا ، أو يموت الفضل بن يحيى ، أو يموت رسول صاحب اليمن هذا : فيضيع المال !

فقلت للرجل :

هات المال ـ وخذها بارك الله لك فيها ! ..

## ● اليوم الثالث :

بكرت على الفضل بن يحيى فى قصره ، فاذا هو جالس وحده ، فلما بصر بى ضحك كثيرا ، ثم قال لى :

ـ يا ضيق الحوصلة ! .. يامتسرع ! .. يا شديد الحرص ! .. حرمت نفسك عشرين ألف دينار ؟! ..

قلت :

ـ جعلت فداك ! .. دع ذا عنك ، فوالله لقد داخلنى شىء أعجـــز عن وصفه لك ، وخفت أن تحدث بى حادثة ، أو بالجارية أو بالمشترى .. أو .. بك ! .. أعاذك الله من كل سوء ، فبادرت بقبـــول الثـــلاثين ألف دينار ! ..

فلم يغضب الفضل وقال لاحد غلمانه :

ـ جىء بالجارية ضياء ! ..

فجاء الغلام بجاريتي وكان رسول صـــاحب اليمن قد أهداها اليه بعقب شرائها وخروجه واياها من دارى ..

وقال لى الفضل :

ـ خذ جاريتك مباركا لك فيها ، فانما أردنا منفعتك ولم نرد الجارية !

فلما نهضت وأخذت الجارية ، ضحك الفضل وقال لى :

ـ مكانك يا ابراهيم ، فان رسول صاحب ولاية أرمينية قد جاءنا فقضينا حوائجه ، وجددنا خدمته ، ونفذنا كتبه .. وقد ذكر انه جاءنا بثلاثين ألف دينار يشترى لنا بها ما نحب .. وسأرسله اليك فاعرض عليه جاريتك هذه ولا تنقصها عن ثلاثين ألف دينار ! ..

## ● اليوم الرابع :

طرق بابى رســـــول صاحب امارة أرمينية ، فقلت للغلمان : لا تجيبوه ولا تفتحوا الباب له حتى يتعب ! ..

فلما تعب الرجل من وقوفه على بابى ، أمرت الغلمـــان فادخلوه ، وكان معه صديق آخر لى يتشفع به عندى كما فعل رســـــول صاحب اليمن من قبل ! ..

فقاولنى الرجل بالجارية ، فقلت له متأففا :

ــ ثمنها ثلاثون ألف دينار ، لا أنقصها دينارا ! ..

قال :

ــ معى عشرون ألف دينار تأخذها معجلة مسلمة لك فى مجلسنا هذا !

فلم أكد أسمع كلام الرجل حتى اعترانى من الخوف مثل الذى اعترانى عند لقائى برسول صاحب اليمن ، وجهدت أن أتماسك وأصر على الثمن الذى أمرنى به الوزير الفضل بن يحيى ، فما استطعت شيئا ، وأخذت المال من الرجل .. عشرين ألف دينار فقط ، وسلمته الجارية ، ومضى بها الرجل ليهديها الى الفضل ! ..

مكثت فى بيتى أياما لا أجرؤ على زيارة الفضل ، حتى أرسل يدعونى ، فلما رآنى ضحك حتى ضرب الارض برجله وقال :

ــ ويحك يا ابراهيم ! .. حرمت نفسك عشرة آلاف دينار ؟!

قلت :

ــ أصلحك الله ! .. خفت والله ما خفت فى المرة الاولى !

فعاد الفضل يضحك ثم قال :

ــ لا ضير ! .. يا غلام .. اخرج جارية ابى اسحاق اليه ..

فأخذت الجارية ، وعدت الى دارى فقلت لها :

ــ أنت حرة لوجه الله تعالى ! .. كسبت لى فى أقصر مدة خمسين ألف دينار ! ..

ولما صارت الجارية حرة ، تزوجتها على صداق قدره عشرة آلاف درهم!

## ● اليوم الخامس :

جاءنى بعض خدم الخلافة يقولون :

ــ أجب أمير المؤمنين ! ..

قلت مبتهجا :

ــ أو قد عاد أمير المؤمنين من غزاته ؟!

قالوا :

ــ انه يدعوك أن تسافر اليه فى الشام ، فانه عاد من الغزو ، وهو الآن يريح الجيش هناك ! ..

فلما بلغت معسكر الرشيد فى الشام ، دخلت اليه فى مجلس لم أر

احسن منه ، مفروش بأنواع الرخام ، فهنأته بالنصر على « كلب الروم » وهو لا يقبل من أحد أن يسمى ملك الروم الا بهذا الاسم ! ..

دعاني الرشيد الى طعامه ، ثم توليت منادمته الى العصر ، وغنيت له حتى طرب وانتشى ، وخلع على خلعة من فاخر ثيابه ، وأمر لى بجائزة كبيرة ! .

ثم قال لى

ـ يا ابراهيم .. ما أحدثت بعدى فى بغداد ؟!

فقصصت عليه قصة جاريتى ضياء ، وما صنعته ، وما صنع الفضل ابن يحيى ، ورسولا صاحب اليمن وصاحب أرمينية ، فضحك الرشيد ، حتى ظننته لا ينقطع عن الضحك ! ..

ودخل جعفر البرمكى ، فوجده مستغرقا فى الضحك ، فالتزم الصمت حتى فاء الرشيد الى نفسه ، فأمرنى أن أقص عليه قصتى مع شقيقه الفضل ! ..

وعاد الرشيد يضحك ، يشاركه فى ضحكه جعفر ! ..

ثم قال الرشيد

ـ يا جعفر .. قد أخذ ابراهيم من الفضل خمسين الف دينار فى أقصر وقت ، فكم تعطيه أنت على هذه القصة ؟! ..

# إقطاعية ذى الرُّمّـة

**● اليوم الاول :**

سمعت الوزير جعفر بن يحيى البرمكي يقول أن أمير المؤمنين الرشيد يحفظ ديوان الشاعر ذى الرمة كاملا ، حفظ الصبا ، ويعجبه ويؤثره ويحب أن يسمع الغناء فيه ! ..

فلما كانت السهرة فى قصر الرشيد ، غنيته لحنا فى شعر لذى الرمة فأطربه .

وأمر لى بجائزة عظيمة ، فقمت بين يديه فقلت له :

ـ يا أمير المؤمنين : لى حاجة بعد هذه الجائزة التى أكرمتنى بها ، وهى حاجة تقوم عندى مقام كل فائدة ! .

قال :

ـ أى شىء حاجتك هذه ؟! ..

قلت :

ـ تقطعنى شعر ذى الرمة ، أغنى فيه ما أختاره ، وتحظر على المغنين جميعا أن يداخلونى فيه ، فانى أحب شعره واستحسنه ، ولا أحب أن ينغصه على أحد منهم ! ..

تبينت السرور فى وجه الرشيد لما قلته ، وأجابنى الى ما سألته ، وقال :

ـ ما سألت شططا يا ابراهيم ! .. قد أقطعتك شعر ذى الرمة كله خالصا لك وحدك لا ينازعك فيه أحد من المغنين ! .

فرأيت المغنين من حولى يضحكون ويستصغرون عقلى ، ويقولون هازئين :

ـ لقد استضخمت القطيعة يا ابراهيم .

فلم ألتفت اليهم ، وقلت للرشيد :

ـ أتأذن لى فى التوثق يا أمير المؤمنين ؟!

قال الرشيد وقد بان التعجب فى ملامحه :

ـ توثق كيف شئت ، فما سألتنا الا قطيعة سهلة لا قيمة لها ولا منفعة

فيها لاحد ! ..

قلت :

ـ بالله وبحق رسوله وبتربة أمير المؤمنين المهدى ، الا جعلتنى على ثقة من ذلك ، بأنك تحلف لى انك لا تعطى أحدا من المغنين جائزة على شيء يغنيه فى شعر ذى الرمة ، فان ذلك وثيقتى التى تثلج صدرى !..

فضحك الرشيد ، وحلف لى مجتهدا لئن غناه أحد من المغنين فى شعر ذى الرمة ، لا أنابه بشيء ، ولا سمع غناءه ! ..

شكرت امير المؤمنين ، وانصرفت بعد ذلك مع زملائى المغنين ! .

فلما كنا فى بعض الطريق قال لى إسماعيل بن جامع ، ذو الصوت الذهبى والصنعة الجميلة فى الغناء :

ـ يا أبا اسحاق ! .. والله لقد هزئت بك كما هزىء بك سائر المغنين فى مجلس الرشيد ، عند طلبك شعر ذى الرمة خالصا لك دون جميع أهل صناعتك ، ثم تنبهت الى خبثك وبراعة تدبيرك حين رأيتك تستحلف أمير المؤمنين الا يسمع غيرك أحدا يغنى فى شعر ذى الرمة ، ولا يجيزه بشيء ، فقد دلنى ذلك على انك علمت ان الرشيد يحب هذا الشعر ، ويحب أن يسمع الغناء فيه ، فأردت أن تستأثر بجوائزه كلها ..

قلت :

ـ هو والله كذلك ! ..

قال :

ـ ما رأيت أشد حمقا من هؤلاء المغنين فقد علموا من قديم دهاءك ودقة تدبيرك ، وفاتهم أن يتبينوا ما وراء تدبيرك فى شعر ذى الرمة عند أمير المؤمنين ! ..

## ● اليوم الثانى :

لم أستطع أن انظم شعرا اغنى فيه لحنا جديدا للرشيد ، وخانتنى قريحتى فلم تسعفنى ببيت واحد من الشعر ، على غزارة ما تفيض به حين لا أكون محتاجا الى فيضها ! ..

دخلت الى بعض حجرات دارى مغموما ، فاسبلت الستور ، وغلبتنى عينى فنمت فتمثل لى فى النوم شيخ عجيب الخلقة ، فقال لى : يا موصلى مالى أراك مغموما ؟! .. قلت : لانى لا أجد شعرا أغنى فيه الرشيد الليلة؟! .. قال : وأين ذهب عنك قول ذى الرمة :

الا يا اسلمى يا دار مى على البلى
ولا زال منهلا بجرعائك القطر

وان لم تكوني غير شام بقفـــرة
تجر بها الاذيال صـــيفية كــدر
اقامت بها حتى ذوى العود في الثرى
وســاق الثريا في ملاءته الفجــر

ثم غناني الشيخ لحنا جميلا في هذا الشعر وكرره حتى حفظته وأحكمته وانتبهت من النوم وأنا أتغنى به كأنني أنا الذى صنعته ، فناديت جارية لى فأحضرت لى عودا ، وما زلت أترنم بالصوت حتى استوى لى على أحسن وجه .. وطارحته الجارية حتى حفظته وأتقنته ! ..

فلما جلست في السهرة بين يدى الرشيد ، غنيته هذا اللحن ، فطـرب واستعادنيه فأعدته مرات .. وأسكت المغنين جميعا ، وما زال ليلته كلهـا يستعيدنى هذا اللحن .. ثم أمر لى بثلاثين ألف درهم ! ..

● اليوم الثالث :

جلست الليلة بين يدى الرشيد ، وعن يمينى « زلزل » أعظم ضــاربى العود .. والى يسارى « برصوما » أبرع زامر ، وغنيت :

صحا قلبى وعـاد الى عقـــل
واقصر باطل ونســـيت جهـل
رايت الغانيات وكن صـــورا
الى هجـــرنني وقطعن حبــل

وضرب زلزل على غنائى أحسن ضرب بالعود سمعته قط ، وزمر برصوما في الناى أحسن زمر يقدر عليه الانسان ، حتى ظننت ان الجـــدران من حولنا تتحرك طربا لما تسمع من هذا الغناء والضرب والزمر ، واشتد طرب الرشيد حتى وثب على رجليه وصاح : ياآدم .. لو رأيت من يحضرنى من ولدك اليوم لسررت بهم ! .

ثم فاء الرشيد الى نفسه فجلس وقال : أستغفر الله ! ..

والرشيد على شغفه بالغناء ، كثير الذكر لله عز وجل ، وما رأيته أسرف في الطرب مرة ، الا شفع ذلك بالاستغفار ! ..

وهذا الشعر الذى غنيت فيه ، من نظم أبى العتـــاهية ، وكـان حاضرا مجلسنا فرأيته يبكى حتى أخضلت لحيته ، ولكنه كف عن الطرب والبكاء عندما أمر الرشيد لى ولزلزل وبرصوما بجوائز ضخمة ، ولم يامر له بشىء ، وهمس لى :

– عجبت لامير المؤمنين .. أليس ما غنيته فيه من كلامى ؟! ..
فكيف يامر لك بجائزة وينسانى ..
قلت له

ـ انه لا يعرف انك صاحب هذا الشعر يا أبا العتاهية ! •

قال لى :

ـ فاذكر له اذن انى صاحبه ! ••

فلما ذكرت ذلك للرشيد ، ابتسم •

وقال لابى العتاهية كانه يعاتبه :

ـ انما طربت للغناء والضرب والزمر • لا لشعرك ! ••

فأوشك أبو العتاهية أن يقع مغشيا عليه من الغم والكمد ، حتى أسعفه الرشيد قائلا :

ـ ولك أنت أيضا يا أبا العتاهية جائزة ! ••

## ● اليوم الرابع :

قال لى الرشيد الليلة قبل أن يجتمع عنده المغنون فى السهرة :

ـ أتلعب بالنرد ؟!

قلت :

ـ نعم يا أمير المؤمنين ، ولكنى اذا قمرت من الاعبه أخذت حقى منه ، واذا قمرنى أخذ منى حقه ! ••

قال :

ـ ويحك ! •• أتلعب القمار ؟! ••

قلت :

ـ فهذا والله هو الشرط ! ••

فلعبنا ، على الثياب التى كانت على بدنى ، والثياب التى كانت على بدن الخليفة • فلما رأيت الرشيد أقل معرفة منى بالنرد ، تقامرت له ، فقمرنى وقلت له :

ـ لقد غلبتنى يا أمير المؤمنين ، وحكم النـرد الوفاء بشرطه ، فأنا الآن اخلع ثيابى فتلبسها فقال لى :

ـ ويلك ! •• أنا ألبس ثيابك كأننى بعض المغنين ؟! ••

قلت :

ـ أى والله ، اذا أنصفتنى يا أمير المؤمنين ! •• واذا لم تنصفنى أمكنك ذلك ! ••

قال :

ـ ويلك ! .. الا تقبل منى فدية ؟! ..

قلت :

ـ بلى .. وما الفداء ؟!

قال :

ـ أعطيك كل ما على جسدى من ثياب !

قلت :

يأمر لى أمير المؤمنين بذلك ، وأنا استخير الله ! ..

فضحك الرشيد ، ودعا بغير ما عليه من الثياب فلبسه ونزع ما كان عليه فأخذته فاذا شيء عظيم القيمة جدا ! ..

ثم قال لى الرشيد فجأة :

ـ يا ابراهيم .. ما رأيت أحذق منك فى كل شيء .. أتظن انى غفلت عن براعتك فى النرد ، وانك تقامرت لى فغلبتك وأنا قليل الاهتمام بالنرد وليس لى به شغل يجعلنى أغلب فيه أصحابه والمشتغلين به من أمثالك ؟! .

فقلت بسرعة أحاول تبرئة نفسى :

ـ والله يا أمير المؤمنين ، ما فاتنى انك لا تهتم بالنرد ولا تشتغل به ، ولكنك فى هذه المرة غلبتنى وقمرتنى بحق ،فان هيبتك منعتنى من استحضار الذهن ، فصرت كأننى لم أر النرد فى حياتى ! ..

قال ضاحكا :

ـ ما يغلبك أحد يا ابراهيم .. فما فعل شعر ذى الرمة عندك ، وكم كسبت منه حتى يومنا هذا ؟!

فورد على قلبى من سؤاله هذا الذى فاجأنى به ، ما أوشك أن يسكت قلبى عن الخفقان ، وعلمت انه لم يفته معنى استحلافى اياه الا يسمع مغنيا غيرى فى شعر ذى الرمة وان الرشيد لبالغ الذكاء ، ولكنه يدارى ذكاءه أحيانا ، ليبلغ ما يريد بلوغه من أمر .. وقد ظننت انه لم يكن متنبها الى معنى استئثارى فى مجالسه بالغناء فى شعر ذى الرمة ! ..

استحثنى الرشيد :

ـ أجب يا ابراهيم .. كم بلغ ما أخذت على غنائك فى شعر ذى الرمة ؟!

قلت :

ـ ألف ألف درهم .. يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداءك !

فضحك وقال :

ـ لقد أقطعناك ما أحببت ! ..

ثم أمر الرشيد فدخل المغنون وبدأت السهرة ، وكنت قد أعددت لها لحنا جديدا فى شعر ذى الرمة ! ..

# غضبُ الرشيد وكرمه

## ● اليوم الاول :

مررت عصرا ببستان مزدهر أنيق ، مفتوح الباب ، واذا مغن يصدح فى البستان بصوت جميل وصنعة متقنة ، وحوله مستمعون قلائل تبدو عليهم نضرة النعيم ، وقد تملكهم الطرب فهم يتصـــايحون ويشربون ، وأراهم من كثب ولا يرونني لانشغالهم بأمرهم ، فحدثتنى نفسى أن أدخل عليهم بغير اذن ، فقلت لنفسى أعظها وأحذرها مغبة التطفل : قد علمتنا مجالسة الخلفاء والكبراء ومنادمتهم ، أن نستأذن فى كل دخول أو خـــروج ، بل فى كل نطق أو سكوت ! ٠٠ فقالت لى نفسى : ولكن هؤلاء الجالســين مع مغنيهم فى هذا البستان ليسوا بخلفاء ولا كبراء ، وان بدت عليهم النعمة ، ووالله ما أنت فى هذا بخير من ابن ذى الجناحين الطيار فى الجنة ! ٠

قلت لنفسى :

ـ تعنين عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب ؟!

قالت :

ـ نعم ٠٠ هو بعينه ٠٠ عليه السلام وعلى آل بيت رسول الله ٠٠

قلت :

ـ ويحك يا نفسى ٠٠ وأين أنا منه ؟! ٠٠ وهذا نسبه الشريف يجمعه ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى جده عبد المطلب ؟! ٠ وكيف أساميه فأكون أحمق من بشار بن برد حين زعم انه لو ملك من المال ما كان يملكه ابن جعفر ، لســـاماه فى الجود ولم يترك فقيرا الا أعطـــاه من دراهمـــه ودنانيره ! ٠

ضحكت نفسى وقالت :

ـ دع هذا عنك ، فلا أكلفك أن تساميه فى الجـــود ولا فى الحســـب والنسب ! ٠٠ ولكن أقول لك : اصنع كما صنع هذا الشريف حين ســـمع مرة غناء عند قوم فدخل عليهم بغير اذن وقال لهم :

ـ انما ادخلنى عليكم مغنيكم لما سمعته يغنى :

قل لكـــرام ببابنـــا يلجـوا
مافى التصابى على الفتى حرج

قلت لنفسي : افعل اذن .. غير متشبه بابن عم رسول الله ، فأين أنا منه ، بل اين منه خليفتنا هارون الرشيد نفســـه ، وهو ملك المشرقين وسلطان الخافقين ، وهو ابن عم رسول الله أيضا ؟! .

دخلت البستان على استحياء ، فلما صرت أقرب ما أكون منهم ، وجدتني لا أعرف أحدا منهم الا مغنيهم فانه تلميذى ومريدى هاشـم بن سليمان ، ووجم القوم لرؤيتي ولعلهم قالوا فى أنفسهم : من هذا الطفيلى الذى يقتحم علينا بلا اذن منا ؟! .. ولعلهم هموا بزجرى وطردى ، الا ان هاشما المغنى وثب من بينهم يجرى حتى لقينى ، فعانقنى وقبل يدى ، وسـلم تسـليم صديق مشتاق شديد المحبة لصديقه ! ..

جلست الى القوم ، فرحبوا وانطلقت أساريرهم بعد تجهم ، الا أنهم لم يعرفونى .. فقلت لهم :

ــ انى اجتزت بكم فسمعت غناء هاشم بن سليمان فاسـتخفنى وأطربنى فدخلت اليكم ، واثقا بأنه لا يعاشر الا فتيانا ظرفاء مثله ، وها أنتم هـؤلاء تغمروننى بظرفكم وحلاوة شمائلكم ..

قال أحدهم :

ــ ان نفوسنا صارت متعلقة بك وبمعرفتك ، فمن أنت ، أمتع الله بك ؟!

فصاح هاشم المغنى :

ــ ويحكم ! .. اما تعرفون أبا اسحاق ابراهيم الموصلى ؟!

بهت القوم لحظة ثم وثبوا فغمروا رأسى بالقبـلات ، وقـالوا : انعمت علينا وسررتنا وبذلت لنا مودتك ، وأجلستنا منك مجلسا يتمناه الاشراف والكبراء ولا يظفرون به ! ..

● **اليوم الثاني :**

قلت اليوم لابنى اسحاق وقد رأيته منتفشا بما صار اليه من الحذق فى التلحين والغناء ومعرفة تراث الاقدمين فى هذه الصناعة

ــ أما سمعت اللحن الجديد الذى صنعته فى قول عمر بن ابى ربيعة :

**ليت هندا انجزتنـــا ما تعد**
**وشفت انفســــنا مما تجد**

فنظر الغلام الى نظرة منكرة وقال :

ــ لا والله يا أبت ما سمعته ! ..

قلت وانا أفكر فى نظرته النكراء هذه ، ما سببها ؟! ..

ــ اسمعه اذن .. ثم هات رأيك بصراحة !

غنيته الصوت مجتهدا في أدائه كل الاجتهـــاد ، كأننى أغنى فى حضرة

خليفة أو ولي عهد أو وزير ، لعلمي بما بلغه ابني هذا من العلم بالالحان ورواية غناء القدماء ، فضلا عن جودة صنعته ودقة غنائه وأدائه على صغر سنه ..

فلما فرغت من اللحن ، وضعت العود جانبا ، وتطلعت الى ابني انتظر رأيه ، كأنني والله كنت في امتحان هو فيه الاستاذ وأنا التلميذ ! .

لكنه لم ينطق ، ونكس رأسه متجهما مفكرا ، فصحت به أستحثه :

ـ الا تقول شيئا ؟! .

فتململ كأنه يعالج هما ثقيلا يحاول زحزحته عن صدره ، ثم قال في صوت خافت :

ـ يا أبت .. ان الملحنين والمغنين من حولك يعدون عليك انفاسك ، ويعيبون محاسنك ، وأنت عنهم في شغل .. ولو سمعوا لحنك هذا لخاصموك فيه وعابوه وانتقصوا من قدرك وأنت رأس هذه الصناعة ، وهم ذيول وزعانف ! ..

قلت : ولم ذلك لله أبوك ؟! ..

قال : لان ابن سريج امام القدماء من أهل الصناعة قد عمل في هذا الشعر لحنا رائعا وجئت أنت فعارضته بهذا اللحن الذي لا يقاربه . ولن يترك الناس لحن ابن سريج افتتانا بلحنك هذا .. وستجد منهم من يقول: قد جرى الموصلي في غبار ابن سريج فكبا دون مداه ، وظهر تقصيره ، وثبت لابن سريج فضله وتقدمه ! .

قلت لابني وقد أخذتني العزة :

ـ انترك كل شعر صنع فيه ابن سريج لحنا فلا نصنع فيه لحنا جديدا ، لكيلا يقال اننا نعارضه بألحاننا فنقصر عنه ؟!

قال هادئا :

نعم .. نترك ما تداوله ابن سريج والقدماء من الشعر في غنائهم الذي يرويه الرواة ، ونأخذ في غيره ، فان الشعر كثير ، ولخير لنا أن ننظم الشعر ونلحنه ، من أن نعمد الى شعر صنع منه القدماء الحانا فائقة ، فنصنع فيه ما يتركنا نحجل وراءهم كأنما أصابنا الكساح !

غضبت أشد الغضب من جرأة هذا الولد ، فانه جعل ابن سريج قمة الغناء ، وجعلني السفح أو دون السفح ، وجعله فرسا يجري في الرهان ، وجعلني كسيحا أحجل وراءه . فما أشعر الا ويدي تمتد الى الغلام فتلطمه على وجهه لطمة هائلة ، فنهض لا يتكلم ، وخرج ! .. وبقيت في مكاني خزيان اسفا ، لا أدري ما أقول ولا ما أصنع ! .

### ● اليوم الثالث :

اعتكفت العشية في منزلي ، فجاءني خادم من خدم الخليفة الرشيد

فاستحثنى بالركوب اليه ، فخرجت اليه شبيها بالراكض حتى دخلت عليه فاذا هو جالس على كرسى فى صحن واسع بالدار ، ليس عنده الا خادم يسقيه ، فلما رآنى هش لى وسر وقال : « يا موصلى ٠٠ انى اشتهيت أن أجلس اليوم ، وأحببت الا يكون معى ومعك أحد » ٠٠ ثم صاح بالخدم ، فوافاه مائة وصيف كانوا مستترين بالاعمدة ، فجاءنى بعضهم بمقعد فجلست عليه تجاه الرشيد ، وقال لى : « بحياتى أطربنى بما قدرت » !٠٠ ففعلت واجتهدت فى ذلك ورجوت الجائزة ، فبينما أنا كذلك ، جاء الخادم مسرور الكبير فأسر فى أذن الخليفة كلمة ثم تنحى ، فاستشاط الخليفة غضبا ، واحمرت عيناه ، وانتفخت أوداجه ثم صاح :

« حتام اصبر على آل بنى ابى طالب ؟! » ٠

ذعرت من صيحة الرشيد ، وكدت أموت خوفا من منظره غاضبا ، ووعيده لآل أبى طالب بالقتل الذريع ٠٠ وقلت فى نفسى : أنا لله ٠٠ ليس عند هذا الملك الجبار الساعة أحد يخرج غضبه عليه سواى ٠٠ وأحسبه سيوقع بى ويقتلنى ، فيذهب دمى هدرا ، فما أنا من آل ابى طالب فأكون شهيدا ، وانما أنا مغن جاء يغنيه ويسليه ! ٠

ثم حملنى الطمع فى النجاة من القتل على أن أندفع مغنيا هذه الابيات :

نعم عونا على الهموم ثلاث

مترعات من بعدهن ثلاث

بعدها اربع تتمة عشر

لابطاء لكنهن حثاث

فاذا ناولتكهن جوار

عطرات بيض الوجوه خناث

تم فيها لك السرور وما طيب

عيشا الا الخناث الاناث

صاح الرشيد فى وجهى وقد هاجه الغناء :

ـ ويلك ! ٠٠ اسقنى ثلاثا لا أمت هما ! ٠٠

فشرب ثلاثا متتابعات ، وقال : « غن هذه الابيات مرة أخرى ٠٠ ويلك »

فلما غنيتها ثانية ، هدأ قليلا وقال : « هات ثلاثا أخرى ٠٠ وأعد غناء الابيات » فأعدتها ، فقال : « حث على بأربع تتمة العشر كما يقول الشعر »

وأتم الرشيد العشر فانتشى وانبسطت أساريره ، وعادت اليه أريحيته ، وانقشع غضبه ، ونسى المؤتمرين به من آل أبى طالب ـ أبناء عمومته ـ ثم نهض مثقلا بالنشوة خفيفا بها فى وقت معا ، وقال لى : « قم ياموصلى فانصرف الى بيتك » !

فقمت يملؤنى الغم لضياع الجائزة ، فلم أكد أخطو خطوة حتى نادى

الرشيد مسرورا الخادم فقال بلسان ينطق فى نشوة ، وبلهجة متوسلة لا يحتاج اليها خليفة فى اصدار أمره النافذ الى خادمه المطيع :

ـ يا مسرور ‥ أقسمت عليك بحياتى ، وبحقى ، الا سبقت الموصلى الى منزله بمائة ألف درهم ، لا استأمر فيها ولا فى شىء منها !

فلم أصدق ما سمعت من كلام الخليفة لخادمه ، ولكنى أمنت من خوف ، ومضيت الى منزلى متمهلا ‥ فما دخلت من الباب حتى وجدت مسرورا وأعوانه يخرجون منه وقد سبقونى الى منزلى بالمائة الالف درهم ٠



# تاجـر الجـوارى

**● اليوم الاول :**

كثير من زملائى فى صناعة الغناء يحسدوننى ويقولون : فاز والله ابراهيم الموصلى بنصيب الاسد من جوائز الخليفة هارون الرشيد ٠

ويعلم زملائى علم اليقين اننى واياهم مضطرون الى الاشتغال بأعمال تجارية ، وأعمال أخرى متنوعة ثقيلة على النفس ، نمارسها سرا وعلانية لنجمع نفقات حياتنا الباهظة التى لا تفى بها مكاسبنا من صناعة الغناء وحدها ، مهما كثر ما يحصل عليه المغنى من جوائز الخليفة وهدايا الامراء والكبراء ٠٠

وقد غمرتنى عطايا الخلفاء والوزراء والنبلاء ، حتى بلغ ما أعطانيه الخليفة موسى الهادى ـ رحمه الله ـ مائتى ألف دينار من خالص الذهب فى يومين اثنين فقط ! ٠٠ كان ذلك كرما منه لم يحظ بمثله مغن آخر غيرى ، ولو عاش الهادى لبنيت حيطان منزلى بالذهب والفضة ، ولكنه لم يعش فى الخلافة الا عاما وبعض عام ، وجاء يعقبه أخوه هارون الرشيد ، وهو بالقياس الى الهادى يعد شبه بخيل وان كان من الاجواد بالقياس الى الاغنياء الاشحاء فى هذا الزمان ، ولا استثنى الا البرامكة الكرام ! ٠٠

لو عاش الهادى لاكتفيت بصناعة الغناء وما يأتينى من جوائزه الهائلة ، أما الآن فان جوائز الرشيد لا تكفى مطالب الحياة المرهقة فى بغداد ، وسط البذخ الذى يتقلب فيه سادتنا الذين نغنى لهم !

فهل يلومنى أحد على احترافى التجارة فى الجوارى المغنيات ٠٠ أعلمهن أصول الغناء وأصقلهن حتى يصلحن لحياة القصور ثم ابيعهن للنبلاء من بنى هاشم ، والاثرياء من العرب والعجم المستعربين المتحكمين فى المناصب العليا للدولة ! ٠٠

وأحمد الله اننى أبيع الجوارى بيعا شرعيا ، لا أقدمهن للهو والسهر فى ليالى بغداد ، ثم أقودهن فى مطلع الفجر عائدات الى بيتى ! ٠٠

وأنا أجتلب الجوارى من أسواق الرقيق ، صغيرات جميلات الوجوه والاجساد ، واشترط فى لون بشرتهن البياض أو الشقرة أو السمرة المائلة الى البياض ٠٠ ولا أشترى الجوارى الصفر المجلوبات من الصين ، ولا القاتمات الالوان المأخوذات من الهند والسند ، ولا الزنجيات المستوردات

من افريقية ، فان هؤلاء الصفر والسود لا يصلحن الا للخدمة فى المطبخ . أو كنس المنازل ، أو رعاية الاطفال ..

وأنا أول من ذهب فى تقسيم الجوارى هذا المذهب ، فجعلت السود للخدمة ، والبيض للغناء والمنادمة ..

وكان الناس قبل ذلك يجلبون الجوارى البيض الحسان للمتعة أو « لتبييض النسل » على حد قول جفاة الاعراب الباحثين عن زوجات أو اماء من غير نساء البادية الجافيات ! ..

وأما الغناء فكان الناس يعلمونه لذوات الاصوات الجميلة من الجوارى الصفر والسود ، وحجتهم فى ذلك ان الرجل لا حاجة له فى الجارية السوداء أو الصفراء الا الغناء وحده ، وليس به حاجة عندها الى شيء سوى الغناء .

وقد استطعت أن أقلب هذه القاعدة فى نخاسة الجوارى واستخدامهن ، فصارت البيضاء والشقراء للغناء والمنادمة ، وانصرفت السوداء والصفراء الى الخدمة فى البيت والمطبخ ! .

ثم نشأت طائفة من الجوارى الصفر والسود حظين عند سادتهن وولدن لهم البنين والبنات ، حتى كثر الخلاسيون من نسلهن ، وكلما رأيت زميلنا فى الصناعة « الامير ابراهيم بن المهدى » وهو أخو الخليفة الرشيد ، تذكرت هذا الصنف من الجوارى ، فان ابراهيم بن المهدى اسود اللون ، لا يشك أحد فى لون من ولدته من الجوارى اللاتى كن فى ملك الخليفة المهدى رحمه الله ! .. وان زميلنا الامير ابراهيم بن المهدى ليشمخ علينا مع هذا ، ويفخر بأنه هاشمى النسب من أحفاد عباس بن عبد المطلب بن هاشم ، وان كان غارقا الى أذنيه مثلنا فى صناعة الغناء ! ..

وقد نفقت بضاعتى عند الخلفاء والامراء والوزراء والاثرياء ، وبعت الجوارى البيض المغنيات بأثمان عالية ، واقتدى بى المطربون والملحنون جميعا وامتلأت مقاصير بيوتهم بالجوارى الحسان البيض والشقر من بنات الروم والكرد والفرس والارمن وغيرهن ! ..

## ● اليوم الثانى :

ضحكت حين سمعت صديقا شاعرا لى يهجونى ، لانه اعتبرنى مسئولا عن غلاء اسعار الجوارى المغنيات .. كان هذا الشاعر قد أحب جارية فأراد شراءها من مولاها فأغلى عليه ثمنها حتى أعجزه عن شرائها ! .. هذه الجارية تعلمت الغناء على يدى وبعتها لمولاها هذا الذى يغالى بها السوم حتى يبلغ أقصى ربح يستطيعه ..

ولما يئس الشاعر من الحصول عليها قال معرضا بى

لا جزى الله الموصلى أبا اسحاق

عنا خيرا ولا احسانا

جاءنا مرسلا بوحي من الشـيطان
اغـــلى به علينــــــا القيـــانا
من غناء كانه ســـــكرات الحب
يصـــــبى القلـــــوب والاذانا

وسمع هارون الرشيد عن جارية مغنية عندى ، فطلبها واشـــتراها منى بستة وثلاثين ألف دينار ، فاقامت عنده ليلة واحدة ، ثم أرسل الى حاجبه الفضل بن الربيع يقول له : اننا اشترينا هذه الجارية من ابراهيم ونحن نحسب انها من « بابتنا » وتصلح لنا فيما يصح به مزاجنا ، وليست كما ظننتها ، وما قربتها ، وان كنت سمعت بعض غنائها • وقد ثقل علينـــا ثمنها ، فاذهب الى ابراهيم فقل له أن يحطنا من ثمنها ستة آلاف دينار •• فجاءنى ابن الربيع فى منزلى وأخبرنى بما قاله الرشيد ، فقلت له : أراد أن يبلو قدرك عندى ، فقال ابن الربيع : ذاك أراد ! •• فقلت : قد حططتــك اثنى عشر الف دينار !

فرجع الفضل بن الربيع الى الرشيد بالخبر فقال له الرشيد : ويلك ! •• أدفع الى هذا الرجل ماله ، فما رأيت سوقة قط أنبل منه نفسا ! ••

وكان ولدى اسحاق قد علم بما حططته من المـال ، فاستكثره وقال لى : ما كان لحطيطة هــــذا المال معنى ! •• فقلت له : أنت أحمــق ، فوالله لو أخذت ثمن الجارية ولم أحطط منه شيئا لما أعطانيه الرشيد الا وهو كاره، ثم يحقد على وأكون عنده صغير القدر ، ولكنى مننت عليه ــ وهو الخليفـة العظيم ــ ومننت على حاجبه أيضا ، فانبسطت نفسه وعظم قدرى عنده ، ثم دفع الى المال كله لا ينقص دينارا واحدا ، وانما اشتريت هذه الجارية من سوق الرقيق بأربعين ألف درهم تساوى ثلاثة الاف دينار أو أقل ، فربحت فيها هذا الربح العظيم ! •

ثم قلت لولدى :

ــ كيف رأيت يا اسحاق ؟! •• من البصير •• أنا أم أنت ؟! ••

قال :

ــ بل أنت •• جعلنى الله فداءك ! •• وقد تعلمت منك درسا يفيـــدنى مدى عمرى ! ••

## ● اليوم الثالث :

يمتلىء منزلى الآن بالجوارى المغنيات اللاتى أودعهن أصحابهن عنـدى ، وهم جميعا من المطربين والملحنين اصدقائى الذين يسافرون الى الامصــــار للارتزاق ثم يعودون ••

هؤلاء الاصدقاء يسافرون الى أقصى البلدان آمنين على جواريهم فى بيتى، ولا يأمنون عليهن فى بيت احد سواى من أهل صـــــــناعتنا •• حتى بلغ

ما اجتمع منهن عندى الآن ثمانين جارية مغنية ، كلهن ودائع لاصدقاء أعزاء يأكلن ويشربن ويكتسين من مالى ، وأرى أن ذلك واجب لابد لى من أدائه لاصدقائى الذين استودعونى جواريهم وهن رأس مالهم ، أو جزء كبير من رأس مالهم ! ..

وكل جارية حين ترد الى مولاها ، لابد لى من كسوتها واعطائها بعض المال ، حتى تعود اليه وهى فى أحسن حال ، فضلا عما تكتسبه من زيادة العلم بصناعة الغناء ..

وهذا ما جعل الرشيد يقول مرة فى مجلس الغناء أمام جميع الحاضرين : ما أعرف احدا أكثر أصدقاء من ابراهيم ! ..

وهو يصفنى بأننى اكثر السوقة نبلا ، وانما يقصد بالسوقة عامة الناس ممن ليسوا من أولاد الخلفاء ولا من بنى هاشم ولا من طبقة الحكام ! ..

## ● اليوم الرابع :

اصبحت السماء متغيمة ، تطش طشا خفيفا ، فنشطت للصبوح ، والغناء .. واذا بتلميذى « مخارق » صاحب الصوت الذهبى يدخل منزلى فيسلم ويجلس وهو يترنم ببعض النغمات ..

فقلت له :

ـ يا مخارق .. ان صناعة الغناء ما عادت تفى بمعيشتى ! .

فدهش مخارق وقال :

ـ وكيف ذلك يا أستاذ وأنت أقرب أهل الصناعة الى الخليفة وعظماء الدولة ، ولك من عطائهم نهر يجرى بلا انقطاع ! .. ولك من بيع الجوارى المغنيات نهر اخر يجرى بالزيادة لا بالنقصان ، وقد سمعتك مرة تقول ان ما دخل خزائنك من بيعهن بلغ عشرين ألف ألف درهم .. فمن الذى يملك هذا المال كله ويشتكى ضائقة العيش أيها الاستاذ ؟! ..

قلت له :

ـ اسمع ويحك ، أنت حدث غر لا تدرى من هذه الدنيا شيئا .. أقعد ويحك ! فقد أتانى خبر ضيعة تجاورنى فتمنيت أن أملكها ، ولكن ثمنها مائة الف درهم ! ..

قال مخارق ..

ـ وما تكون مائة ألف درهم ، وفى خزائنك اضعاف اضعافها والحمد لله ؟!

قلت :

ـ صدقت .. ولكن نفسى لا تطيب بدفع هذا المال ، فاجلس وخذ عنى هذا اللحن :

نام الخليون من هم ومن سقم
وبت من كثرة الاحزان لم انم
يا طالب الجود والمعروف مجتهدا
اعمد ليحيى حليف الجود والكرم

فلما أخذ مخارق هذا اللحن منى وأحكمه ، قلت له : امض الساعة الى باب يحيى بن خالد البرمكى الوزير ، فاستأذن عليه ، وحدثه بخبر الضيعة وأعلمه انى صنعت هذا اللحن ولم أر أحدا يستحقه الا « فلانة » جاريته ، فانه سيدعوها حتى تطرح عليها الصوت وتحفظه ..

ففعل مخارق ذلك ، فأمر له الوزير بعشرة الاف درهم ، وأمر الخدم بأن يحملوا الى دارى مائة ألف درهم ثمن الضيعة ! ..

● **اليوم الخامس :**

جاء مخارق وقال : ما أراك الا سارعت فاشتريت الضيعة ! .. قلت : لا والله .. فما كدت أرى المال محمولا على رءوس الخدم حتى شححت به فصار مثل أموالى التى حوتها خزائنى ! .. فاجلس حتى ألقى عليك صوتا يفوق ذلك الصوت :

ويفرح بالمولود من آل برمك
بغاة الندى والسيف والرمح ذو النصل
وتنبسط الآمال فيه لفضله
ولا سيما ان كان من ولد الفضل

فسمع منى مخارق ما لم يسمع مثله قط من روائع الالحان ، فلما أحكم حفظه أمرته أن يذهب الى الفضل بن يحيى البرمكى ويعلمه بخبر الضيعة وما وصلنى أمس من مال أبيه .. فلما سمع الفضل القصة قال ضاحكا : أخزى الله ابراهيم فما ابخله على نفسه مع كرمه على الناس ! .. ثم دعا جارية فأخذت منه اللحن ، وقال له : أحسن والله أستاذك الموصلى التلحين وأحسنت أنت الغناء ، ثم أمر لمخارق بعشرين ألف درهم ، وأمر لى بمائتى ألف درهم ، لم أكد أراها حتى شححت بها على الضيعة ، فلما جاءنى مخارق قال لى : والله ما أظن أحدا نال فى هذه الدولة ما نلته يا أبا اسحاق ، فلماذا تبخل على نفسك بشىء تمنيته دهرا وقد ملكك الله أضعاف ثمنه ؟!

ثم اننى ألقيت على مخارق لحنا ثالثا فذهب فغناه جعفر بن يحيى وقص عليه قصة الضيعة فأمر لمخارق بثلاثين ألف درهم ، وأمر لى بثلاثمائة ألف درهم !.

وجاء مخارق فقال لى : ما خبر الضيعة ؟! .. فان عندك الان من يحيى البرمكى وولديه ستمائة ألف درهم ، ستة أمثال ثمن الضيعة ! ..

فقلت له : هذا صك الضيعة ! .. لم أشترها من هذه الستمائة ألف درهم ، بل اشتراها لى الوزير يحيى بن خالد البرمكى من ماله وكتب الى

قائلا : « قد علمت يا أبا اسحاق ان نفسك لا تسخو بشراء الضيعة من مال يحصـــل لك ولو حيزت لك الدنيا كلها ، وقد ابتعتها من مالي ووجهت لك بصكها » ! ..

فنظر مخارق في وجهي مبهوتا متحيرا ، فانفجرت باكيا أحر بكاء ، وظللت أبكي حتى اشتفيت ، ومخارق يبكي معي ! ..

ثم قلت له : يا مخارق اذا عاشرت فعاشر مثل هؤلاء ، واذا غنيت فلمثل هؤلاء ! .. هذه ستمائة ألف درهم ، وضيعة بمائة ألف ، ولك أنت ستون ألفا .. حصلنا ذلك اجمع وأنا جالس في مجلسي لم أبرح منه ، فمتى يدرك زماننا أحدا مثل هؤلاء ؟! ..



# الليالى الأربع

## ● اليوم الاول :

ضج الخدم واستيقظت الجوارى فى بيتى فوثبت مذعورا أصيح فيهم : ما أيقظكم فى هذه الساعة المتأخرة من الليل وقد نام الناس وليس فى بغداد كلها يقظان غيركم ؟! •

دنا خادم منى وقال بصوت يرجف رعبا :

ـ هذا أمير المؤمنين هارون الرشيد يقف على باب دارك وحوله ما لا يحصيهم الا الله من الخدم والاتباع ! ••

ارتديت ملابسى كلمح البرق •• جريت والخدم تفتح الابواب •• تضاربت فى نفسى الظنون ! •• فما الذى يحمل الخليفة العظيم على زيارتى ، وأنا خادمه وصنيعته ، ولو بعث فى طلبى ، لكنت عند قدميه فى أية ساعة من ليل أو نهار ؟! ••

أسرعت الى الباب وبى مثل الجنون من الخوف والزهو والفرح وسوء الظنون ، فتلقيت أمير المؤمنين فأهويت على حافر حماره فأشبعت حافر الحمار تقبيلا ، ثم رفعت رأسى أقول :

ـ يا أمير المؤمنين ، أفى مثل هذه الساعة تظهر ؟! •

قال :

ـ نعم •• شوق طرق لك بى ! ••

ثم نزل فدخل وجلس فى طرف من الايوان وأجلسنى الى جواره ، فقلت له :

ـ سيدى أتنشط لشىء تأكله ؟!

فأصاب من الطعام شيئا يسيرا ، ثم دعا بشراب كان خدمه يحملونه ••

فلما فرغ قلت :

ـ سيدى ، أؤغنيك ، أم تغنيك اماؤك ؟!

قال :

ـ بل الجوارى ••

فاخرجت اليه كل جارية مغنية فى بيتى ، فاخذن مجلسا قبالته وفى أيديهن عيدانهن ••

فقلت :

– يا سيدى .. أيضربن كلهن ، أم واحدة واحدة ؟!

قال :

– تضرب اثنتان ، اثنتان .. وتغنى واحدة فواحدة .

فضربت الجوارى وغنين ، والرشيد يسمع ولا ينشط لضرب ولا غناء ، فانه سمع فحول المغنين جميعا ، وصار له بالغناء بصر وذوق ودقة فهم لم أجد مثلها فى أحد ، الا فى الوزير جعفر البرمكى ..

فلهذا عجزت الجوارى عن اطرابه ، على أن فيهن بعض المجيدات لكنهن أقل مما يطلبه فى الغناء اجادة وحذقا ..

فخشيت أن يخرج من بيتى متكدرا ، حتى غنت جارية صغيرة كانت آخر من غنى :

يا مورى الزند قد اعيت قوادحه
اقبس اذا شئت من قلبى بمقباس
ما اقبح الناس فى عينى واسمجهم
اذا نظرت فلم أبصرك فى الناس

فطرب الرشيد لغنائها ، واستعاد اللحن مرارا ، وشرب عليه ، ثم سأل الجارية :

– من صاحب هذا اللحن ؟!

فرجوت أن تكذب الجارية فى الاجابة لان الصدق فى هذا المقام قد يغضبه ، الا انها أمسكت عن الكلام ، ونضح جسمى عرقا وعلمت أن الرشيد لا يخرج من بيتى حتى يعرف اسم صاحب اللحن ، وهو ما أخشى أن يعرفه!

فاستدناها فتقاعست ولم تقترب منه خوفا ، فامر فاقيمت حتى وقفت بين يديه فأخبرته بشىء أسرته اليه ! .

انتفض الرشيد واقفا ، ولم ينظر ناحيتى ، وخرج من بيتى ، فدعا بحماره فركبه ، ثم التفت فقال لى :

– يا ابراهيم .. ما ضرك الا تكون خليفة ! ..

ثم انصرف وحوله الخدم والحشم يضيئون الظلام بمشاعلهم ويوقظون ليل بغداد ! ..

كدت أموت خوفا وجزعا ، فان الجارية أخبرته ان اللحن من صنعة أخته الاميرة عليه بنت المهدى .. وكانت علية قد وجهت الى بهذه الجارية لاطارحها بعض الحانى لتحفظها وتحكمها وتؤديها اليها ..

فهذا ما أسخط الرشيد ، لانه شديد الغيرة على حرمه ، وانه ليسمع غناء أخته علية ولكنه يغار عليها ، ويتقصى أخبارها ، ويضيق عليها فى شراء الجوارى والغلمان ، وان كان يأذن لاخيها ابراهيم بن المهدى بالغناء مع سائر

المغنين ويهب له الجوائز كما يهبها لهم ..

قبل طلوع الشمس ركضت الى قصر الخلافة فالتقيت بمسرور الفرغانى خادم الرشيد ، فسألته :

ــ أكنت على علم بما انتوى أمير المؤمنين من زيارتى فى تلك الساعة ولم تخبرنى ؟!

قال مسرور :

ــ لا والله ! .. ولكن أمير المؤمنين هب من نومه ليلا ، فدعا بحماره الاسود القريب من الارض فركبه ، وهو يؤثر ركوبه ويرتاح على ظهره ، ولبس دراعة من الوشى وتلثم بعمامة موشاة والتحف بازار من الوشى أيضا ، ونادانى فقلت له : أين يريد أمير المؤمنين فى هذه الساعة من الليل ؟ .. قال : أريد منزل ابراهيم الموصلى ! .. فخرج وأنا بين يديه ومعى أربعمائة خادم أبيض سوى الفراشين ، كما رأيت عندما وصلوا الى دارك ! ..

فقلت لمسرور

ــ أرأيته غاضبا بعد انصرافه ؟!

قال :

ــ ولماذا يغضب ؟! .. لقد نشط لتلك الحركة فى الليل ، وسر بها ، فلما كان الصباح ، استدعى أخته علية . وأمرنى أن أقف على الباب .. ثم لم البث أن سمعت علية تغنى لحنا كانه اللحن الذى غنته جاريتها التى سمعها فى بيتك ؟!

قلت لمسرور

ــ أكنت تعرف يا مسرور ان هذه من جوارى علية أخت أمير المؤمنين ؟!

قال مسرور فى خيلاء :

ــ لو جهلت ذلك لما استحققت ثقة أمير المؤمنين ! ..

## ● اليوم الثانى :

جاءنى اليوم مخارق ، وهو مطرب صغير السن ، مطبوع بديع الصوت .. لم أسمع صوتا يقاربه أو يساويه الا صوت اسماعيل بن جامع ، وصوت ابراهيم بن المهدى ..

هؤلاء الثلاثة أجمل الاصوات فى أيامنا ، وقد أخذ عنى مخارق فنونا كثيرة ، وعرف الصنعة حتى برع ، فصار يحب سماعه .. وكان مخارق قبل ذلك خادما بقصر الخلافة فى غمار الخدم الذين لا يحصيهم الا الله ..

جلس مخارق بين يدى ، فطارحته لحنا فى شعر للاحوص حتى أخذ اللحن وحفظه وأحكمه ، ثم غناه لى ، فسمعت والله أطيب غناء يخرج من حلق هذا الفتى الناشىء ، فجعلت أبكى وأقول له :

ــ يا مخارق .. أنت والله بعدى صاحب اللواء فى هذا الشأن ! ..

## ● اليوم الثالث :

خرجت ركضا من بغداد الى قرية فيها امرأة تصنع أطيب النبيـــذ ، لها بنت من أجمل النساء وجها وقواما وافتنهـم حديثــا ، لا يراها ذو قلب الا استحلاها وتعلق بها .. ولو كانت جارية تباع لاشتريتها بما أملك من المال ولو كانت تقبل التزويج لتزوجتها ..

**قلت لها :**

ـ انك يا خليلى رجل ظالم ، زعمت انك تهوانا ثم هجرتنا ! ..

قلت لها

ـ انى أستجير بك من ظلمك ! ..

ثم عدت من هناك وأنا أردد بيتين نظمتهما

**وزعمت انى ظالم فهجــرتنى**
**ورميت فى قلبى بســهم نافذ**
**ونعم ظلمتك فاغفرى وتجاوزى**
**هذا مقام المستجير العائذ**

ثم عكفت على تلحين ما نظمت ، ولعله يعجب أمير المؤمنين ..

## ● اليوم الرابع :

ضربت اليوم خادما من خدم الخليفة ضربا مبرحا ، ثم ركبت الى الخليفة لاخبره قصته ..

وفى طريقى الى القصر تذكرت كيف أننى منذ شهر بكرت على أمير المؤمنين حتى تصطبح ، فاذا أنا به خاليا وبين يديه جارية حلوة المنظر ، فقال لها : غنى فقد جاء الموصلى ! .. فغنت فى شعر أبى نواس :

**توهمه قلبى فاصــبح خــده**
**وفيه مكان الوهم من نظــرى أثر**
**ومر بفكرى خاطــرا فجــرحته**
**ولم أر جسما قـط يجرحه الفكــر**
**وصـــافحه قلبى فآلم كفــه**
**فمن غمـز قلبى فى أنامله عقــر**

فذهبت الجارية والله بعقلى لحسن غنائها ، حتى كدت أفتضح فقلت : من هذه يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداءك ؟! .

فقال ضاحكا :

ـ هى التى يقول فيها الشاعر :

**لها قلبى الغــداة وقلبها لى**
**فنحن كذاك فى جســدين روح**

ثم غنت مرة أخرى ، فطار عقلي شعاعا ، حتى تنبه الرشيد وأدرك أن قلبي تعلق بالجارية ٠٠ فشرب وسقاني وسقاها ، ثم قال : غن يا ابراهيم فغنيت حسب مافي قلبي غير متحفظ من شيء :

**تشرب قـــلبي حبهـــا ومشى به**
**تمشي حميا الكاس في جسم شارب**
**ودب هواها في عظـــامي فشـــفها**
**كما دب في الملسوع سم العقـارب**

ففطن الرشيد بتعريضي هذا ، وكانت جهالة مني ، فأمـرني بالانصراف ، ولم يدعني الى مجلسه شهرا ، ثم دس الى خادمه هذا الذى ضربته اليوم ٠٠ جاءني هذا الخادم برقعة مكتوب فيها :

**قد تخوفت أن امـوت من الوجـد**
**ولم يـدر من هـــــويت بمـا بي**
**يا كتابي فاقر السـلام على من**
**لا أســـمي وقل له يا كتـــابي**
**ان كفـــا اليـــك قـد بعثتني**
**في شـقاء مواصـــل وعـــذاب**

فلما قرأت الرقعة فطنت لما وراءها وقلت للخادم : ما هـذا ؟! ٠٠ قال : رقعة الجارية فلانة التى غنتك بين يدى أمير المؤمنين ! ٠٠ فوثبت على الخادم وضربته ضربا مبرحا ، ولما ركبت الى الرشيد وأعطيته الرقعة ، ضحك حتى كاد يستلقي ، ثم قال : « على عمد فعلت ذلك بك لامتحن مذهبك وطريقتك » ٠٠ ثم أمر لى الرشيد بجائزة عظيمة ! ٠٠

والله يعلم انى ما فعلت الذى فعلت من ضرب الخادم وتسـليم الرقعة الى الخليفة ، جنوحا الى العفاف ، وزهدا في الجارية الحسناء ، ولكن خوفا من القتل ، فاني لم أكد أقرأ تلك الرقعة حتى عرفت ان الخليفة يمتحنني ! ٠٠

# بائع الأهزاج

**● اليوم الاول :**

كأنني مللت طول البقاء في الدنيا ، على ما اجد من حب الملوك لى : وحب الخاصة والعامة لغنائي والحاني ، وبخاصة أهزاجي ، فكلهم يقـول : ما في الدنيا مثل « حكم الوادى » في تلحين الاهزاج وغنائها •
ولكن الزمان امتد بى •• من عهد الامويين •• الى عهد الرشيد في دولة بنى العباس •• وان ثمانين عاما عشتها وعانيتها ، لطويلة بقيمه •

كان ابى « يحيى بن ميمون » رجلا فارسي الاصل اشتراه الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك واعتقه ، فعمل حلاقا للوليـد يهذب شـعر راسه ولحيته •• فرأيت في طفولتى نعمة الخلفاء ، ولما بلغت الشباب صرت طويل القامة ولكن في احدى عينى حولا فكنت أسمع الناس يقولون : ما أحسن هذا الفتى لولا انه أحول ! •• ولم أكن أظن انى أصير مغنيا في يوم من الايام ، فقد كنت وأنا صغير السن ، أكترى الابل وأنقل عليها الزيت من الشـام الى المدينة المنورة وجدة وغيرهما من مدن الحجاز •

ثم أخذت الغناء من عمر الوادى في وادى القرى بين الشـام والمدينة ، فكنت أقطع هذا الوادى أغنى بالاهزاج ، من أول قـرية في الوادى الى آخـر قرية ، وهو من أوله الى آخره قرى منظومة متتابعه لا تنقطع ، فعـرفنى الناس هناك ، وسميت « حكم الوادى » ! •• ثم صارت كنيتى « أبا يحيى »!

ولست أكتب الآن يوميات ، ولكنى أكتب ذكريات في يوميات ، فقد انقضى العمر الا ذبالة الشمعة التى أوشكت أن تذوب ثم يبلغ الكتاب أجله ، وأمضى في الذاهبين ! ••

عمرت طويلا جدا •• حسبك أن تعلم اننى عشت من زمن بنى عبد الملك في دولة بنى أمية ، حتى غنيت هارون الرشيد خامس خلفاء بنى عبـاس ، فرأيت الدهر يتقلب تحت عينى ، والدنيا تتغير من حال الى حال والناس من باطلها في غرور ! ••

كان أكبر أساتذتى في شبابى عمر الوادى ، ولكنى رأيت أيضا وسمعت جماعة من حذاق المغنين ، منهم عمر بن زاذان الذى كان الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك يشير اليه حين يغنى في حضرته ويقول : « هـذا جامع لذتى » •• لان هذا المغنى كان يجمع في غنائه لذات الطرب كلها ، فاستحق ان يصفه الوليد ويجزل له المكافأة ••


وما مر يوم أرتجي فيه راحة
فأذكره إلا بكيت على نفسي

سمعت في وادى القرى مغنين اخرين وكل هؤلاء كان يصنع الالحان ويغنى فيحسن فيما يصنع ويغنى ! •

أول غناء استحققت عليه جائزة كان في زمن الوليد بن يزيد « الخليع » الذى مات قتيلا متهماً بالفجور والخلاعة •

ادخلني عمر الوادى على هذا الخليفة الاموى ، وهو يهم بالخروج من قصره وقد ركب حمارا وعليه جبة وشي ، ورداء وشي ، وفي رجليه خف وشي ، وفي يده عقد جوهر ، وفي كمه شيء لا أدرى ما هو •• فقال الوليد لمن حف به من المغنين ، وكلهم كبار بارعون :

ـ من غناني ما أشتهى فله مافي كمي وما على جسدى وما تحتى •

فغنوه كلهم ، وهو على ظهر حماره يسمع ولا يطرب ، فلما أوشك أن يمضى بحماره ، التفت فقال لى :

ـ أتغنى يا غلام ؟!

قلت :

ـ نعم يا أمير المؤمنين ! ••

قال :

ـ غن يا غلام اذن ، فما يسرنى أن امضى حتى أعرف كيف غناؤك ! ••

فاقتربت منه فغنيت :

**اكليلها ايوان**<br>**وجهها فتان**<br>**وخالها فريد**<br>**ليس له جيران**<br>**اذا مشت تثنت**<br>**كانها ثعبان**

فرأيت الوليد يصغى ويضع راحتيه قرب اذنيه ليكون ذلك أجمع للصوت فيهما •• ورأيت وجهه يضيء بالطرب والنشوة ، وكان الوليد بن يزيد طروبا يحب الغناء ، ويغنى أيضا ويضرب بالدف ، ويجمع حوله المغنين والمغنيات!

فلما فرغت من الغناء أخرج ما كان في كمه ، واذا كيس فيه الف دينار ، فرمى به في حجرى مع عقد الجوهر •• ثم دخل فناء داره فنزل عن حماره وبعث به الى وجميع ما كان عليه ! ••

## ● اليوم الثاني :

لاقيت رجلا من ظرفاء قريش ، فقال لى : يا حكم اننى قلت في غنائك شعرا امدحه وأمدحك •• قلت : جزاك الله من سيد كريم ، فماذا قلت ؟ •• فانشدنى :

أبو يحيى اخو الغــزل المغني
بصير بالثقــال وبالخفــاف

على العيــدان يحســـن ما يغني
ويحسن ما يقـول على الدفاف

فاخذت هذا الشعر فصنعت فيه هزجا وغنيته للناس ، فسمعني شيخ فقال لى : أحسنت .. فألقيت الدف من يدى على الارض وقلت له : اتسمعنى فلا تقول لى الا أحسنت ؟! والله لو كنت تحسن فهم الغناء لنطحت هذا الحائط برأسك طربا ! ..

فضحك الشيخ ، وضحك الناس وضحكت أنا ! .

● **اليوم الثالث :**

عشت فى دولة بنى أمية ما عشت فلم أكسب من الغناء الا ما يشــترى قوتي وقوت عيالى ، ويكسونى ويكسوهم ! .. ولم يعطنى أحد من خلفائهم شيئا قيما الا ما اعطانيه الوليد بن يزيد مرة ، ثم لم القه بعـــدها .. ولو عاش لاعطانى جوائز كثيرة ! ..

فلما خرج الامر من أيدى الامويين ، انقطعت الى سيد من أمراء بنى العباس اعجبته اهزاجي ، فكان لايطلب منى ان اغنى غيرها ، ويجزل لى العطاء حتى صرت الى حالة جميلة . وسعدت بانقطاعى الى هذا الامير الكريم ، وكان ذلك فى عهد أمير المؤمنين ابى جعفر المنصور رحمه الله ..

وذات يوم فوجئت بأكبر ابنائى يقول لى غاضبا :

ـ يا أبت .. أبعد هذه السن ، وبعد أن صرت كبيرا ، تترك الغناء الجيد المتقن الثقيل ، وتغنى هذه الاهزاج الخفيفة ، وهى غناء المخنثين ؟! ..

فصرخت فيه :

ـ اسكت أيها الغلام فانك جاهل ! .. غنيت الثقيل ستين سنة ، فلم أنل الا القوت وغنيت الاهزاج منذ سنوات قليلة ، فاكسبتك واخوتك ما لم تروا مثله قط فى سالف أيامكم وأيامى ! ..

وسكت الغلام على مضض ، فانه لا يرى الاهزاج فنا رفيعا ولا صنعة عالية فى الغناء ، ويريد روائع الاغانى الثقيلة التى لا أجد لها ســـوقا عند الامير العباسى الذى غمرني بكرمه ! ..

● **اليوم الرابع :**

بلغنى أن أمير المؤمنين المنصور أبدى دهشة كبيرة لما يصلنى به المعجبــون بى من الجوائز وانه قال : أيصنع هذا شيئا الا تحسين الشعر بصوته وتطريب مستمعيه ، فماذا يكون ، ولاى شيء يعطونه أموالهم ؟ ..

كان يرى ذلك اسرافا منهم ، حتى علم ذات يوم ان قائدا من كبار قـــواده

هو علي بن يقطين قد أجزل صلتي وكساني ثيابا وحملني على بغلة فارهة ..

فحين علم المنصور هذا الخبر ، حرك راسه مليا ، ثم قال ، الان علمت ان هذا يستحق ما يعطاه ، لان ابن يقطين لا يعطى شيئا من ماله باطلا ، ولا يضعه الا فى حقه ! .

● **اليوم الخامس :**

علمت ان الخليفة المهدى قد عزم على المضى الى بيت المقدس فلما خرج موكبه ، عارضته فى الطريق ، وأخرجت دفى ونقرت فيه ، وقلت : أنا والله يا أمير المؤمنين القائل :

**ومتى تخرج العروس**
**فقد طال حبسها**

فسارع الحراس يمنعون وصولى اليه ، فقال لهم : دعوه ! .. واستمع لى وأمر لى بجائزة ..

على ان أعجب من هذا ، وقع لى فى عهد ابنه الخليفة موسى الهادى .. فقد حضرت مجلسه مع ابن جامع وابراهيم الموصلى وغيرهما ، فأخرج ثلاث بدر تحوى ثلاثين الف درهم وقال لنا : من أطربنى فهى له ! ..

فغناه ابن جامع والموصلى وغيرهما فلم يصنعوا شيئا ، وعرفت ما أراد وكان يحب من الغناء ما توسط ، فلا يكون خفيفا ولا يكون كثير الترجيع، فغنيته لحن ابن سريج :

**هراء كالليلة المباركة القمراء**
**تهدى اوائل الظلم**
**اكنى بغير اسمها وقد علم الله**
**خفيات كل مكتتم**

فوثب الهادى من فراشه طربا وقال :

ـ أحسنت ! .. أحسنت والله ! ..

ثم قال وهو ينتفض طربا :

ـ اسقونى ! .. اسقونى ! .

فلما هدأ ، قال له ابن جامع :

ـ أحسن حكم الوادى والله يا أمير المؤمنين وانه لمحسن مجمل ! ..

فسررت أن يقرظنى ابن جامع فى حضرة الخليفة ، وحمدت منه ذلك ، وقلت له : لا عجب أيها القرشى أن تكون كريما عادلا ، فالشىء من معدنه لا يستغرب .. وعرضت عليه أن يأخذ نصف الجائزة فأبى .. فقلت له : مثلك يفعل ما فعلت فانك قرشى نسيب فان أردت تشرفنى بقبول هذا المال فعلت ! فقال لا والله .. لافعلت ! .. وبارك الله لك فيه ! ..

اما الموصلى ، فحين راى الفراشين يخرجون بالمال الى بيتى أسرع يقول لى : هل تعطينى يا حكم من هذا ؟! .. فقلت : لا والله ، ولا درهما واحدا ، لانك لم تحسن ان تقول كلمة حق فيما سمعت منى فى مجلس أمير المؤمنين ! ..

## ● اليوم السادس :

غنيت أمير المؤمنين هارون الرشيد الوانا من الغناء ، أمزاجا وغيرها فطرب ، وسر بى سرورا زائدا ، ولم يسمع فى ذلك المجلس أحدا غيرى من المغنين ، ثم أمر لى بثلاثمائة ألف درهم ، وكتب لى بها الى صديقى الامير ابراهيم بن المهدى ، وكان أميرا على الشام ..

فلما قدمت عليه بكتاب الرشيد اسرع فأعطانى ما أمر لى أمير المؤمنين ، وزادنى ثلاثمائة ألف درهم أخرى ، ناقصة ألف درهم وقال لى ، لا أصلك بمثل صلة أمير المؤمنين فأخذت منه ستمائة الف درهم الا ألف درهم واقمت عنده ثلاثين يوما ، طارحته فيها ثلاثمائة صوت من أصوات القدماء ومن أصواتى !..

## ● اليوم السابع :

أصابتنى قرحة فى صدرى .. عجز الطبيب عن مداواتى وأظن هذا هو موعدى مع الذاهبين من أهلى واخوانى ، وانى اليهم لفى شوق .. وقد حان يوم الرحيل ! ..

عادنى صديقى الشاعر الدارمى ، وسألنى عن أمرى ودمعت عيناه ، ودعا لى بالشفاء ، ثم قال : يا أبا يحيى .. انى عملت بيتين من الشعر دعاء لله أن يشفيك ، افتأذن أن أنشدهما ، فلما أومأت بالاذن ، قال :

**ان أبا يحيى اشتكى علة**
**أصبح منها بين عواد**
**فقلت والقلب به موجع**
**يارب عاف حكم الوادى**

وكيف لى بالعافية وأنا التقط أنفاسى التقاطا ، وقد نهش الداء صدرى ، وضاقت الدنيا فى عينى كسم الخياط : ولم يبق لى الا نفثة مصدور استوفى مدته فى الدنيا ؟! ..

# معابثة ابن المهدى

**● اليوم الاول :**

يزعم بعض المغنين انى أقسو فى نقدى لالحان ابراهيم بن المهدى ، مع اعترافى بجمال صوته ، ويقولون لى : أليس له فى جمال صوته شافع لديك يدارى تقصيره فى التلحين ؟! ٠٠ فأقول لهم : ان هذا الرجل يجترىء على رؤساء المغنين القدماء الذين نشأ الغناء على أوتار حناجرهم وعيدانهم ، وأحكمته تجاربهم ، وتم أمره على أيديهم ٠٠ وعنهم رويناه وعرفنا كيف هو ٠

وان هذا الرجل لا يفتأ يدعى انه « يجندر » غناءهم فيصلحه بجندرته هذه ويزيده رونقا وحلاوة ٠٠ ولعمرى ما صدق ، فانه يفسد ولا يصلح ويهدم ولايبنى ، ويجاوز ما لا يستطيع اداءه من غنائهم الى قليل منه يستطيعه .. وما هو فى هذه الصناعة بأعلم من أهلها ، ولا يبلغ منهم قلامة ظفر وليس له حق اللعب فى عملهم المتقن البديع ، وقد نصحته وأريته خطاه فأخذته العزة بالاثم ٠ وصعر خده لى ، كأنما صار له علينا حق السمع والطاعة فى الغناء والتلحين ، بما ولدته أمه من الخليفة المهدى ، وكأنه والله يحدث نفسه بأنه « خليفة » على دست الغناء والالحان لا يقل شأنا عن أخيه هارون الرشيد خليفة الدنيا والدين ! ٠

وان ابراهيم بن المهدى لعربى النسب ، قرشى هاشمى من جهة أبيه ، ولكن اخواله ابتاعهم الناس من أسواق الرقيق ، ومعهم أختهم والدة ابراهيم هذا المزهو علينا بحسبه ونسبه ٠٠ وليس فى بغداد كلها من لا يعرف خاله الذى يعمل بيطارا ، وفى شفته العليا شق أحدثه به قديما نخاسه الذى باعه فى سوق الرقيق ، علامة يعرفه بها الناس جميعا ، فان هرب ردوه بها الى سادته ! ٠٠

– على انه والله – على قلة علمه بالصناعة – أكثر المغنين الذين نسمعهم الآن علما ، وأشعرهم وأبلغهم مقالا فى كل مقام ٠٠ غير أن فصاحته تعينه على السباب والشتم ، فيكون سليط اللسان جارح الكلام حين يغضب ، وحين يشرب ! ٠٠

دسست اليه صاحبا لى يعابثه ويغيظه ، وقلت لصاحبى : انطلق الى ابراهيم بن المهدى ، فأشرب معه أقداحا ، ثم قل له : يا سيدى ٠٠ اخبرنى عن قولك « ذهبت من الدنيا وقد ذهبت منى » ٠٠ أى شىء كان معنى لحنك الذى صنعته فيه ؟ ٠٠ وانت تعلم ياسيدى انه لايجوز فى غنائك الذى صنعته

فى هذا الكلام الا أن تقول « ذهبتـــو » بالواو ٠٠ فان قلت : « ذهبت » بضم التاء ، ولم تمدها انقطع اللحن وانكسر ، وان مددت ضمة التاء فجعلتها كالواو ، فسد الكلام وصار قبيحا ككلام النبط والعجم والروم ! ٠٠

فاتى صاحبي دار ابراهيم فحدثه كما حفظ عني حرفا ٠٠ حرفا ٠٠ فتغير لونه وبان عليه الانكسار ، ثم قال لصاحبي : ليس هذا والله من كلامك ٠٠ انما هو من كلام الجرمقاني اللئيم ! ٠٠ قل له عني : أنتم تصـــنعون هذا للصناعة ، ونحن نصنعه للهو واللعب والعبث ! ٠٠

فلما حدثني صاحبي بما أسمعه ابراهيم عنى ، قلت له : الجرمقاني والله منا ، أشبهنا بالجرامقة لغة ، وهو الذى يقول : « ذهبتـــو » ولو انه من قريش ! ٠٠ لقد كان الجرامقة قوما من العجم نزلوا بالموصل ، وصحب أبي بعضهم زمنا ولم يكن منهم ، ومضى على اختلاطهم بالعرب منذ فتح المسـلمون بلاد العجم حتى يومنا هذا دهر طويل ، اعتـــدلت فيه الســـنتهم ، فليس لابراهيم بن المهدي ان يفخر بفصاحته على جرمقي هو أفصح منه لسانا ! ٠٠

● **اليوم الثاني :**

سمعت فى بيت أحد الكبراء جارية تغنى لحنا لى صنعته فى شعر لكعب بن زهير ٠٠ فســـألتها : من أين لك هذا اللحن ؟ ٠ قالت : طـرحه الامير ابراهيم بن المهدى أعزه الله تعالى ! ٠٠

فقلت لصاحب الدار : وما لابراهيم بن المهدى أعزه الله ولهذا الصوت ؟!

فسألنى الرجل متعجبا :

ـ أليس الصوت من صنعته ؟!

قلت :

ـ هذا الصوت أنا صنعته ، وليس كما طرحه ، فان فيه كما ســمعته من الجارية أخطاء كثيرة ٠٠

وغنيت الصوت للرجل وجاريته ، فكتب لساعته الى ابراهيم بن المهدى : « ان أبا محمد الموصلى أعزه الله صار الينا فأحتبسناه حتى غنى لنا الصوت الذى القيته ـ أعـــزك الله ـ على جاريتنـــا ، وزعم انه من صـــنعته ، وانه ليس على الوجه الذى غنته الجارية ، فاحببت أن أعلم ما عندك ، جعلنى الله فداك » ! ٠٠

وأنفذ الرجل رقعته الى ابراهيم ، فجاء جوابه سريعا يقـول : نعم جعلت فداك ، صدق أبو محمد أعزه الله ٠٠ الصوت له ، وهو ما ذكره ، لكنى لعبت فى وسطه لعبا أعجبنى ٠

فلما قرأت هذه الرقعة كتبت اليه وقد ملكنى الحنق :

« اذا أردت يا هذا أن تلعب فالعب فى غناء نفسك لا فى غنـــاء الناس ، واصنع انت ان كنت تحسن ان تصنع ، والعب فى صنعتك كما تشتهى ، غير

مشارك فى جد الناس بلعبك ، ومفسد له بما لا تعلمه ٠٠ وهذا الصوت ليس يتهيأ لك أن تمخرق فيه وتقول : جندرته ! ٠٠ كما اعتدت أن تقول كلما لعبت بصناعة القدماء » ! ٠٠

فلما أنفذت الرقعة اليه أحسست اننى اشتفيت منه ، وانتصفت للحق ، وتذكرت رؤساء صناعة الغناء فى عهد بنى أمية كابن سريج وابن محرز ومعبد ومالك وابن عائشة ، وقلت لنفسى : مافى الدنيا أحمق ولا أجهل ممن يزعم ان هؤلاء الفحول لم يكونوا يحسنون تمام الصنعة ، ولا استيفاء الغناء ، وانهم عجزوا عما به يكمل ويتم ويحسن ، وانه أقدر على الصنعة منهم ، وانه قد كانت بقيت عليهم أشياء لم يهتدوا لها ولم يحسنوها فتنبه عليها هو فتممها وحلاها بجندرته ! ٠٠

## ● اليوم الثالث :

فى السهرة ٠٠ قال لى أمير المؤمنين الرشيد : يا اسحاق تغن :

شربت مدامة وسقيت اخرى
وراح المنتشون وما انتشيت

فغنيته ، فقال لى ابراهيم بن المهدى : ما أصبت يا اسحاق ولا أحسنت ٠٠ فقلت له : ليس هذا مما تحسنه ولا تعرفه ، وان شئت فغنه ، فان لم أجدك انك تخطىء فيه منذ ابتدائك الى انتهائك ، فدمى حلال ! ٠

ثم اقبلت على الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه صناعتى وصناعة أبى فاذا نازعناها أحد بلا علم ، لم نجد بدا من الايضاح والمدافعة ، فقال الرشيد : لا غرو ٠٠ ولا لوم عليك ، ثم نهض فخرج لشىء أراده ! ٠

فأقبل ابراهيم بن المهدى يقول لى : ويلك يا أسحق ٠٠ أتجترىء وتقول ما قلت يا ابن اللئيمة ! ٠٠ فغضبت وشتمته وذكرت أمه بالسوء ، ثلاث مرات ! ٠٠ ثم قلت له بعد أن شفيت نفسى بشتمه : انا لا أقدر على اجابتك وانت أخو الخليفة وابن الخليفة ، ولكن قولى فى ذمك ينصرف الى خالك المشقوق الشفة العليا ! ٠٠

وخطر لى ان ابراهيم يشكونى للرشيد وانه سيسأل من حضر عما جرى ، فاتقيت عاقبة ذلك ، بأن قلت : انت تظن ان الخلافة تصير اليك فلا تزال تهددنى وتعادينى كما تعادى سائر اولياء أخيك ، حسدا له ولولده على الامر ولكنك تضعف عنه وعنهم ،فتستخف بأوليائهم تشفيا ، وارجو الا يخرج الله الخلافة من يد الرشيد وولده ، وان يقتلك دونها ، فان صارت اليك ـ وبالله العياذ ـ فحرام على العيش يومئذ ٠

فلما عاد الرشيد الى المجلس ، وثب ابراهيم فقال : يا أمير المؤمنين شتمنى وذكر أمى واستخف بى ! ٠٠ فغضب الرشيد وصاح : ما تقول يا اسحاق ويلك ؟! ٠٠ ثم أقبل على خادميه مسرور وحسين فسألهما عن القصة فجعلا يخبرانه ووجهه يتربد حتى انتهيا الى ذكر الخلافة فسرى عنه ورجع اليه لونه ، ثم قال لابراهيم متمهلا : ماله ذنب ٠٠ شتمته فعرفك انه لا يقدر على

جوابك ·· ارجع يا ابراهيم الى موضعك وامسك عن هذا ··

فلما انقضى المجلس استبقاني الرشيد وقال لى : يا اسحاق ! ·· اتراني لم أفهم قولك ومرادك ·· قد والله رميت أمه بأفحش ما ترمى به المحصنات ثلاث مرات ! ··ويلك ! ·· لا تعد الى مثل هذا أبدا ! ·· حدثني عنك ، لو ضربك ابراهيم أو قتلك أكنت أقتص لك منه وهو أخي ·· يا جاهل ؟! ·· فامتلأت من كلام الخليفة رعبا وقلت : يا أمير المؤمنين ، قد والله قتلتني بهذا الكلام ، ولئن بلغه ليقتلني ! ·· فتنبه الرشيد وصاح بمسرور الخادم أن يرد ابراهيم اليه ، وصرفني فاوصيت جماعة من الخدم أن يخبروني بما يجرى ! ··

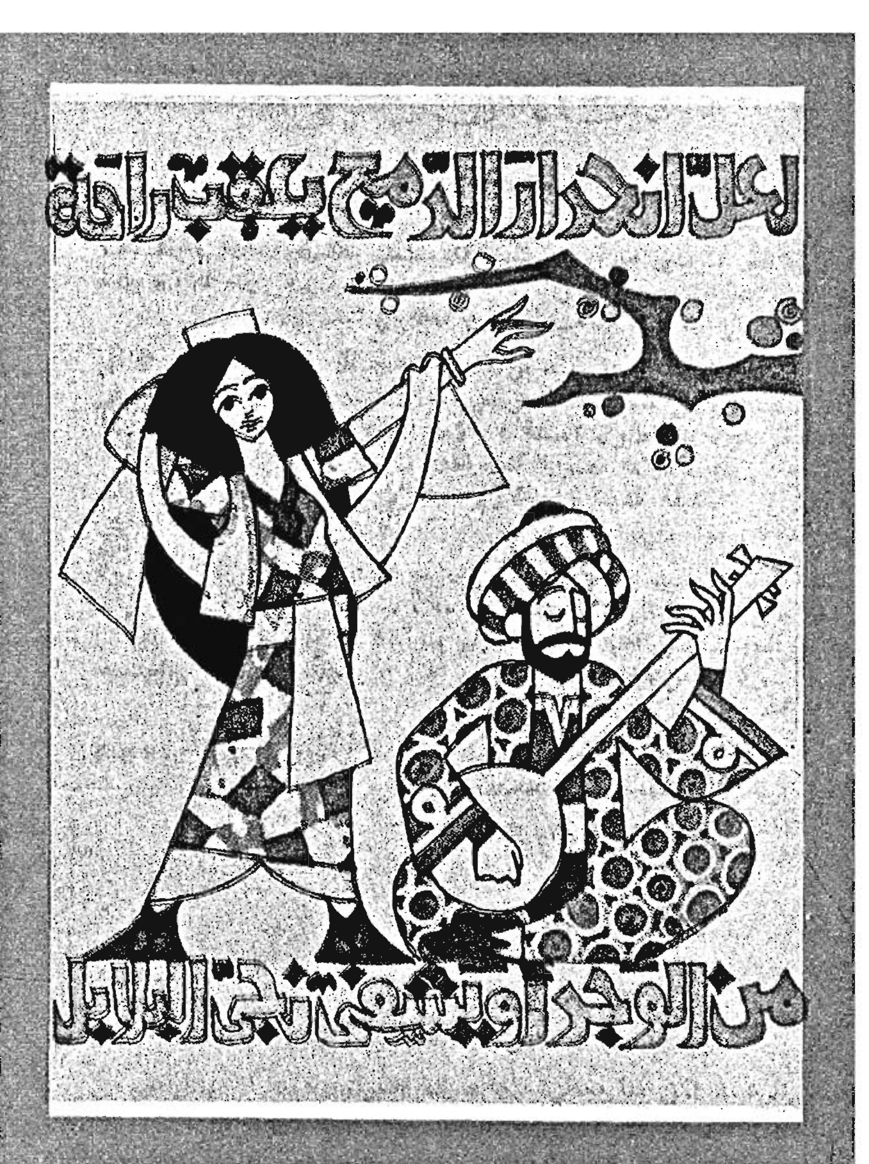
## ● اليوم الرابع :

قال لى مسرور خادم الرشيد : لما أنصرفت أمس واعيد ابراهيم بن المهدي، تجهم له أمير المؤمنين ووبخه ووصفه بالجهل ، وقال له : أتستخف باسحاق الموصلي وهو خادمي وصنيعتي ونديمي وابن نديمي ، وتفعل ذلك بمجلسي وحضرتي ؟! ·· هاه ·· هاه ! ·· وانت مالك وللغناء ، وما يدريك ما هو ·· ومن أخذك به وطارحك اياه حتى تتوهم أنك تبلغ فيه مبلغ اسحاق الذى غذى به رضيعا ، وهو صناعته وصناعة أبيه ، ثم تظن انك تخطئه فيما لا تدريه ، ويدعوك الى اقامة الحجة فلا تثبت لذلك وتعتصم بشتمه ·· أليس هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل وسوء الادب ، من دخولك فيما لا يشبهك وغلبة ذلك على مرءوتك وشرفك ، واظهارك الغناء ولم تحكمه ، وادعائك مالا تعلمه حتى ينسبك الناس الى الجهل المفرط ! ·· ثم قال له : والله العظيم وحق رسوله ، لئن أصابه أحد بسوء ، أو سقط عليه حجر من السماء ، أو سقط من دابته ، أو سقط عليه سقفه ، أو مات فجأة ·· لاقتلنك به ! ·· فلا تعرض له وانت أعلم ! ·

فلما سمعت هذا الكلام كله من مسرور ، اطمأنت نفسي وكنت أخشى أن يغتالني غلمان ابراهيم ! ··

فلما جلست انتظر دوري في الغناء ، أعرضت عن ابراهيم فضحك الرشيد وقال له : اني لاعلم محبتك في اسحاق وميلك اليه والى الاخذ عنه ، وان هذا لا يجيئك من جهته الا بعد ان يرضى ، فأحسن اليه واكرمه واعرف حقه وبره وصله ··

وأصلح الرشيد بيننا ·· الى حين ! ··


لعل انحدار الدمع يعقب راحة
من الوجد او يشفي نجي البلابل

# دمـاء الـزنـادقـة

## ● اليوم الاول :

قال لي امير المؤمنين هارون الرشيد قد سئمت المقام ببغداد والضيف مطبق عليها بحرارته وركود هوائه ، فانا على نية السفر بعد غد الى بلدة « الرافقة » على الفرات ، فتأهب للخروج معنا ان شاء الله .

كنت أتوقع ان يتحرك الرشيد من بغداد للاصطياف في الرافقة والرقة في الشام ، فهكذا يفعل كلما هجم الحر على بغداد .. بل انه ليفعل ذلك في الشتاء وفي غيره من فصول السنة .. وهو يحب الرافقة وقد بني فيهما قصرا ، وبنى رجال دولته قصورا كثيرة حتى اتصل عمرانها بمدينة الرقة ، فهما الان في الحقيقة مدينة واحدة ويراهما الرشيد قد جمعتا أطيب مافي الشام كله من هواء وماء ! .

دخلنا قصر الرشيد هناك بعد سفر سريع انهكني ، وأذن لنا الرشيد بالراحة حتى اليوم التالي ، فانعشتنا الراحة وهبت علينا الانسام من الفرات ومن كل الجهات حتى امتلأنا نشاطا ولم يبق الا أن يدعونا أمير المؤمنين الى مجلسه . وكان معي مخارق وعلويه وابراهيم بن المهدي أخو الرشيد وجماعة آخرون .

في السهرة غنى مخارق لحنا كنت صنعته قديما ، ثم غني علويه من صنعته وأعقبه ابراهيم بن المهدي ، ثم غنيت لحنا لي في هذه الابيات من شعري :

بدير القـائم الاقصى
غـزال شـفني احوى

برى جبي له جسـمي
ومـا يـدري بمـا القى

واخفي حبـه جهـدي
ولا واللـه مـا يخـفى

فامر الرشيد لكل منا بجائزة ، وانصرف المغنون وبقيت أنا وابراهيم بن المهدي في مجلس الرشيد .

ثم دخل بعض رجال الدولة والقضاة وبنى هاشم .. وجيء برجل مغلول اليدين الى عنقه بقيد ثقيل ، وعرفت فيه علي بن الخليل من أصدقاء صالح بن عبد القدوس المشهور بالزندقة ..

تأملت على بن الخليل فرايته نظيف الثياب ، جميل الوجه ، رابط الجاش كأنه لا يدرى أن الزندقة عقوبتها القتل ، فقلت فى نفسى ، ما لهـذا الرجل ذنب الا مصاحبته لصالح بن عبد القدوس الذى تطارده شرطة الزنادقة التى وكل اليها الرشيد استئصالهم من أصولهم ! ٠

قال الرشيد بعد أن نظر قليلا الى على بن الخليل :

ـ من أنت ؟!

قال الرجل ببساطة وخفة ظل :

ـ أنا على بن الخليل من أهل الكوفة ، ويقول صاحب شرطة الزنادقة عنى انى زنديق ! ٠

فلم يتمالك الرشيد نفسه أن ضحك حتى استغرب ، فطمع الرجل فيه وقال :

ـ أيأذن لى أمير المؤمنين فى انشاد أبيات فيه ؟!

فلما اذن له الرشيد ، اندفع ينشد :

**يا خير من وخدت بارحلـه**
**نجب الركاب بمهمه جلس**
**تطوى السباسب فى ازمتها**
**طى التجـار عمـائم البرس**
**خير البـرية انت كلهـم**
**فى يومك الغـادى وفى امس**
**لله ما هـارون من ملـك**
**بر السريرة طـاهر النفس**
**انى لجات اليك من هـرب**
**قد كان شردنى ومن لبس**
**واخترت كلمك لا اجاوزه**
**حتى اوسد فى ثرى رمسى**
**والله يعلـم فى بقيتـه**
**ما ان أضـعت اقامة الخمس**

فاستحسن الرشيد الشعر ، ورق للشاعر ، واستتابه ، وأمر له بخمسة الاف درهم ٠٠ وأطلقه ! ٠٠

ثم أدخلوا صالح بن عبد القدوس يرسف فى قيوده ، فقال له الرشيد :

ـ قد كتب الينا صـاحب شرطة الزنادقة انك مقيم على زندقتك ، وأنك تفتن الناس ! ٠٠

قال الرجل :

ـ ما كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وانى قد تبت وصححت توبتى ! •

قال الرشيد :

ـ وكيف تتوب ، أو ترجع عما عشت فيه من شبابك الى اليـــوم وانت القائل :

والشـــــيخ لا يترك اخـلاقه
حتى يوارى فى ثرى رمســـه.

فانك انما زعمت ألا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبدا ••

وأمر الرشيد بقتله لساعته ! ••

ولو استنطقنى الرشيد لقلت له : ان هذا الرجل شهد على نفسه بالتوبة ، فلا يستطيع أحد تكذيبه الا أن يشق عن قلبه ، فيميز فيه الصدق من الكذب

ولكن الرشيد منذ مدة يضمر قتل صالح بن عبد القدوس ، كما قتل أبوه المهدى من قبل بشار بن برد فى تهمة الزندقة ايضا ••

● اليوم الثانى :

ظللت غائم النفس منذ مقتل صالح بن عبد القدوس أمس ، فلما أمـرنى الرشيد بالغناء الليلة ، اندفعت أغنى :

الا قاتل الله الحمــــامة غدوة
على الغصــــن ماذا هيجت حين غنت
تغنت بصــــــوت اعجمى فهيجت
من الشـــوق ما كانت ضلوعى اجنت
فلو قطرت عين امرىء من صــبابة
دما قطـــــرت عينى دمـا فالمت
فما سكنت حتى اويت لصوتها
وقلت : ترى هذى الحمــامة جنت
وما وجد اعرابية قـذفت بهــا
صروف النوى من حيث لم تك ظنت
باكثــر منى لوعة ، غــــير اننى
اجمجم احشـــــائى على ما اجنت

فطرب الرشيد غاية الطرب ، وقال لى : كأنك والله تلك الحمـــامة على غصنها ، تنوح وتهيج سامعها ! ••

وأمر لى بجائزة عظيمة •• ثم قال :

ـ لمن هذا الشعر يا اسحاق ، فانى أراه يدخل القلب ، ويهيج المدامع ، ولا يقدر أحد أن يصف جودته وحلاوته ورنينه ، حتى ليوشك أن يســتغنى بنفسه عن الغناء والتلحين ••

قلت :

ـ كأنك رأيت يا أمير المؤمنين أن جهدى فى تلحينه قد ذهب بـاطلا ، اذ التلحين فى أصل كلماته ؟!

ضحك الرشيد وقال :

ـ ما هذا أردت ، فوالله لقد غنيته فزدته حسنا ولا يقدر أحد غـيرك على مثل هذه الصنعة فيه فلمن هذا الشعر ؟!

قلت :

ـ هو لبعض الاعراب يا أمير المؤمنين ! ٠٠ ولا أعرف اسمه ٠٠

قال بعد لحظة فكر :

ـ انه الى شعر الحضريين لاقرب منه الى شـــعر الاعــراب ، وكأنك أنت صاحبه ! ٠٠ ألا ترى أن صاحب هذا الشعر يقول « وما وجد اعرابية قذفت بها ٠٠ » ٠٠ فالاعرابى لا يتحدث هكذا عن الاعرابيات ، وانما هذا رجل من الحضر يضرب المثل بالاعرابيات فى الوجد والحنين ٠٠ ولا تجىء أشـــعار الاعراب فى هذا الباب كذلك ! ٠٠

قلت :

ـ والله يا أمير المؤمنين ، ما يقدر الاصمعى ولا غيره أن يفحص عن حقيقة هذا الشعر ، كقدرتك عليه ، وما زلنا نأخذ من عطائك الجزيل ، ومن أدبك الجليل ، فأطال الله بقاءك ، وجعلنا فداءك وأظلنا بوارف ظلك اخر الدهر ان شاء الله ٠٠

## ● اليوم الثالث :

اذن لى أمير المؤمنين فى العودة الى بغداد أياما ثم أرجع الى الرفقة ، لامور لابد لى من العناية بها فى بغداد ٠٠

التقيت والحسن بن هانىء الشاعر الذى يسميه النـاس أبا نواس ، ولا أدعوه أنا الا بالحسن أو بابن هانىء ٠٠

قال لى :

ـ أما فى شعرى يا اسحاق بيت ولا بيتان ولا أبيات تلحنها وتغنيها فى حضرة أمير المؤمنين ، فترفع قدرى عنده فان أبا العتاهيه وابن أبى حفصـــة وغيرهما قد حازوا مئات الالوف من الدراهم لارتفـــاع قدرهم عنده ، وأرانى لم أفز منه بشىء وقد عجزت حتى عن انشاده قصـــيدة واحدة فى مدحه ، لانى لست ـ مذكورا عنده ، وقد قيل لى : لو غنى اسـحاق الموصـــلى من شعرك لقربك الرشيد الى مجلسه ! ٠٠

قلت له :

ـ انك يا ابن هانىء لا تدرى انى أذكرك بظهر الغيب لكل من ألقاه ،والله

لاغنين الرشيد من شعرك حتى يذكرك ويعرف قدرك ، فاني أرى من دونك من الشعراء قد نفقت سوقهم عنده ، وأنت ما لك عنده الا التجافى والتناسى! .. وكأنك تذكر هذا المعنى فى قولك تمدحه :

وبضاعة الشعراء ان انفقتها
نفقت وان اكسدتها لم تنفق

ثم افترقنا ، وابن هانىء يقول لى :

ـ لا تنسنا من دعائك فى صلاتك يا أبا محمد !

كأنما يريد « أبو نواس » أن يسخر من نسكى وصومى ، وهو الشاعر المتهتك الذى لا يعرف الناس له صلاة ولا صياما ، ولا يرونه الا خارجا من الاديرة أو داخلا فيها ، ثملا ، أو طالبا أن يثمل بما حوت من الصهباء ..

وما أظن أحدا بقادر على أن يدنيه من قلب الخليفة ، ولكن الجهلاء من عامة الناس فى بغداد وغيرها يظنونه من شعراء الخليفة وانه يحضر مجلسه .. وذلك مما تصوره لهم أوهامهم ، فما رأيت أبا نواس فى حضرة الرشيد قط ، وما أظنه كسب دينارا واحدا من شعر له فى مدح الرشيد ، وانما كل كسبه من آل الربيع وبعض الهاشميين والكبراء ، ولم تتصل أسبابه بعد الا بحسين خادم الرشيد ، وقد مدحه أبو نواس ، فكيف يطمع أن يمدح الرشيد بعد أن مدح خادما فى قصره ؟! ..

## ● اليوم الرابع :

جاءنى اليوم فى بيتى محمد الزف المطرب الملحن ، وكان صديقا لابى ـ رحمه الله ـ وطالما نصره على منافسيه من أهل صناعتنا ، وعلى رأسهم اسماعيل بن جامع صاحب الصوت الذهبى الذى كان الرشيد يؤثره ويرفع قدره ويقول : صوته كالعسل ! ..

قلت للزف :

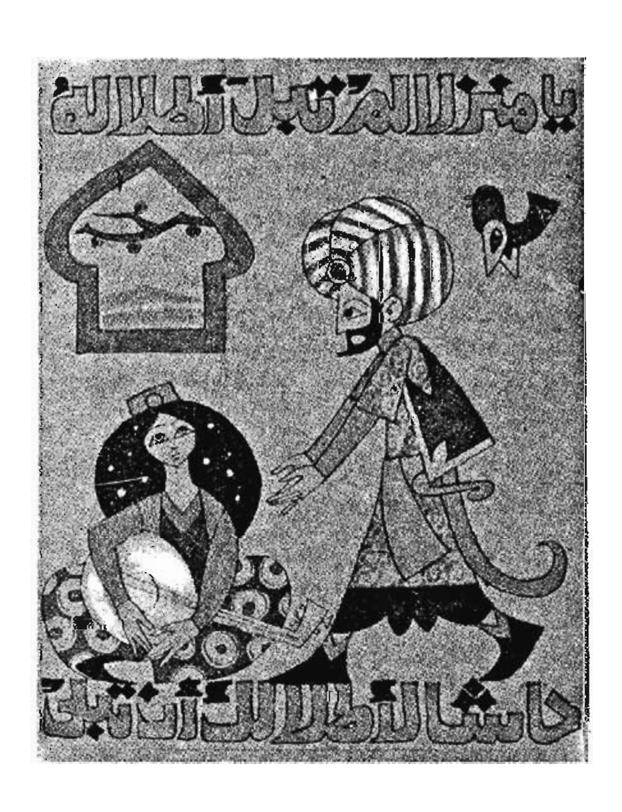
ـ ان لك لحنا أحب أن تسمعنيه .. وهو الذى أوله : « يا زائرينا من الخيام » ..

يا زائرينا من الخيام
حياكما الله بالسلام
يحزننى ان اطعتمانى
ولم تنالا سوى الكلام
بورك هارون من امام
بطاعة الله ذى اعتصام
له الى ذى الجلال قربى
ليست لعدل ولا امام

فما سمعت والله أحسن من غنائه ، وقلت له : لو كنت خليفة لاعطيتك على هذا الصوت مائة الف درهم ٠٠ وأما وأنا اسحاق الموصلى المغنى ، فما لك عندي ولا نصف درهم وقد كافأتك أعظم مكافأة بسماعي اياك ، وطربي لك !٠

قال ضاحكا :

ـ فاني والله قد جمعت من هذا الصوت مائة ألف درهم ، فقد أعطاني الرشيد عشرة الاف ، ثم درت بالصوت على بيوت الهاشميين والبرامكة والكبراء ، فكل من سمع منهم اسم « هارون » في هذا الصوت فزع الى خزانة أمواله فأعطاني منها ما تسمح به نفسه ، ظنا منه انى أذكره عند أمير المؤمنين لسخائه بالمال عند ذكر اسمه في الصوت حتى جمعت مائة الف درهم أو أكثر وما ابتززت أحدا ولا طلبت منه شيئا ٠٠ وما كان الا اسم « هارون » هو الذى يفتح لى بيوت أموالهم ! ٠٠



# أيام الرشيد الأخيرة

## ● اليوم الاول :

حججت مع أمير المؤمنين الرشيد .. بلغنا فى موكبه العظيم مدينة رسول الله ، هذا اليوم ، ففرق الرشيد وولداه : محمد « الامين» وعبد الله « المأمون » أموالا طائلة على أولاد المهاجرين والانصار فى المدينة ، ثم مضى موكبه الى مكة ، فأعطى لاهلها كما أعطى فى المدينة ، وبلغ عطاؤه فيهما أكثر من ألف ألف دينار ، وهو أعظم شيء أعطاه خليفة من الخلفاء لاهل الحرمين الشريفين ! ..

وانما أغدق الرشيد على الناس ، احتفالا بتولى ولديه الامين والمامون ولاية عهده ، وقد كتب بذلك كتابين علقهما فى الكعبة ، وأشهد عليهما القضاة والفقهاء ورجالات بنى العباس ! .

ولكن الناس لم يتفاءلوا بما صنع الرشيد ، وقالوا : لا يكون بينهما الا الحرب حين يخلو مكانه فى الخلافة ، فانهما يتنازعانها يومئذ ويتقاتلان ! .

وفى مكة والمدينة لم أجد أحدا من عظماء رواة الغناء القديم ، ووجدت من يحفظ شيئا ولا يؤديه على وجهه ، وقد تسأله عن صاحب اللحن فلا يعرفه !

لقد انتقل الغناء من مكة والمدينة الى بغداد ، وأظن ان المكى وابن جامع وحكم الوادى هم آخر فحول الحجاز فى الغناء المتقن وفى الاهزاج ..

حضرت فى مجلس للرشيد بمكة موعظة جعلته يبكى حتى تتخلل دموعه لحيته ، اذ دخل عليه الواعظ الناسك المعروف بابن السماك ، فقال له : « يا أمير المؤمنين .. ان لك بين يدى الله تعالى مقاما ، وان لك من مقامك منصرفا ، فانظر الى أين منصرفك .. الى الجنة أو الى النار » ! ..

فلما كثر بكاء الرشيد ، قيل لابن السماك ، « ارفق بأمير المؤمنين»! . فقال ابن السماك الذى يشوب عقله أحيانا شيء من الاختلاط والتشوش : « دعوه فليمت حتى يقال : خليفة الله مات من مخافة الله تعالى » !

ثم انشد ابن السماك ، وقد تهيأ للخروج :

اذا خلا فى القبور ذو خطر
فزره يوما وانظر الى خطره
ابرزه الدهر من مساكنه
ومن مقاصره ومن حجره

ثم خرج ابن السماك ، فلحق به بعض خدم الرشيد ومعه مال أمر له به ، فرد المال ، وقال : « ما كنت لاسود وجه الوعظ » ! • ومضي وانه ليفتقر الى درهم واحد يقتات به ! •

## ● اليوم الثاني :

كانت أيام الحج رائعة الروحانية ، غسلتنا من الذنوب ، واعادتنا الى بغداد كما ولدتنا أمهاتنا ، ولا أجدنى الان نشيطا لغنـاء ولا تلحين ، فانى ما زلت فى روحانية الحج ، واصدقائى يسخرون منى قائلين :

ـ أصبح اسحاق الموصلى ناسكا ••

واليوم أفزعنى ما علمته من نكبة الرشيد لوزرائه البرامكة ! •

وقال لى أبى والاسى يعتصره :

ـ ارايت يا بنى كيف أوقع الرشيد بصديقه جعفر البرمكى ، فقتله ثم صلبه ، ثم أمر فقطعت أعضاؤه ، وعلق كل عضو فى مكان من بغداد ، ثم انزلت أشلاؤه فأحرقت بالنار ! •

ثم قال ابى مدهوشا باكيا :

ـ أى حقد هذا الذى كان يجنه الرشيد لصديقه جعفر بن يحيى الوزير ، وقد كان أقرب اليه ، وأحب من الناس جميعا ؟! ••

جلسنا واجمين ، ورأيت فى أبى انكسارا شديدا ، فقد كان جعفر البرمكى صديقا له ولما اقتسم الرشيد وجعفر ذات يوم من أيام لهوهما ، جماعة المغنين فى قصر الخلافة ، كان أبى فى قسمة جعفـر ، وكان ابن جامع فى قسـمة الرشيد ! •• ثم عاد أبى الى الرشيد بعد موت ابن جامع ! •

قلت لابى :

ـ ما كان معنى هذه القسمة ؟! ••

قال :

ـ لم يكن لها معنى الا اللهو والتفكه وكنت أيامها اغنى للرشيد كما يغنيه ابن جامع ، وافوز منه بجوائز لا يفوز بمثلها ابن جامع ! ••

بكى أبى من الذكريات ، ثم دخل الى جناح فى بيته يعتكف ، وكانى رأيت به أثرا من مرض أخذ يدب الى بدنه متسربا اليه من روحه المعذبه ، فقد تضعضع لموت جعفر البرمكى • وامتلأ كمدا ويأسا من الدنيا وأهلها ! ••

## ● اليوم الثالث :

منذ شهور لم أكتب شيئا فى اليوميات ••

لم أكن أظن ان أول ما أكتب حين أعود اليها ، يكون عن موت أبى ! ••

لقد مات ابراهيم الموصلي سيد من لحن وغنى وقال الشعر ، وروى الاغاني والاشعار وأداها في عصرنا كله ! ..

مات أبي بعد سنة واحدة من قتل جعفر البرمكي ، وما أظنه الا مات حزنا وكمدا ، حريصا على مفارقة الدنيا اذ فارقها جعفر صديقه .. الذى به أدرك من قبل فى الدنيا أمله ، ولم يجد بعده فيها أملا ! .. ولقد استتم كتاب الصديقين عمله فى هذه الدنيا وبلغ أجله ، فذهب والله بذهابهما الادب والعقل والفضل والمروءة والجمال كله ! ..

دخلت الى الرشيد بعقب وفاة أبي بنحو شهر ، فلما جلست مع المغنين ، رأيت موضع أبى الذى كان يجلس فيه ، خاليا فدمعت عيناى ، فتصبرت وكفكفت الدمع ، ولمحنى الرشيد ، فدعانى اليه وأدنانى مشفقا مواسيا ، فقبلت يده ، فاستعبر وجرى الدمع على خديه ، وان الرشيد فى مواطن الرقة والبكاء ، لرقيق كثير الدمع فقلت أمدحه وقد استويت واقفا بين يديه :

**فى بقـاء الخليفة الميمون**
**خلف من مصيبة المحـزون**
**لا يضير المصاب رزء اذا ما**
**كان ذا مفـزع الى هارون**

فقال لى بصوت فيه أثر البكاء :
ـ كذاك والله هو يا اسحاق ، ولن تفقد من أبيك ما دمت حيا الا شخصه !
وأمر بمضاعفةعطائى ، وأن يستمر عطاء ابى فى أولاده الصغار وبناته !

## ● اليوم الرابع :

غنيت الرشيد فى سهرة الليلة :

**سلى هل قلانى من عشير صحبته**
**وهل ذم رحلى فى الرفاق رفيـق**

فطرب الرشيد ، ولكنه لم يأمر لى بجائزة فوجدنى أشرئب اليه ، فضحك وقال :

ـ قد كان أبوك غنانا هذا الصوت فأعطيناه الف دينار ! .. فقد أخذ أبوك ثمنه مرة فلا تطمع ! ..

فعجبت من قوله ، وأدهشنى أن يبلغ به البخل هذا المبلغ وهو من هو كرما ونبلا فقلت :

ـ سيدى ، قد أخذ أبى منك أكثر من مائتى ألف دينار ، ما رأيتك ذكرت منها غير هذا الالف ، على بختى أنا ! ..

فقال الرشيد واجما :

ـ ويحك ! .. أكثر من مائتى الف دينار ؟! استغفر الله من ذلك ! ..
ثم قال لى

ـ ويحك ! .. فما الذى خلف منها ؟!

قلت :

ـ خلف على وعلى أولاده ديونا مبلغها خمسة الاف دينار قضيتها عنه ! ..

فقال الرشيد متعجبا :

ـ ما أدرى أينا أشد تضييعا ! .. والله المستعان ! ..

خرجت فى هذه الليلة من مجلس الرشيد بلا درهم واحد ، وذكرت وأنا اتعجب كيف ان أخاه الخليفة السابق الهادى ـ رحمه الله ـ قد أعطى أبى فى صوت آخر خمسين ألف دينار ، فاجتمع له فى ليلتين فقط مائتـا ألف دينار ، ولم يجتمع له من الرشيد فى بضعة عشر عاما غناه فيها مئات الاصوات الا هذا المبلغ الذى جمعه فى سهرتين من سهرات الهادى ! ..

الان ، عرفت معنى قول أبى لى فى بعض الايام :

ـ يا بنى .. لو عاش لنا الهادى لبنينا حيطان بيوتنا بالذهب والفضة !.

ليس الرشيد ببخيل فى نفسه . ولكنه قليل العطاء جدا بالقياس الى اخيه وتعتريه أحوال من الحرص أحيانا ـ على استبحار أمواله ـ يحار فيها العقل !

## ● اليوم الخامس :

تسـير الامور فى سهرات الرشـيد على ما يرام ، الا بعض ليـال أراه فاترا لا يشتهى سماع الغناء ، ولا الشعر ، ولا النوادر ، ولا يأكل شيئا ، ولا يشرب ..

فى السنوات الثلاث الماضية ، كنت أرى الرشيد يضعف شيئا بعد شىء ، كأنه طعن فى السن ، وهو فوق الاربعين بقليل ، ولعل ذلك من هموم الملك أو كثرة اللذات ، أو غير ذلك ! ..

وقد كثر الخارجون عليه فى أطراف دولته ، يريدون ازالته عن الخـلافة وازالة بنى العباس جميعا ، واخر من سمعت انهم خرجوا عليه ، رجل فى خراسان ورأيت الرشيد مريضا ، ولكنه أصر على الخـروج بنفسه لمحاربة الخارجى ، وكنت مع الفضل بن سهل ، فسمعته يقول لعبد الله المأمون ولى عهد الرشيد :

ـ انك لست تدرى ما يحدث بأمير المؤمنين وخراسـان ولايتك ، والامين مقدم عليك فى ولاية العهد ، وأخواله بنو هاشم ، وأمه زبيدة تملك من الاموال ما تستطيع به شراء الناس جميعا .. فسر مع أبيك الى خراسان ولا تتخلف مع الامين فى بغداد ! ..

ومضيت أودع الرشيد ، فأوغلت معه كأننى ضمن ركبه وجنده والمسافرين معه .. فسمعته يقول لبعض خاصته :

ـ لا أظنك ترانى أبدا بعد سفرى الى خراسان ! ..

فدعا له الرجل بطول البقاء ! ٠٠ فنظر الرشيد فوجـدنى على مقربة ، فاستدنانى ، وقال لى :

ـ ما أظنك ولا أظن أحدا من هؤلاء يدرى ما أجـد فى بدنى من السـقم والالم ! ٠٠

ثم عدل الى شجرة وانا معه فى قليل من خواصه ، فكشف أسـفل بطنه فاذا هو يربطه بعصابة حرير غليظة ربطا شديدا ، وقال : « هذه علة أكتمها عن الناس ، ولكل واحد من ولدى رقيب يتبعنى ٠٠ فمسرور الخادم رقيب للمامون ، والطبيب ابن بختيشـوع رقيب للامين ، وما منهم أحد الا وهـو يحصى انفاسى ويستطيل أيامى ، وقد تعمدوا أن يركبونى دابة عجفاء لتزيدنى علة » ! ٠٠

فرحمت والله الرشيد ، وهو الملك الجبار الذى حاز من الدنيا ما لم يحزه أحد !

وهو الحاكم الطاغى ، والسياسى الداهى ! ٠



# غناءٌ علَى الذكريات

## ● اليوم الاول :

قلت ليحيي المكي ، وهو أكبر المطربين والملحنين سنا ، واجمعهم لاغاني كبار المغنين القدماء :

ـ هل حدثتك نفسك قط بأن الغناء حرام ، وان من يصنع غناء أو يسمعه ، يزحزح يوم القيامة عن الجنة فيدخل النار ، وبئس القرار ؟! ..

قال يحيى :

ـ لقيت الامام مالكا وجماعة من فقهاء المدينة ومكة ورأيتهم يسمعون بعض الغناء أحيانا ، وأدركت جماعة من أهل العلم يتشددون فى انكار السماع ، على رأسهم محمد بن سيرين .. وأدركت آخرين يتساهلون فى المغانى ، لا يطعن أحد عليهم ، حسبك منهم الحسن البصرى والشعبى والنخعى ! ..

ثم قال يحيى المكى :

ـ سألت مرة رجلا لغويا نحويا ظريفا كثير الدعابة ، وان كان صواما قواما ، كثير الجلوس فى حلقة الحسن البصرى :

ـ ما تقول في السماع ، فاني رأيت قوما ينكرونه ، ونحن نروح به ونغدو على الخلفاء ؟! ..

فقال الرجل النحوى :

ـ انما اختلفوا في هذا كاختلاف العرب فى كلمة « الهدى » .. بعضهم يؤنثها ، وبعضهم يذكرها ، فيقول هؤلاء : « هذا هدى حسن » .. ويقول أولئك : « هذه هدى حسنة » .. وانما الهدى هدى الله ! ..

ثم مضيت ويحيى المكى الى قصر الرشيد ، وكنت صنعت لحنا جديدا فى شعر بشار ، فقال لى يحيى :

ـ يا اسحاق ! .. يقول عنك الناس : ما فى الدنيا مثل اسحاق الموصلى مقدرة على التلحين ، فهل كان أبوك ـ رحمه الله ـ أقدر منك عليه ؟! .

قلت :

ـ كان أبى ـ رحمه الله ـ مطبوعا ، خلقه الله مغنيا ملحنا ، ولم يكن فى أهله أحد يأخذ عنه هذه الصناعة ، أما أنا فنشأت لا اسمع ولا أرى الا

الغناء والمغنين .. وأخذت الصنعة عن أبي ، لم أتعب في السعي لها ، فليس احساني فيها الا فرعا من احسانه ! .. فأين أنا منه ؟! ..

قال يحيى المكي :

ـ ما يغلبك أحد في الكلام يا اسحاق ! .. ولكن أخبرني : كيف اخترت أن تغنى لامير المؤمنين الرشيد من شعر بشار الذى قتله أبوه المهدى لزندقته ، وقد علمت ان الرشيد يتعقب الزنادقة ويستأصلهم ، وهو متشدد في الدين على حبه للدنيا واقباله الشديد على طيباتها ، وأولها السماع ؟!
قلت :

ـ الرشيد يحب شعر بشار ، ولا يبالى بفتاكة هذا الشاعر ، فقد مضى لسبيله ولم يبق الا شعره .. وقد لحنت منه هذه الابيات :

**رقت لكم كبدى حتى لو انكم**
**تهوون الا اريد العيش لم ارد**
**كان قلبى اذا ذكراكم عرضت**
**من سحر هاروت او ماروت في عقد**
**ما هبت الريح من تلقاء أرضكم**
**الا وجدت لها بردا على كبدى**

● **اليوم الثاني :**

كان طرب أمير المؤمنين الرشيد شديدا في سهرة البارحة ..

أعجبه شعر بشار ، وأعجبه لحنى في هذا الشعر ..

وكان أبي ـ رحمه الله ـ قد التمس من الرشيد أن يأمر بألا يغنيه أحد سواه في شعر ذى الرمة ، لان والدى عرف من الوزير جعفر البرمكى ، حب الرشيد لشعر ذى الرمة .. وقد سألت الرشيد أن يورثنى ما كان قد اقطعه لابى من شعر ذى الرمة ، فلا يغنيه فيه غيرى ، فأجابني الى ذلك .. ثم سألته ان يجعل شعر بشار وقفا على غنائى ، فقال لى ضاحكا :

ـ ولا كل هذا يااسحاق ! .. قد ورثناك عن أبيك شعر ذى الرمة ، فاجعل شعر بشار لك وللاخرين ! ..

واليوم انشدني أبو نواس قوله في الخمر :

**ما زلت أرشف روح الدن في لطف**
**واستقى دمه من جوف مجروح**
**حتى انثنيت ولى روحان في جسدى**
**والدن مطرح جسما بلا روح**

قلت لابى نواس :

ـ ما أحسن شعرك هذا ، فوالله ما يقتدر على مثله أحد ، ولقد اتسعت

فى معناه وجودت وملحت ولطفت ، حتى تركت بشار بن برد يحجل خلفك وهو المجلى فى الشعراء ! ..

قال أبو نواس

ـ كأنك تراني أخذته من كلام بشار ؟!

قلت :

ـ لا أرى ذلك ، ولكني تذكرت قول بشار فى معناه :

شربنـا من فؤاد الدن حتى
تركنا الدن ليس له فـؤاد

فهذا هو أصل المعنى الذى فى بيتيك هذين ، سبقك اليه بشار فى بيته هذا ، ولكنك أربيت عليه بهذا الاتساع فى التصوير والتعبير حتى أبدعت، بل أعجزت ..

تهلل وجه ابى نواس .. وقال :

ـ ألم تسنح لك بعد فرصة تغنى فيها من شعرى لامير المؤمنين الرشيد ؟!

قلت :

ـ وما تشاءون الا أن يشاء الله ! .. ألم يغنه الاخرون فى شعرك ؟! ..

قال ابو نواس :

ـ بلى والله ! ..

ثم تركني وانصرف بلا كلام ، كأنه يئس من بلـــوغه يوما مجلس أمير المؤمنين الرشيد ، وما هو ببالغه ! ..

## ● اليوم الثالث :

غنيت اليوم لحنى الذى صنعته فى شعر بشار .. طلبـــه الرشـــيد وقال لى :

ـ ان فيه صنعة عجيبة دقيقة ، وان فى غنائه لشجنا يقرح الكبد ، على ما فيه من حلاوة وطلاوة ! ..

فلما أتممت غناءه ، ظننت ان الرشيد لا يعطيني فيه شيئا وقد أعطانى منذ أيام .. لكن الطرب هز أريحية الرشيد هزا شديدا ، فأمر لى بضعف ما أمر لى به فى المرة السابقة ! ..

ثم أخذ الرشيد يسأل الحضـــور من المغنين عن رأيهم فى اللحن ، فكلهم أثنى عليه ، حتى ابراهيم بن المهدى الذى يناوئنى لم يبخل بالثناء ، ولكنه أراد غمزى فقال :

ـ قد كان أمير المؤمنين المهدى ـ رحمه الله ـ غاضبا على بشار ، لرميه

بعض نساء المسلمين بالفجور ، وذلك في قوله :

**لا يؤنسنك من مخباة**

**قول تغلظه وان جرحا**

**عسر النساء الى مياسرة**

**والصعب يمكن بعدما جمحا**

قال الرشيد :

ـ ولكن بشارا لم يقتل الا بدسيسة الوزير يعقوب بن داود ، ولولاه ما وجد عليه المهدى ولا قتله ، فقد زعم ابن داود هذا ان بشارا كان زنديقا فاسقا فأمر المهدى بضربه ، وظن أن ضربه اياه لا يبلغ الموت ، ولكنه كان شيخا ضعيفا فمات ٠٠ وندم المهدى على قتله ، ثم غضب على ابن داود فنكبه ، وكان يقول : « لعن الله يعقوب بن داود ، قتل بشارا وهو مسلم خير منه » ! ٠٠

فلما سمعت ذلك من الرشيد ، قلت :

ـ وكيف ثبت لامير المؤمنين المهدى رحمه الله ، ان بشارا كان حسن الاسلام ، لا كافرا ولا زنديقا ؟! ٠٠

قال الرشيد :

ـ في خزائننا كتب وأوراق لبشار جاء بها عامل البصرة الى أمير المؤمنين المهدى بعد قتل بشار ، وقد أخبرني يحيى بن خالد البرمكي ان المهدى رحمه لما قرأ هذه الكتب وجد في بعضها مكتوبا من املاء بشار : « قد كنت عزمت على هجاء بعض آل سليمان بن علي ، لانهم ظلموني ، وتعدوا على ، فذكرت قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبتهم له فما قلت فيهم الا بيتين وهما :

**دينار آل سليمان ودرهمهم**

**كالبابليين حفا بالعفاريت**

**لا يوجدان ولا يلقاهما احد**

**كما سمعت بهاروت وماروت**

فزاد أسف المهدى على قتل بشار ، وهو أشعر الشعراء ، وكان قوله كلما ذكره : « لعن الله يعقوب بن داود ! ٠٠ قتل بشارا وهو مسلم خير منه» !

## ● اليوم الرابع :

مات الرشيد : ٠٠ ودفن في أرض فارس ٠٠ ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ مريضا يكاد يقع من فوق دابته في خروجه منذ شهور لاخماد فتنة في تلك البلاد ٠٠

ولاول مرة أرى أبا نواس في قصر الخلافة ، ولم أره قط هناك أيام

الرشيد .. وسمعته ينشد أمير المؤمنين محمدا الامين الذى تولى الخلافة بعد أبيه ، فكان قوله فى تعزيته :

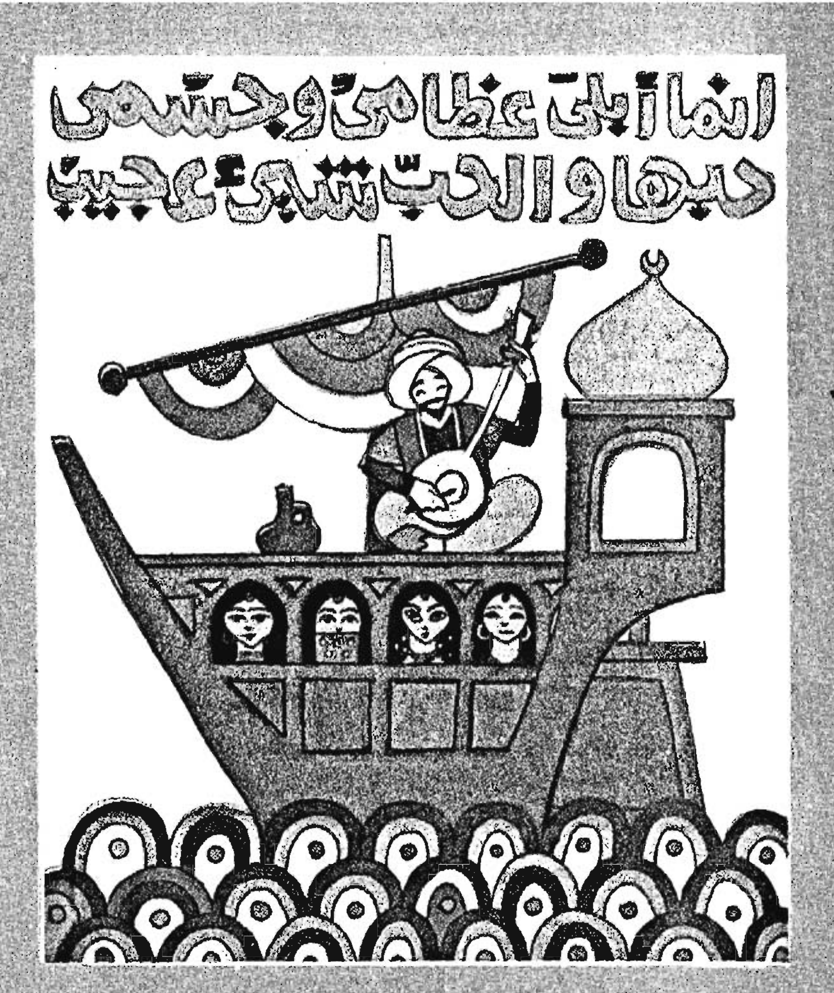
تعزى أمير المؤمنين محمــــدا
على خير ميت غيبته المقـــابر
وان أمير المؤمنـــين محمـــدا
لرابط جاش للخطوب وصابر
زهت بامير المؤمنين محمـــد
أسرة ملك واســتقرت منابر
فلا زلت مرعيـــا بعين حفيظة
من الله لا تسطو عليك المقادر
تسوس أمور الناس تسعين حجة
وهديك محمود وعرضك وافر

لم تعجبنى أبيات أبى نواس هذه ، فانها نظم لا حياة فيه ، كأنما العزاء فى الموت لا يكون الا بمثل هذا النظم الميت ، وأين هـــذا من روائع أبى نواس ؟!

وأبو نواس ـ منذ اليوم ـ شاعر الخليفة الجديد لا يحجبه أحد عن مجلسه كما كانوا يحجبونه فى عهد الرشيد .. وان محمدا الامين لشــديد الولع بشعر أبى نواس وصحبته ، ولن يجد مثله نديما له فى الخمر واللهــو بين الجوارى اللابسات ثياب الغلمان ، والغلمان اللابسين ثياب الجوارى ! ..

وكيف تستقيم أمور الخلافة مع هذا الخليفة الحدث الطياش الذى لايرى الدنيا الا لذة كأس أو لذة ثغر ؟! .

ان أبا نواس لن يسألنى بعد اليوم أن أغنى من شـــعره للخليفة حتى يتذكره ، لانه استغنى بنفسه عني وعن غنائى ، فهل ترانى أضطر غدا الى ان أقول له اذكرنى عند ربك ؟! ..


انما أبلى عظامي وجسمي
حبها والحب شيء عجيب

# مليون درهم عباسى

● **اليوم الاول :**

تذكرت اليوم أننى منذ سنوات دخلت وصديقى « الاصمعى » الى أمير المؤمنين هارون الرشيد فوجدناه متكدرا لا ينشط لشىء من الغناء أو المنادمة، فظل الاصمعى يروى له نوادر الاعراب وأضاحيكهم ، فلا ينشط ولا يذهب الكدر عن نفسه ٠٠ حتى خطرت لى أبيات من شعرى ، فقمت بين يديه فانشدت منها :

**وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى**
**فذلك شىء ما اليه سبيل**
**وانى رايت البخل يزرى باهله**
**فاكرمت نفسى ان يقال بخيل**
**فعالى فعال المكثرين تجملا**
**ومالى كما قد تعلمين قليل**
**وكيف اخاف الفقر أو احرم الغنى**
**ورأى امير المؤمنين جميل ؟!**

فرايت الرشيد يتنبه الى الابيات ، ويتحرك فى مجلسه ، ويضىء وجهه ، فلما أتممتها قال مبتسما :

ـ لا تخف ان شاء الله ! ٠٠

ثم تفكر لحظة وقال وقد زايله كدره :

ـ لله در أبيات تاتينا بها يا اسحاق ! ٠٠ ما أشد أصولها ، وأحسن فصولها ، وأقل فضولها ! ٠٠

وأمر مسرورا الخادم بأن يحمل الى دارى خمسين ألف درهم ! ٠٠

فلم أستطع أن أتكلم لما ورد على من الدهشة والسرور ، ولكنى رأيت الاصمعى منزويا منكمشا ، قد بان الحسد فى وجهه ، لما ظفرت به من جائزة أمير المؤمنين ! ٠٠

ثم نهض الرشيد ، وقد نشط ، وانقشع كدره ولم يلتفت الى الاصمعى . ولا أمر له بشىء ! ٠٠

فلما صرنا خارج قصر الخليفة قال لى الاصمعى :

ـ الآن علمت يا اسحاق انك أحذق منى بصيد الدراهم ! ٠٠ وقد كان أبوك كذلك ! ٠٠

قلت له :

ـ دع ذا عنك ، فما من شاعر ولا أديب ولا عالم ظفر من جـوائز أمير المؤمنين بمثل ما ظفرت أنت به ! ٠٠

فلم يرتح لقولى ، وطفق يتوجع لخروجه من عند الخليفة صفر اليدين، وخروجى أنا بخمسين ألف درهم ، وان فى الاصمعى لحسدا عرفته فيه من قديم :

أردت تسليته فقلت له :

ـ ألك فى سماع بيتين من الشعر استحسنتهما فاحببت أن أقف على رأيك فيهما ؟!

قال متفترا متكسرا :

هات ! ٠٠

فانشدته :

هل الى نظرة اليـك سـبيل
يرو منها الصدى ويشفى الغليـل
ان ما قل منـك يكثـر عنـدى
وكثير ممن تحب القليـل ! ٠٠

فرأيته قد اتسعت عيناه دهشة واعجابا ثم قال :

ـ لله در هذا الشعر ٠٠ هذا والله هو الديباج الخسرواني الذى كان يلبسه أكاسرة الفرس ٠٠ هذا والله هو الوشى الاسـكندرانى الذى كان يلبسه ملوك الروم ! ٠٠ هذا هو الشعر المطبوع الذى من صـفته كيت وكيت ! ٠٠

ثم سألنى بلهفة :

ـ لمن هذا الشعر ؟!

قلت :

ـ انه لى ! ٠٠

فتبينت الحسد فى وجهه ! ٠٠ وقال لى والكراهية فى كلامه :

ـ أما ان صناعة الشعراء المحدثين فيه لبينة جدا ٠٠ ولقـد افسـدته يا اسحاق اذ جزمت الفعل « يروى » فى البيت الاول لضرورة الشعر ، ولا يفعل هذا الشاعر الفحل ولا الشاعر المفلق المطبوع ! ٠٠

قلت معابثا له

ـ فانى نظمت فى هذا المعنى نفسه بيتين آخـــرين ليس فيهما ضرورة شعرية ، وان كان فحول الشعراء في الجاهلية والاسلام يحفل شـــعرهم بالضرورات الشعرية ، وأنت به أعلم !

قال وقد نفد صبره :

ـ هات ، وأسرع ، فانى على موعد ! ..

فانشدته :

ايها الظبى الغـــرير
هل لنا منـــك مجير
ان مـا نولتنى منـــك
وان قـل .. كثـــير !

فقال لى وهو يهم بركوب دابته :

ـ لولا أن ذلك الموعد قد أزف ، لسمعت من شعرك ومن غنائك أيضا .. فاعذرنى ! ..

ثم وثب على برذونه ، وركضه ، وأنا أضحك وأشيعه بالتحية والسلام والدعاء ، فانه شيخنا فى الادب على كل حال ! ..

## ● اليوم الثانى :

بعد وفاة هارون الرشيد ، بقيت أياما حزينـــا عليه ، لا أنظم شـــعرا ولا أصنع لحنا .. حتى علمت أن حسادى سعوا بى عند الخليفة الجديد الشاب محمد الامين الذى انهمك في الغنـــاء والشراب بعقب وفاة أبيه الرشيد ـ رحمه الله ـ وصار قصره كأنه ســـوق الرقيق لكثرة من فيه من الجوارى والغلمان ، وشجعته على ذلك والدته السيدة زبيدة فصـــارت هى الحاكمة فى الدولة ، وتفرغ ولدها الامين للذاته !

ثم انى استأذنت فى الدخول عليه هذه الليلة فأبطأ فى الاذن لى ، حتى ظننت أننى أحجب عن لقائه ، واذا به يطلبنى ويلقانى غير متجهم ولا متغير، كأنه مازال على عهده حين كنت أراه وهو ولى عهد صغير السن ! ..

قال لى

ـ ما أعددت من جديد يا اسحاق ؟

قلت :

ـ جعلنى الله فداءك يا أمير المؤمنين .. أتأذن لى فى انشاد ما قلته فيك من شعر ، ثم فى غنائه ..

قال

ـ أنشدنى ثم غن ..

فأنشدته هذين البيتين ثم غنيتهما

**يا ايها القـــائم الامـين فدت**

**نفســـك نفسى بالمال والولد**

**بسـطت للنـــاس اذ وليتهم**

**يدا من الجـــود فوق كل يد**

فرايت الامين يهتز طربا ، ويستعيدنى ، ويستدنينى الى سريره حتى بان الحسد فى وجوه من حضر من المغنين . فلما أتممت اللحن ، وقف الامين فصاح :

ـ يا غلام .. أحمل الى دار اسحاق ألف ألف درهم ..

نظرت فاذا الدهشة فى عيون الحاضرين جميعا من مغنين ورجال دولة ، واذا بى لست أقل منهم دهشة ، فما حدث قط أن أمر لى خليفة بهـــذا المال .. وذكرت فى دهشتى ما كان أبى رحمه الله يحكيه لى عن كرم الخليفـة الهادى عم خليفتنا هذا محمد الامين ، فقد أمر الهادى لابى ذات ليلة بمائة وخمسين ألف دينار ، تساوى أكثر من ألفى ألف درهم ..

انصرفت آخر الليل الى دارى ، وفى الصـــباح رأيت مائة من فراشى قصر الخليفة يحمل كل منهم بدرة تحوى عشرة الاف درهم ، ورأيت جيرانى يعدون الفراشين ويحسبون ما يحملون الى دارى من مال ! ..

## ● اليوم الثالث :

غضب على الخليفة محمد الامين ، لسبب لا أدريه فتشفعت اليه بالوزير الفضل بن الربيع ، وهو صديق محب لى ، فشفعه الامين ودعانى الى مجلسه صبيحة هذا اليوم ..

جلس الامين يصطبح ، وهو يحب شرب النبيذ والغناء اصطباحا ، ولكنى لا أحب ذلك ، الا انه لابد لى منه ، ولو كان الامر بيدى ما شربت النبيذ فى الصباح أبدا ..

قلت لنفسى : هذا خليفة صغير السن ، محب للهو ، ضعيف الفكر ، قد استولى عليه هؤلاء الجالسون حوله يشربون أو يغنون الاهزاج التـافهة ، فان خالفتهم اتهمونى بالتكبر والتصنع فلا مناص من الدخول فيما دخلوا فيه من اللهو والهزل ، فلبست قباء وخفا أحمر ، واعتصبت بعصابة صـــفراء وشددت وسطى بشقة حرير حمراء ، ووقفت وفى يدى صـــــفاقتان وأنا أتغنى :

**اسمع لصـــوت طـــريب**

**من صـــنعة الانبـــارى**

صـــــوت مليح خفيف
يطـــير في الاوتــار

فاعجب هذا الهذيان محمـــدا الامين ، وأمر أن يقتصر الغناء في ذلك الصباح على هذا الصوت ، وطلب الى سائر المغنين أن يســكتوا ٠٠ فلما انفض المجلس أمر لى بثلاثمائة ألف درهم ! ٠٠

وانما قلت في شعرى هذا « صنعة الانبارى » لان الامين كان يسمينى متفكها « بالانبارى » منذ دخلت عليه يوما وقد لثت عمامة على رأسى لوثا غير مستحسن ، فقال لى : يا اسحاق ٠٠ كأن عمامتـــك من عمـــائم أهـل الانبار ٠٠



# منادمة المأمون

**● اليوم الاول :**

فى أول النهار أقبل خادم من قصر الخليفة المامون يقول لى : أجب أمير المؤمنين ! ..

فكرت ! .. ما هذه الدعوة فى هذا الوقت المبكر ؟! ..

سألت الخادم ، فقال :

ـ ان أمير المؤمنين لم يزد على قوله لجماعة من خدمه كنت واياهم فى الخدمة منذ الفجر : أبلغوا اسحاق الموصلى يجىء الساعة ! ..

وما التفت أمير المؤمنين الى أحد منا ، ولا أمر شخصا بعينه ، فأسرع رئيسنا صاحب الخدمة فى هذا اليوم فقال لى : انطلق ركضا الى أبى محمد اسحاق الموصلى ، فأبلغه ما رسم به أمير المؤمنين أعزه الله ! ..

دخلت غرفة واسعه مزخرفة ، ملوكية المنظر ، كان أمير المؤمنين المأمون راقدا على فراش فى ركن منها ! ..

خفت أن يكون مريضا ، فانا أحب هذا الخليفة الذى أكرمنى وعظم شانى ، وجعلنى أدخل مجلسه مع العلماء والفقهاء والقضاة والشعراء والادباء ، لا مع المغنين فقط ، وقد لبث أبى رحمه الله ، ولبثت بعده طوال عهد الرشيد والامين لا ندخل الا مع المغنين ، فجاء المأمون فرفع منزلتى فوق أن أكون مغنيا لا بضاعة له الا الغناء كهذه الطبقة من المسترزقين بحلوقهم وأوتار عيدانهم ! ..

استدنانى المامون وهو مستلق على فراشه · حتى صارت ركبتى على الفراش ، ونظرت فى وجهه فداخلنى سرور اذ وجدته فى حال جميلة من العافية .. ونضرة النعيم .. وسلمت عليه ثم انتظرت ..

لكنه كان صامتا يفكر ، ثم تكلم وفاجأنى اذ قال :

ـ يا اسحاق .. أشكو اليك أصحابى ! .. صنعت لفلان كذا ، فلم يحفظ الصنيع ، وثبت عندى عقوقه ، وصنعت لفلان كذا وكذا ، فلم يكن أحسن من الاول ، وفعلت بفلان كذا ، ففعل كذا من التنكر لجميل فعلى ! ..

وعدد الخليفة جماعة من خواصه وأقاربه ورجال دولته ، ورأيت العبوس فى وجهه ! ..

لم أعجل بالكلام بعد وقوفي على هذه الامور التي تحدث عنهـا الخليفة ، فما لي شأن فيها ، ولا قبل لي بمن ذكر من العلية والاشراف فيما استودعني من خبرهم عنده ورأيه فيهم ، فقلت لنفسي : ان خليلتنـا هذا - وان كان لي محبا - يحلو له أن يختبر أخلاقي ومروءتي وكياستي وحفظي لحسـن الصنيع .. فان رآني أقع في أعراض هؤلاء العظمـاء والكبراء ، وأذمهم وأنهشهم وأحرضه عليهم ، سقطت من عينه ، وأنصرفت نفسه عني ، وثبت عنده سقوط مروءتي ، فكرهني وأبعدني عن مجلسه والزمني بيتي ، فتبطل صناعتي ، ويجفوني الناس ، ويكون في ذلك موتي ..

قال لي :

- أراك لا تتكلم يا اسحاق ! ..

فانفتح لي باب من الكلام أتخلص به ، فقلت :

- يا أمير المؤمنين .. انك بتفضلك علي ، وحسن رأيك في ، ظننت اني ممن يشاور في مثل هذا ، فجاوزت بي حدي ، وهـذا رأي يجـل عني ولا يبلغه قدري ! ..

قال المأمون :

- ولم ذلك يا اسحاق وانت عندي عالم عاقل ناصح ؟! ..

قلت :

- هذه المنزلة لي عندك يا سيدي ، علمتني ألا أقول الا ما اعرف ، ولا أطلب الا ما أنال ! .

فضحك المأمون وأضاء وجهه ، وصرف الكلام الى وجه آخر فقال :

- قد بلغني يا اسحاق انك في هذه الايام صنعت لحنا في شـعر لجرير أو لغريمه الراعي ولم أسمعه منك ! .

قلت :

- هو يا سيدي في شعر للراعي ، وما سـمعه أحد بعد الا جارية أو جاريتان عندي ، ولا حضرت عندك للمنادمة منذ صنعته ! ..

قال المأمون :

- فالان غنه فانك حضرت عندنا ! ..

قلت

- يا سيدي .. الهيبة والصحو يمنعاني أن أؤديه كما تريد ، فلو آنس امير المؤمنين عبده بشيء يتطرب به ويتقوى طبعه ، كان أجود ! ..

فأمر المأمون بالغداء فتغدينا ، ومدت الستارة وغنت الجـواري من ورائها .. ثم قال لي : يا اسحاق أما جاء أوان ذلك الصـوت ؟! .. فقلت : بلى يا سيدي ! . ثم غنيته لحني في قول الشاعر الراعي :

الم تسأل بعـــارمة الديارا
عن الحى المفارق اين صـــارا

بلى ســـاءلتها فابت جـوآبا
وكيف تسائل الدمن القفـارا

فاستحسن المأمون الصوت ، وتسلى به عما كان فيه من الهم والغم بمن عقه ولم يحفظ صنيعه من أشراف دولته · ثم قال لى :

ـ يا اسحاق ! ·· لا طلب بعد وجود البغية « بضم الباء وتسكين الغين» ·· وما أبتغى اليوم من سماع ، الا صوتك هذا ! ··

ثم أجزل صلتى وكسانى خلعة من ثيابه ، وملأ قلبى سرورا ! ··

● **اليوم الثاني :**

حضر الليلة عند أمير المؤمنين المأمون ، جمـــاعة من المغنـين ، جلسـت فيهم ، بعد انقضاء مجالس الفقهاء والعلمـــاء والادباء عنده ، فانتقلت من مجلس العلم والادب الى مجلس هذه الطبقة من المغنـين الذين تكثر أغلاطهم فى الغناء · وان كان فيهم بعض ذوى الاصوات الجميلة ! ·

لم أغن فى بداية هذا المجلس ، وكان آخر من غنى « علـويه » ، فمما غناه لحن لابى كان قد صنعه فى قول بشار بن برد :

لعبـــدة دار ما تكلمنـــــا الدار
تلوح مغانيها كما لاح اسـطار

اســـائل احجـــارا ونؤيا مهدما
وكيف يرد القـول نؤى واحجـار

فطرب المأمون ، وقال لعلويه : أهذا اللحن من صنعتك ؟! ·· قال : بل هو لابراهيم الموصلى ! ··

فسألنى المأمون :

ـ ماذا رأيت يا اسحاق فى غناء علويه لصنعة أبيك ؟! ··

قلت :

ـ رأيته قد اجتهد فى الاداء ، ولكنه أخطأ فى بعض أقسامه وأدواره ··

قال المأمون :

ـ فغنه أنت يا اسحاق لنرى كيف يصح أداؤه ! ··

فغنيته اللحن كما صنعه أبى ـ رحمه الله ـ فاستعادنيه المأمون مرارا ، وشرب عليه أقداحا ، ثم نظر الى معجبا وتمثل قول جرير :

وابن اللبـــــون اذا ما لز فى قـــرن
لم يستطع صـــولة البزل القناعيس

يريد المأمون أن يشبه « علويه » بولد الناقة الصغير السن ، الضعيف الاحتمال ، ويشبهني وأبي بالقناعيس وهي الجمال الضخمة العظيمة القوة الكبيرة الاحمال ! ..

وهذا في الحقيقة هو الرأى الثابت للمأمون فينا ـ أبي وأنا ـ وانه ليأخذ برأيي في كل ما يشتبه عليه من لحن قديم أو جديد ، وان له في الغناء لذوقا مرهفا وعلما ..

وقد أمر لي بخمسين ألف درهم ، ولم يترك مغنيا ممن حضر الا أمر له بجائزة ، وفيهم علويه ، على غلطه فيما غنى ! ..

## ● اليوم الثالث :

جاءني علويه بعد الفجر بقليل ، فعاتبني وقال لي : « أنا تلميذ أبيك وتخريجه وتخريجك وكنت أرجو أن تسترني أمس فيما غلطت في غنائه من ألحان أبيك رحمه الله في شعر بشار .. ولكنك أبيت ـ على مألوف عادتك ـ الا التشدق بعلمك ، حتى فضحتني عند أمير المؤمنين ، وكان يسعك أن تغضي عني في حضرته ثم تصحح لي الخطأ بعد أن ننصرف الى بيوتنا » ! ..

قلت لعلويه غير مبال بما يرميني به من التشدق بالعلم :

ـ انما أردت ان أدلك على الصواب ، فلا تقع في الخطأ بعده ، وأردت أن يروى المغنون صنعة أبي على أصلها ، وقد رأيتني أصلح لمخارق بعض ما يغني من لحون الاقدمين أو من لحوني أو غيرها ، وان مخارقا ليملك من حسن الصوت ما لا يملكه أحد .. ولكن الصوت الحسن يشينه الخطأ في الاداء ! ..

علويه كثير اللجاجة ، عرفته كذلك منذ كان يتعلم الصناعة على يد أبي رحمه الله ..

فما اقتنع بما قلت له ، ومضى يذكرني بما صنعه لي عند المأمون بعد قتل أخيه الامين واعتلائه سرير الخلافة ..

قلت لعلويه : بل أذكر حسن صنيعك ولا أنساه .. فتركني وانصرف وبه بقية غضب ! ..

ولقد أذكرني والله من نسيان .. فان المأمون بعد أن دخل بغداد ، وكان أخوه قد خلع وقتل ، لبث عامين لا يسمع حرفا من الاغاني ، حتى تغنى بحضرته أبو عيسى ، وهو أخ من أخوة المأمون الذين أنجبهم الرشيد من جواريه الكثيرات ، وأبو عيسى هذا من أبناء الخلفاء الذين تكاثروا في هذه الايام على صناعة الغناء يتعشقونها ويدعون العلم بها ..

ثم واظب المأمون على السماع متسترا غير مستهتر ، تشبها بأبيه الرشيد فأقام كذلك أربع سنوات ، ثم ظهر الى الندماء والمغنين وجالسهم وشرب وطرب .. وسأل عني وكنت لا أذهب اليه مع المغنين فطعنوا علي وجرحوني

بحضرته ، وقال الطاعنون : « ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتيه على الخلافة ؟! » •• قال المأمون : « ما أبقى هذا من التيه شيئا الا استعمله » •• ثم أمسك المأمون عن ذكرى •• فجفاني من كان يصلني لسوء رأى الخليفة الذى ظهر في أمرى ، فاضر ذلك بى جدا ، حتى جاءنى « علويه » يوما فقال : « اتأذن لى فى ذكرك بمجلس المأمون فانا قد دعينا اليه اليوم ؟! » •• قلت : « لا •• ولكن غنه بهذا الشعر ، فانه يسألك عن صاحب اللحن فينفتح لك الكلام عنى » •• ثم ألقيت على علويه لحنا فى شعر لى :

يا سرحة الماء قد سدت موارده
اما اليك طريق غير مسدود
لحائم حام حتى لا حيام له
محلأ عن طريق الماء مطرود

كنيت بسرحة الماء عن المرأة وكانت العرب تكنى عن المرأة بالسرحة النابتة على الماء •• فأعجب الشعر واللحن الخليفة وقال لعلويه : لمن هذا اللحن الجيد فى الكلام الجيد ؟! قال علويه : لعبد من عبيدك يا سيدى جفوته واطرحته من غير جرم ، فقال المأمون : أاسحاق تعنى ؟! •• قال نعم ! •• قال المأمون : يحضر الساعة •• فجأنى رسوله ، فصرت اليه فلما رآنى قال : أدن فدنوت فرفع يديه مادهما ، فانكببت عليه واحتضننى بيديه ، واظهر من برى واكرامى ما لو أظهره صديق مؤانس لصديقه لبره ! ••

فهذه والله قصتى مع علويه حين جفانى المأمون فى بداية خلافته ، لم أنسها ، ولا جحدت فضل علويه بل قمت بحقه حين أصلحت خطأه ، وليس فى ذلك جرح له فان الخليفة يسألنى أن أصلح أخطاء المغنين والمغنيات ، وصارت هذه عادة يعرفها هؤلاء ، فما ذنبى فيما حدث لعلويه فى تلك الليلة حين أصلحت بعض ما أخطأ فيه من ألحان أبى ؟! •

# الطفيلي الظريف

## ● اليوم الاول :

يومي هذا يوم عجيب ، امتد شهرا ، حتى ظن الاهل والاصدقاء والخليفة وأصحاب السلطان ، اني ضللت في الصحراء ، أو دخلت نفقا في جبل ولم أخرج منه ..

غدوت منذ شهر وأنا ضجر من ملازمتي دار الخلافة والخدمة فيها ، فركبت فجرا ، وعزمت على أن أطوف الصحراء متفرجا ، وقلت لغلماني : « ان جاء رسول الخليفة أو غيره ، فعرفوه اني بكرت في بعض مهماتي ، وانكم لاتعرفون أين توجهت » .. ثم مضيت وطفت في الصحراء ما بدا لي ولم أعد الى بغداد الا وقد حمي النهار ، فوقفت في شارع ثخين الظل ، ثم نزلت الى فناء رحب على الطريق استريح ، فجاء خادم يقود حمارا فارها لم أر أحسن منه فراهة ونشاطا ، عليه جارية راكبة ، تحتها منديل كبير من حرير ، وعليها من الملابس الفاخرة ما لا غاية بعده ! .. ورأيت لها قواما حسنا ، وطرفا فاترا ، وشمائل حسنة ، ومن ظرف جواري بغداد انهن يسرفن في السفور عن وجوههن الجميلة ، في حين تسرف الزوجات الحرائر في حجب وجوههن ! ..

خمنت ان الجارية مغنية ، فاني أشم رائحة الغناء ، وأميز الجارية المغنية من غيرها .. يكفي أن أتأمل شفتيها لكي أقول : هذه مغنية ، أو لا أقول ! .. ان الغناء يترك أثرا جميلا خاصا على الشفتين ! ..

دخلت الجارية الدار الكبيرة المطلة على الفناء ، وجاء شابان جميلان

فأستاذنا في الدخول فأسرعت فوقفت معها ودخلت ، فظنا ان صاحب الدار دعاني ، وظن صاحب الدار اني معهما ..

جلسنا في ايوان جميل ، وجيء بالطعام فأكلنا ، وبالشراب فوضع بين أيدينا ، ثم خرجت الجارية وفي يدها عود فغنت وشربنا على غنائها .

ثم قمت لحاجة ، فسأل صاحب الدار ضيفيه عني فأخبراه انهما لا يعرفاني ! .. فقال لهما : هذا طفيلي ، ولكنه ظريف ، فارجو أن تحسنوا عشرته ، فسمعت أحد الشابين يقول : والله ما يستحق هذا الطفيلي أن نحسن عشرته ، ولابد من ضربه وطرده ، فلم يزل صاحب الدار وصاحبه يسترضيانه حتى هدأ ..

عدت فجلست ، وغنت الجارية من الحانى :

**ذكرتك ان مرت بنا أم شـادن**

**امام المطـايا تشرئب وتسنح**

**من المؤلفات الرمل ادماء حـرة**

**شعاع الضحى فى متنها يتوضح**

فسرنى انها أدت لحنى هذا ـ وهو صعب ـ أداء صالحا ، وقد سمعت بعض كبار المغنين أخذوه عنى وظنوا انهم حفظوه وأحكموه ، ويؤدونه أداء فاسدا يصك المسامع ! ..

وغنت أصواتا شتى ، حتى غنت لحنى الذى يقول العارفون الحذاق انه من أوابدى وبدائعى .. وسمعت فيه من يقول : لو عـاش معبـد وهو من سادة القدماء فى التلحين لما شق غبار اسحاق فى هذا اللحن .. ذلك انه فى بيتين فقط من عشر كلمات ، وهما :

**الطلـول الدوارس**

**فارقتهـا الاوانس**

**أوحشت بعد اهلها**

**فهى قفـر بسابس**

فاول بيت اربع كلمات ، بدأت بها نشيدا ، وتلوته بالبسيط ، وجعلت فيه صياحا الى ذروة الصوت ، ثم اسجاحا وترجيحا للنغم واختلاسا فيه .. هذا كله فى هذه الكلمات الاربع ، ثم صنعت فى البيت الثـانى ما يوافق ما صنعته فى الاول .. فلما سمع العرفاء والحذاق هذا اللحن قالوا ماسمعنا ان أحدا من القدماء أو من المعاصرين استطاع أن يصنع مثل هذا أو يقدر على شىء منه ! ..

تتبعت أداء الجارية مشفقا عليها من خطأ تقع فيه ، أو عجز عن أداء نغمة صعبة ، ولكنها مرت فى اللحن ، فكان أمرها فيه أصلح من أمرها فى اللحن الاول ! ..

ثم غنت من شعرى وتلحينى :

**قل لمن صـــد عاتبـــا**

**ونأى عنـك جانبـــا**

**قد بلغـت الـذى اردت**

**وان كنت لاعبـــا**

فكان أصلح ما غنته من الحانى ، فطربت وشربت عليه ، ثم بدا لى ان ارشدها الى شىء فى هذا اللحن ، فرمانى أحد الشابين الضيفين بالنظـر الشزر . وهو الشاب الذى كان يقترح ضربى وطردى . وقال لى بلهجـة تبينت فيها حمقه وسوء أدبه :

ـ ما رأيت طفيليا أصفق وجها منك ! ٠٠ لم تقنع بالتطفيل حتى اقترحت وهذا غاية المثل : « طفيلي مقترح » ! ٠٠

فاطرقت ولم أجبه ، وجعل صاحب الدار يكفه عني ، حتى قاموا للصلاة ، وتأخرت قليلا ، فأخذت عود الجارية وشددت طبقته وأصلحته اصـــلاحا محكما ، وقمت فصليت ! ٠٠

فلما عدنا ، أخذ ذلك الشاب في عربدته علي وأنا صامت ٠٠ ثم اخذت الجارية العود فجسته وقالت :

ـ من مس عودي ؟! ٠٠

قالوا :

ـ ما مسه أحد منا ! ٠٠
قالت :

ـ بلى والله لقد مسه حاذق متقدم وشد طبقته وأصلحه اصـــلاح متمكن من صناعته ! ٠٠

فقلت لها :

ـ أنا أصلحته ! ٠٠

دهشت الجارية ثم قالت لي :

ـ فبالله خذه واضرب به ! ٠٠

فضربت به ضربا طريفا عجيبا صـــعبا ، فما بقي أحد منهم الا وثب على قدميه وجلس بين يدي ، حتى ذلك الشاب الذى اقترح طردى وأكثر من التهجم علي والانكار لحالي ! ٠٠

وقال لي صاحب الدار :

ـ يا سيدى أتغني ؟! ٠٠

ـ نعم ٠٠ وأعرفكم بنفسي ٠٠ أنا اسحاق بن ابراهيم الموصلي ٠٠ والله اني لأتيه على الخليفة اذا طلبني ، وأنتم تقولون لي ما أكره منـــذ اليـــوم لاني تملحت معكم ٠٠ والله لانطقت حرفا ولا جلست معكم حتى تخرجوا هـــذا الشاب المعربد المقيت الغث ! ٠٠

فقال له صاحبه : من هذا حذرت عليك ، وانك لتجترىء على من لاتعرف، فأخذ الشاب يعتذر لي ، فرأيت أن أزداد تملحا معهم وظرفا ، بأن أقبـــل عذره ففعلت ، وبدأت فغنيت الاصوات التى غنتها الجارية من صنعتي ، وهي تسمعني وتزداد لها حفظا وتحكمها حرفا حرفا ٠٠ فأطربني منها ذلك كما اطربني غناؤها وجمال وجهها وحلاوة شمائلها ! ٠٠

ثم قال لي صاحب الدار :

ـ يا سيدى ٠٠ هل لك في خصلة ؟

ـ ما هى ؟! ••

ـ تقيم عندى شهرا ، والجارية لك ! ••

فاقمت عنده ثلاثين يوما ، لا يدرى أحد من أهلى وأصدقائى ، ولا يدرى الخليفة المأمون أين أنا •• وسمعت من الرجل ـ وكان يخـــرج أحيانا من بيته ثم يعود ـ ان المأمون أطلق مناديا يطلبنى فى كل موضع فلا يعرف لى خبرا وقد ظن انى هلكت وحيره أمرى ، وحير الناس فى بغداد ! ••

فلما كان اليوم الاخير أخذت الجارية فجئت منزلى ، وتلقـانى أهلى كأنى قادم من العالم الاخر •

وركبت الى أمير المؤمنين من وقتى ، فلما رآنى قال بصوت فيه لهفة :

ـ اسحاق ؟! •• ويحك ! •• أين تكون ؟! •• كدنا والله نيـأس من عودتك ، وقلنا ابتلعته الصحراء •

فاخبرت أمير المؤمنين بالقصة ، فامر باحضار الرجـل الذى حللت عليه ضيفا طيلة الايام الثلاثين وأخذت منه الجارية ، وقال له المأمون •

ـ أنت رجل ذو مروءة ، وسبيلك أن تعان عليها ! ••

وامر له بمائة ألف درهم ! ••

ثم قال لى المأمون متبسطا ضاحكا :

ـ أحضرنى هذه الجارية يا اسحاق ، فقد وجب أن نسمع منها ما سمعت ، لنعرف فضلها فى الغناء الذى اعترفت لها به ، وقلما رأيتـك تعترف لمغن ولا مغنية بفضل فى الغناء ! ••

فلما سمع المأمون الجارية طرب وشرب ، وأمر لى بجائزة ، ولها بخمسين ألف درهم •• ثم قال لى :

ـ قد جعلت لها نوبة فى كل يوم ثلاثاء تغنينى وراء الســـــــتارة مع الجوارى ! ••

فربحت والله بتلك الرحلة فى الصحراء ، وأربحت ! •• وفزت بجارية مغنية ، ما فى العراق كله مثلها ، ولا سمعت من حلق مغن ولا مغنية لحنا لى يؤدى على وجهه ، الا منها •••

## ● اليوم الثانى :

قال لى المأمون اليوم : حدثنى عن ليلة دخلت فيها على الرشـــيد رحمه الله وبين يديه جواريه : سحر وضياء وخنث ! ••

فقلت للمأمون :

يا أمـير المؤمنـين انى لم أرهن بين يديه مجتمعــات ، ولكنى أحدثك بخبرهن ! •• فان الرشيد رحمه الله أرسل الى ذات ليلة فدخلت عليه فاذا

به جالس وبين يديه جارية عليهـا قميص وردى وسراويل وردية كأنهـا ياقوتة على وردة ، فلما رآنى قال لى : اجلس وغن ! ..

فغنيت لحنا فى قول الشاعر :

**تشكى الكميت الجرى لما جهدته**

**وبين لو يسـتطيع أن يتكلما**

فطرب وقال لى : لمن هذا اللحن ؟! ..

قلت : لى يا أمير المؤمنين ، فقال : ان لابن سريج فى هذا الشعر لحنا فهاته .. فغنيته اياه فطرب وشرب رطلا وسقى الجارية وسـقانى .. ثم قال : غن ! .. فغنيته :

**هاج شـوقى بعدما شيب**

**(( م )) اصـداغى بروق**

**موهنـا والبـرق مما**

**ذا الهوى قدما يشـوق**

فقال : لمن هذا اللحن ؟! .. قلت : لى .. قال : قد كنت سمعت فيه منك لحنا آخر .. قلت : نعم .. لحـن ابن محـرز .. قال : هاته ! .. فغنيته فطرب وشرب رطلا وسقى الجـارية وسقانى ، ثم قال غن ! .. فغنيته :

**افاطم مهلا بعض هـذا التدلل**

**وان كنت قد ازمعت هجرى فاجملى**

فقال لى : ليس هذا اللحن أريد فى هذا الشعر ، ولكن أريد لحن ابن سريج فيه ، فغنيته اياه وشرب وشربت وشربت الجارية ..

ثم قال وقد تملكته نشوة :

ـ حدثنى ! ..

فجعلت أحدثته باخبار العرب وأيامهم ، ثم باحاديث المغنيات والمغنين ، وأنشده أشعار الندماء والمحدثين .. حتى أقبل وزيره الفضل بن الربيع فكأنما أعتقنى فقد كنت تعبت من الغناء والكلام ، فحدثه الفضل عن ثلاث جوار حسان ظريفات أديبات ، وكأنه يحرضه على طلبهن منه ، ففطن الرشيد وقال له :

ـ هل تسخو نفسك بهن ؟! ..

فانتهزها الفضل بن الربيع فرصة وقال :

ـ والله يا أمير المؤمنين انى لاسخو بهن وبنفسى ، فبهـا فـداك الله تعالى ! ..

فعجبت لمعرفة الفضل بن الربيع من أين يأكل كتف أمير المؤمنـين ، ولا

عجب ، فهو الذى أغراه ودبر له نكبة البرامكة ·· وكان لا يفتأ يجيء اليه بما يسره من الجوارى ومتاع الدنيا منذ تلك النكبة ! ··

ثم قلت للمأمون :

ــ فهؤلاء الجوارى ــ يا أمير المؤمنين ــ هن : سحر وضياء وخنث وأجملهن سحر ، فانها ساحرة كاسمها ·· وفيهن يقول الرشيد :

**ان ســـحرا وضـــياء وخنث**
**هن ســحر وضـــياء وخنث**

**اخذت ســـحر ولا ذنب لها**
**ثلثي قــلبي ، وتربـاها الثلث**

فكان لسحر ثلثا قلب الرشيد ·· ولزميلتيها الثلث الباقى ! ··

فضحك المأمون ، وقال لى : هل غنيت شيئا فى هذين البيتين ؟! ··

قلت :

ــ رأيت أمير المؤمنين الرشيد يغار عليهن فجاوزتهن الى غيرهن من ذوات السحر والضياء والخنوثة ·· وصنعت فيهن ما شئت من الالحان ! ··

فاشتد ضحك المأمون وأمر لى بجائزة سنية ! ·· وكان فى تلك الليلة يتفكه بكلامى ولا ينكر ما يسمع عن أبيه ! ··

قل لمن صد عاتبا ونأى عنك جانبا

قد بلغت الذى أردت وإن كنت لاعبا

# مكائـد المغنـين

## ● اليوم الاول :

أشعر أن بصرى يضعف يوما بعد يوم ، وأعالجه فلا يقـوى ، ولا يرد عنه العرج ما يعتريه من ضعف مستمر .. وقد سألت الطبيب : أيكون هذا من أثر ضربة عنيفه على رأسى بقضيب من الحديد نالنى بها فى صـبای بعض الناس ؟! .. فاجاب : نعم صدقت ، وقد لطف الله بك ، فعشت ما سلف من عمرك مبصرا ، وستعيش مبصرا ان شـاء الله ولو عمرت مائة عام ! ..

أنا الان فى الخامسة والسبعين من عمرى ، ولا ينغص عيشى الا ماأحدثه الدهر فى بصرى ، وأخشى يوما يقول فيه الناس : قد صـار اسـحاق الموصلى ضريرا ! ..

دعانى الامير الواثق ولى عهد الخليفة المعتصم الى لقائه فى مدينة « سر من رأى » مقر الخلافة الجديد ، ومعسكر جيش الخليفة فانحـدرت اليها من بغداد فى سفينة من سفن دجلة .. فلما قاربنا شاطىء سر من رأى تناهت الى أسماعنا ضجة هائلة لم نتبين حقيقتها الا حين ألقت السفينة مراسيها على الشاطىء ! ..

رأيت المعتصم يخرج من المدينة بجيش عظيم ، وقيل لى انه خارج لحرب الروم ، لانهم أسروا امرأة عربية يقال انها هاشمية فصاحت وهى تتخبط بين أيديهم « وامعتصماه ! .. » .. فبلغته القصة فخرج على حمية وغضب ليقاتل الروم ويحمى أعراض العرب والمسلمين .

دخلت قصر الخلافة ، والواثق ينـوب فيه عن أبيه ، ولكنه لا يبـالى بالحرب التى خرج اليها أبوه الخليفة المقاتل الذى اعتاد الخروج الى الحرب والعودة منها ظافرا ..

ووافق دخولى القصر ، جلوس الواثق للصـبوح ، فرأيته يجلس وسط المغنين ، لا فوق سريره مختلطا بهم كأنه واحد منهم فى حلقة واحـدة .. وقال لى :

ـ يا اسحاق .. خذ عودا وغن ! ..

فتعللت بوجع عينى ولم أغن ، فقال لى وللمغنين ..

ـ أنا أغنى اذن .. ثم يغنى كل منكم بعدى فى دوره ! ..

غنى الواثق فأجاد ، ثم أخذ أصحابنا يغنون كل فى دوره ، حتى جاء دورى ، فأعتذرت بوجع عينى ، فقال الواثق :

ـ أعود اذن فاغنى ، ثم يغنى كل منكم ! ..

فغنى الواثق ، وغنى المغنون ، حتى جاءت نوبتى فى الغناء فأعتذرت ، فصاح الواثق :

ـ ياخوزى يا كلب ! .. أتواضع لك وأغنى ، وترتفع عنى ؟! .. أترى لو انى قتلتك كان المعتصم يقتلنى بك ؟! ..

ثم امر بضربى ثلاثين مقرعة ، وحلف الا يغنى أحد غيرى سائر ذلك اليوم .. فما زلت أغنى ـ عقابا لى ـ حتى انقضى اليوم وانصرفت بلا جائزة ! ..

● **اليوم الثانى :**

مات المعتصم ، وتولى الواثق الخـــلافة ، وكنت مع الواقفين بين يديه من المغنين والشعراء فى أول مجالسه التى جلسها بعد ولايته الخلافة ، فأنشد الشعراء ، وغنى المغنون ، وقال الحضور فى تهنئته كلاما كثيرا .

ثم خرج الناس ، وبقيت عنده مع بعض خواصه ، فقال لى :

ـ ويحك يا اسحاق .. أما اشتقت الينا ، فقد انقضـــت ســـنوات منذ ضربتك ثلاثين مقرعة ، لم نرك ولم نسمع غناءك ، كأنك خاصـــمتنا منذ يومئذ ! ..

فقلت :

ـ بلى والله يا أمير المؤمنين ، قد برانى الشوق اليكم ، وقد قلت فى ذلك أبياتا ! ..

فتهلل وجهه وقال

ـ هاتها يا أبا محمد ..

فأنشدته :

**اشـــكو الى الله بعدى عن خليفته**
**وما اقاســـيه من هم ومـن كبـر**

**لا اســـتطيع رحيلا ان هممت به**
**يوما اليه ولا اقوى على الســـفر**

**انوى الرحيـــل اليـه ثم يمنعنى**
**ماأحدث الدهر فى جسمى وفى بصرى**

ثم غنيته لحنا جديدا من ألحانى فأستعاده ليلة كاملة لا يشرب على غيره .. ووصلنى بثلاثمائة ألف درهم ، فأسعدتنى صلته هذه التى لم يكن جده هارون الرشيد يصلنى بمثلها مع أن الدولة فى عهده كانت تسبح فى بحر

من الذهب والفضة ، وليست الحال الان كذلك ،وليس في بيت مال الدولة ولا في بيت مال الخليفة الخاص الا الشيء اليسير ! ٠

## ● اليوم الثالث :

دخلت دار الواثق ، فسـمعت صوت عود وترنما ، فلما بلغت مجلس الواثق قال لى : « أى شيء سمعت الآن يا اسحاق ؟! » ٠٠ قلت : « سمعت يا أمير المؤمنين ما لم أسمع مثله قط حسنا واطرابا » ! ٠٠ فضحك فقال : « انما هذا فضلة أدب وعلم مدحه الاوائل ، وكثر فى مكة والمدينـة ! ٠٠ أتحب أن تسمعه منى ؟! » ٠٠ قلت : « أى والذى شرفنى بخطابك وجميل رأيك » ٠٠ « يا غلام هات العود ، وضرب الواثق وغنى فى شعر لابىالعتاهية بلحن صنعه فيه :

اضـحت قبـورهم من بعد عزهم
تسفي عليها الصبا والحرجف الشمل
لا يدفعـون هواما عن وجـوههم
كانهم خشـب بالقـاع منجـدل

فلما أتمه قمت فدعوت له دعاء طويلا ، حتى اجلسنى وقال : « أتشتهى ان تسمعه ثانية ؟! » ٠٠ فقلت : « أى والله ٠٠ فهـذا هو الغنـاء الذى يلامس القلوب » ٠٠ فغنانيه ٠٠ فقمت فدعوت له ٠٠ فغنانيه ثالثة ! ٠٠

ثم صاح ببعض خدمه « احملوا الى اسحاق ثلاثمائة ألف درهم » ! ٠ وقال لى : « يا اسحاق ٠٠ قد سمعت ثلاثة أصوات ، وأخذت ثلاثمائة ألف درهم ، فانصرف الى أهلك مسرورا » ! ٠٠

## ● اليوم الرابع :

صار الواثق جيد التلحين والغنـاء وضرب العـود ، وليس فى المغنين ولا الضاربين أحسن منه ولا أعلم بهذه الصناعة ، وهو شديد الثقة بعلمى ، فلا يصنع لحنا الا سألنى عن رأيى فيه ٠٠ وله فى ذلك طريقة لا تتغير ،فانه يقول لى : « قد وقع الينا صوت قديم من بعض العجائز ما سمعه أحد » ٠٠ ثم يأمر من غلمان القصر المغنين من يغنيني اياه فى حضرته ٠٠ فان كـان لحنا جيدا قرظته ووصفته واستحسنته ، والا ذكرت ما فيه من خطأ ، فان كان للواثق هوى فى هذا اللحن سألنى تقويمه واصلاح فساده ! ٠٠

وهو لا يغير طريقته الساذجة هذه فى عرض ألحانه ، كأنه لا يعلم ان أقل الناس فطنة لا تفوته هذه اللعبة ! ٠٠

وقد صنع لحنا فى هذا الشعر :

هل تعلمين وراء الحب منـزلة
تدني اليـك فان الحب اقصاني

هـــذا كتاب فتى طالت بليته
يقول يا مشتكى بثى واحزانى

كما صنع فى شعر ذى الرمة :

خليل عوجا من صـــــدور الرواحل
بجرعاء حزوى وابكيا فى المنازل

لعل انحـــدار الدمع يعقب راحة
من الوجد أو يشـــفى نجى البـــلابل

ولى فى شعر ذى الرمة هذا لحن مشهور يحفظه الواثق ، فلما صنع لحنه هذا فيه أسمعنيه وسألنى رأيى فقلت :

ــ يا أمير المؤمنين ان لحنك هذا الرائع قد أرانى قبح لحنى وسماجته .. ووالله لقد اقتصصت منى وزدت يا أمير المؤمنين بما جئت به فى لحنك من بديع الصنعة ! .

فأمر لى بمائة الف درهم ، ثم قال لىّ :

ــ يا اسحاق .. يعجبنا لحنك :

لقـــد بخلت حتى لو انى ســـألتها
قذى العين من ســـافى التراب لضنت

فهلا اقمت عندنا فطارحت به هؤلاء الغلمـــان المغنين فى القصر ، حتى يأخذوه عنك ويتقنوه ، فاذا اشتهيناه أمرنا منهم من يغنينا به ! ..

فمكثت فى القصر أياما أطارحهم اللحن ، ولا أحد من هؤلاء المغنين يقدر أن يأخذه ، فضلا عن أن يحكمه ويتقنه ، فقلت للواثق : يا أمير المؤمنين .. أخرج لى الجارية « شجا » فستأخذ اللحن وتحكمه .. فامر فأخرجـوها وطارحتها اللحن حتى أحكمته وغنته الواثق فطـــرب ، وأمر لى بمائة الف درهم ..

ان « شجا » هى احدى ربيباتى وتلميذاتى .. اشتريتها صغيرة ، وثقفتها ودربتها على الغناء وضرب العود حتى تخرجت وبرعت ، فأهديتهـا للواثق وصارت من مغنيات قصره ، ولكن جاريته « فريدة » حظيت عنده وتفوقت بجمالها وصوتها النادر ، وكان عمرو بن بانة قد أهداها اليه بعد أن أهديت اليه « شجا » ..

## ● اليوم الخامس :

لم أكد أعود الى بغداد حتى قال لى حاكم بغـــداد : « ان أمير المؤمنـين أمرنى باشخاصك اليه فى سامرا » ! ..

وفى « سامرا » عرفت سبب استدعائى ، فقد صنع الواثق لحنـا فى : « لقد بخلت حتى لو انى سألتها » .. وأراد أن يعرف رأيى فيه ! ..

لقيت عنده المطرب مخارقا ، فأمره بغناء اللحن ، ثم سالني رايي فقلت: هنا غناء فاسد لا أرضاه ، فغضب الواثق وأخرجني من مجلسه ! ..

فلما كان من الغد أرسل من يحضرني اليه ، فرأيت في مجلسه « فريدة » .. لا أحد معه غيرها ، فغنت لحنه هذا فقلت : « هذا لحن صـــــحيح الصنعة والقسمة والتجزئة وما هكذا سمعته أمس من مخارق » .. ثم أخبرت الواثق عن مواضع فساد اللحن كما غناه مخارق ، ففهم ولم يكن قد تبينه في غناء مخارق ، ثم غنت فريدة عدة ألحان أخرى من القديم والحديث ، وقلت رأيي في جميعها مدحا أو طعنا ، فأجازني الواثق ورضي عني ! ..

خرجت من القصر فتبعني خادم للواثق ممن أثق بهم ، فقال لى : « الحمد لله الذى نصرك على مخارق عند أمير المؤمنين ، فانه هو الذى كادك عنــده وقال له ان اسحاق الموصلى شيطان خبيث داعية يقول بحضرتك في الحانك ما يرضيك فاذا خرج عن حضرتك قال لنا ضد ذلك » ..

ثم قال لى الخادم : « ان مخارقا قال لامير المؤمنين : أنا أقيم لك الدليل على خبث اسحاق ، فأغنيه لحنك الجديد ، ولا يقال لة لمن هذا اللحن وسترى كيف يقول فيه ! » .

« فلما حضرت يا أبا محمد غنى مخـــارق اللحن فزاد فيه زوائد كثيرة أفسدته فقلت أنت رأيك الحق فيه ، وأغضبت أمير المؤمنين ، فلما انصرف مخارق قالت فريدة لامير المؤمنين : « ان اسحاق الموصلي يأخذ نفسه بقول الحق في صناعته على كل حال ساءته أو سرته لا يخاف في ذلك ضررا ولا يرجو نفعا ، وقد كاده مخارق عندك فزاد في صدر الصوت فأفسده متعمدا ليطعن اسحاق فيه فتغضب عليه .. وأنا أعرضه على اسحاق كما صنعت انت يا أمير المؤمنين ، وسترى رايه فيه » ! ..

هكذا كادني مخارق الذى كان خادما مغمورا فأخذه أبى رحمه الله فعلمه وهذبه وقدمه للرشيد .

ولولا « فريدة » التى لا فضل لى عليها ، لبلغ مخارق بمكيـدته ما كان يرجو من اقصائى عن مجلس الخليفة ! .. فقـد ساءه حب الواثق لى ، وما يغمرنى به من الجوائز حتى زاد بره بي على كل بر أو اكرام شملنى فى عهد الرشيد والامين والمأمون والمعتصم ! .

# راحة الأرواح

● **اليوم الاول :**

دخلت على أمير المؤمنين الواثق ، فقال لى : يا اسحاق .. أراني الليلة ثقيل المزاج ، غير مرتاح ولا نشيط لسماع شعر ولا غناء .. وقد كانت عندى منذ قليل جاريتك « شجا » التي كنت اهديتها الينا منذ مدة ، وكانت عندى أيضا « فريدة » الجارية التي أهداها الينا عمرو بن بانة .. كلتاهما مطربة بارعة راوية للغناء قديمه وجديده ، فغنتا احسن غناء ، فلم أطرب ، فقلت لهما : قوما عني فلست الساعة نشيطا لسماعكما ، وسيجيء اسحاق الموصلي فلعله يجد لى مخرجا مما أنا فيه من ثقل المزاج ، حتى حضرت يا اسحاق ، فلعلى أجد عندك شيئا ! ..

اخذت أتحدث الى أمير المؤمنين وأروى له النوادر والاضاحيك ، وأقص عليه من أخبار جده الرشيد وعمه المأمون وأبيه المعتصم ، حتى رأيته يتحرك فى فراشه وكان مضطجعا ، فعرفت انه تسلى بما سمع وقارب النشاط .. فأمسكت العود ، فغنيته هذا اللحن فى هذين البيتين من شعرى :

**يا سرحة الماء قد سدت موارده**
**اما اليك طريق غير مسدود**
**لحائم حام حتى لا حيام له**
**محلأ عن طريق الماء مطرود**

فانتفض طربا ، واستعاد اللحن مرارا ، ثم قال لى :

ـ هذا والله يا أبا محمد هو الغناء الذى يخالط النفس ، ويمازج اللحم والدم ، ويضيء وجه الدنيا ! .. هذا والله راحة الارواح ! ..

من عادة الواثق اذا أعجبه مني غناء ، ان ينادينى بكنيتى : « يا أبامحمد » فأخبرته ان عمه المأمون أيضا كان من عادته ان يخاطبنى بكنيتى هذه اذا أعجبه مني شيء ولم يكن يخاطب من المغنين أحدا سواى الا باسمه ، ولم أسمعه قط يخاطبهم الا باسمائهم ! .

والواثق يتشبه أحيانا بالمأمون ، حتى انه يميل الى مذهب المعتزلة ، وقد رأيت عنده مرة القاضى أحمد بن أبى دؤاد يناظر امام أهل السنة احمد بن حنبل ، فاشتد ابن حنبل فى المناظرة فافحم ابن ابى دؤاد ، وحكم له الواثق بالظفر ، ولكن الواثق بقى يميل الى المعتزلة وان لم يغال فى مطاردة علماء

أهل السنة كما فعل عمه المأمون وأبوه المعتصم ..

قال لى الواثق :

ـ اليس لك اهتمام ولا نظر فى مذاهب المعتزلة والسنة وغيرهم يا أبا محمد ؟! ..

فكتمت أمرى عنه ، لانى لا أقول بالاعتزال ولا أراه مذهبا لى ، وانما أنا رجل من أهل السنة ، وقلت له :

ـ يا أمير المؤمنين شغلنى الغناء عن طلب العلم ! ..

قال كأنه ينكر قولى :

ـ فانهم يروون ان عمى المأمون كان يقول عنك : لولا ان اسحاق قد اشتهر بالغناء لوليته القضاء لعلمه وفضله وعفافه .. فأين علمك الآن ؟!

قلت :

ـ كان ذلك يا أمير المؤمنين اذ أنا شاب ، أما الان فقد شغلتنى هذه الصناعة :

ضحك الواثق ، ونشط للحديث وسألنى :

ـ قد كان من لا أذكر من الناس ، روى لى قصة عن لحنك هذا الذى غنيته الآن ، وقعت لك مع عمى أمير المؤمنين المأمون رحمه الله ، فكيف كانت ؟! .

قلت :

ـ يا أمير المؤمنين .. جفانى أمير المؤمنين المأمون رحمه الله بعد قدومه من خراسان الى بغداد وذلك بعقب حربه للامين ، فصنعت هذين البيتين واللحن الذى سمعته فيهما ، وطارحت به علويه الاعسر فغناهما فى مجلس المأمون ، فلما علم ان الشعر واللحن لى ، استدعانى ورضى عنى واتصلت خدمتى له ، وأكرمنى ورفع قدرى ! ..

قال الواثق ، وهو بى كعادته شديد الاعجاب :

ـ والله .. لو لم يكن لك من الشعر الا هذان البيتان لكنت بهما شاعرا .. ولو لم يكن لك الا هذا اللحن فيهما ، لكنت به من أئمة الملحنين ! ..

## ● اليوم الثانى :

فى سهرة الليلة عند الواثق غنت جاريته « فريدة » لحنا لى فى قولى :

**لاسماء رسم عفا باللوى**

**اقام رهينا لطول البلى**

فبلغت هذه الجارية بالخليفة وبى غاية الطرب .. ولقد سمعت أبرع المغنيات فى قصور الخلفاء والامراء والوزراء من أيام الرشيد الى أيام الامين

فالمأمون فالمعتصم حتى أيام الواثق ، فما أظن انى سمعت مغنية أحسن منها غناء .. وان الواثق لعلى حق فى هيامه بها ! ..

قال لى الواثق معجبا :

ـ يا أبا محمد .. لله در هذا اللحن ، ما أجمله وما أكمله : وما أوثق أقسامه وأوزانه .. وما أعرف لك لحنا الا وقد اكتسى من حسن الصنعة أبهى الحلل فبحياتى .. غننى لحنك :

الطلول الدوارس
فارقتها الاوانس
اوحشت بعد اهلها
فهى قفر بسابس

فغنيته اللحن ، وكان قد حضر مخارق وعلويه ، كما حضرت « شجا » الجارية التى أهديتها لامير المؤمنين ..

فقال الواثق لمخارق وعلويه :

ـ هل تحسنان غناء هذا اللحن ؟! ..

قالا

ـ اسحاق لا يرضى بأن يطارحنا اياه حتى نحفظه ، لانه شديد الضن به ..

قال :

ـ فان « شجا » تحفظه ، ولم يضن به عليها ..

ثم أمرها فغنته ، فكاد الخليفة يخرج من ثيابه طربا ، وقال لى :

ـ يا أبا محمد .. والله لو عاش ابن سريج ومعبد وابن محرز وابن عائشة ما شقوا غبارك فى هذا اللحن الفائق العجيب ! ..

ثم التفت الى مخارق وعلويه وسألهما :

ـ ماذا رأيتما فى هذا اللحن ؟! ..

قالا :

ـ انه جيد يا أمير المؤمنين .

فغضب حتى تهدج صوته وهو يقول لهما :

ـ ليس عندكما فيه الا هذه الكلمة التى لا تفى بأدنى حقه ؟! .. انكما أحمقان لا تعرفان شيئا ! ..

ثم قال لى وقد هدأ وسرت فى صوته رنة اعجاب واعزاز :

ـ أول بيت فى لحنك هذا أربع كلمات فقط : « الطلول » كلمة .. و « الدوارس » كلمة .. و « فارقتها » كلمة .. و « الاوانس » كلمة ..فما

تركت والله يا اسحاق شيئا من الصنعة يتصرف فيه المغنى الا ادخلته فى هذه الكلمات الاربع ! ‥ بدأت نشيدا ، ثم تلوته بالبســـيط وجعلت فيه صياح جواب ، واسجاج قرار ، وترجيحا للنغم ظاهرا ثم اختلاســا فيها ‥ وكل هذا فى أربع كلمات ! ‥ فمن يقدر على هذا الامر العظيم ؟! ‥ وهل صنع أحد تقدم أو تأخر مثل هذا قط ! ‥

فخجل مخارق وقال :

ـ صدق أمير المؤمنين ‥ قد لحق اسحاق الاقدمين ، وسبق الاحدثين !.

أما علويه فلزم الصمت ، وان فيه لحسدا ، وفيه لجاجة ومكابرة ! .

## ● اليوم الثالث :

ضـــجرت من ملازمة دار الخـــلافة والغناء فيها كل ليلة ، وقد كبــرت ومللت هذا العيش ، فخرجت فى بكرة النهار أطوف بالصحراء واتفرج ، ثم عدت وقد حمى النهار حتى بلغت فناء قصر ظليـل على الطــريق ، فوقفت استريح ، فرأيت شابين يدخلان الدار فدخلت معهما ، فظنا ان صاحب الدار دعانى ، وظن صاحب الدار انى معهما ‥ وخرجت الينا جارية فغنت هذا اللحن من ألحانى :

ذكرتك ان مرت بنا أم شـــادن
امام المطـــايا تشرئب وتسنح
من المؤلفات الرمل ادماء حــرة
شعاع الضحى فى متنها يتوضح

فأدته اداء صالحا ، ثم غنت أصواتا شتى مما لحنته انا أو غيرى ، حتى طلب منها الحاضرون أن تغنى لحنى :

قل لمن صد عاتبـــا
ونأى عنـــك جانبا
قد بلغت الذى اردت
وان كنت لاعبـــا

فاستعدته منها لاصححه لها ، فهمس صاحب المنزل الى الرجلين اللذين دخلت معهما يسألهما من أكون فأخبراه انهما لا يعرفانى ، ثم قــال أحــد الرجلين : لابد انه طفيلى ، ولو عرفنا انه كذلك ما أدخلناه معنا ، ثم أقبل هذا الرجل على فقال لى :

ـ يا هذا ‥ ما رأيت طفيليا أصفق وجها منك ! ‥ لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت ، وهذا غاية المثل : « طفيلى مقترح » ‥ فاطرقت حياء ولم أجب الرجل بشىء ، وجعل صاحبه يكفه عنى فلا يكف ! ‥

فلما نودى لصلاة العصر قاموا للصلاة ، وتأخرت عنهم قليلا فأخذت عود الجارية ـ وكانت قد انصرفت حتى يفرغوا من الصلاة ـ فشـــددت طبقته

واصلحته اصلاحا محكما ‏·· ثم قمت فصليت ‏··

فلما عدنا ، عادت الجارية فأخذت العود فجسته فأنكرت حاله ، فقالت : من مس عودى ؟! قالوا ما مسه أحد ·

قالت : بلى والله ‏·· لقد مسه حاذق خبير ، وشد طبقته ، وأصلحه اصلاح متمكن من صناعته ! ‏··

فقلت للجارية : أنا أصلحته ! ‏··

فدهشت وقالت : فبالله خذه واضرب به ! ‏··

فأخذته وضربت به ضربا صحيحا ظريفا عجيبا صعبا ، فما بقى أحد منهم الا وثب فجلس بين يدى ‏·· وقالت الجارية : بالله يا سيدى اتغنى ؟! ‏··

قلت : نعم ‏·· واعرفكم نفسى · أنا اسحاق بن ابراهيم الموصـــلى ! ‏·· ووالله انني لأتيه على الخليفة اذا طلبنى وانتم تخاطبونني بما أكره منذ اليوم لانني تبسطت وتملحت معكم ! ‏··

فاعتذروا لى أشد الاعتذار ، حتى أوشكوا أن يبكوا ، وقامت الجـارية ، فقبلت رأسي وقالت :

ـ يا سيدى ‏·· والله لو عرفناك لرأيت منا أحسن ما تحب ممن يعرفون عظيم قدرك حق المعرفة ! ‏··

فغنيتهم الاصوات التى غنتها الجارية من صــــنعتى ، لتعرفها على وجهها الصحيح ، واردت بذلك منفعتها ، فكانت تسمعنى وتبكى طربا وفرحا بمـا تهيأ لها من سماعى ، ولم تكن تحلم بذلك ولا خطر فى بالهـا قط ، وانمـا كانت تحفظ الحانى ممن يروونها صوابا أو خطا ‏··

اقمت عندهم أياما على أحسن حال ، وصاحب الدار يقوم بخدمتى أعظم قيام ولو استطاعت الجارية أن تطعمنى من لحم جسدها لفعلت اعظاما لى وسعادة بما بلغته من سماع الحانى من فمى لا من أفواه الرواة ! ‏··

فلما انقضت أيامى عندهم ، ركبت الى الخليفة ، فلما رآنى قال : ويحك ! ‏·· أين كنت ؟! ‏·· فأخبرته ! ‏·· فأستدعى الرجل الذى حللت عليه ضيفا وأجازه بمائة ألف درهم ! ‏··

أما الجارية فأمر لها بخمسين الف درهم ، وجعل لها نوبة كل أسبوع تغنى فيها من وراء الستارة مع الجوارى

فلما انقضت أيام ، قلت لامير المؤمنين الواثق ،وقد فرغت من غناء لحنى : « قل لمن صد عاتبا » :

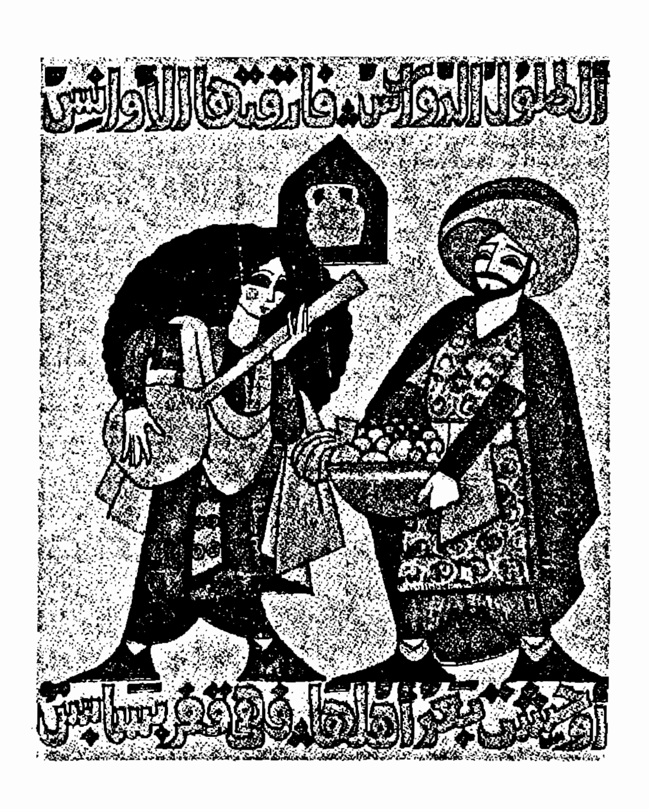
ـ يا أمير المؤمنين ‏·· والله لولا ان ذلك الامر قد وقع لى ، ورأيته بعينى ، ما صدقت منه شيئا ! ‏··

ـ وما هو ؟! ‏··

ـ رحلتي فى الصحراء ، والجارية وصاحبها وما أجزتهما به من المال ..
ـ وما فى ذاك ؟!

ـ فيه والله أعجب شيء رأيته قط ، فان هذه القصة بحذافيرها وقع لى مثلها فى عهد أمير المؤمنين المأمون ، وخرج المنادون فى بغداد يصيحون باسمى ، حتى عدت وقصصت عليه قصتى فاستدعى الجارية وصاحبها وأجازهما ، وليس بين تلك الجارية وصاحبها أدنى شيء يصلهما بالجارية وصاحبها اللذين وقفا بين يديك يا أمير المؤمنين ، وان بين القصتين لاكثر من خمسة وعشرين عاما ! ..

فلبث الواثق يتعجب ويقول : سبحان الله ! ..



# الحيـــاة ١٢٠ ســـنة

**● اليوم الاول :**

عشت ستين عاما فى دولة بنى أمية ، رأيتها فى ارتفاع راياتهـــا وفى سقوطها تحت أقدام أبى مسلم الخراسانى داعية الدولة العباســـية وقائد جيوشها الزاحفة من خراسان الى العراق والشـــام ومصر وغيرها من بـلاد المسلمين ..

كنت فى دولة بنى أمية أجلس الى المغنين وأحفظ ألحانهم ، حتى استقامت لى طريقة حسنة في التلحين والغناء ، ورويت كل ما حفظته عن الفحول من مطربى مكة والمدينة ، كابن سريج ومعبد والغريض وابن عائشـة ولم يفتنى سماع أحد الا الرعيل الاول الذى نشأ الغناء على يديه فى المدينة ومكة أمثال طويس وسائب خاثر وبعض قيان المدينة ، فهؤلاءلم أدركهم ، ولكنى رويت غناءهم عمن أخذوه منهم وصار الناس يرددون اسمى : « يحيى المكى » .. ويطلبون سماعى ! ..

فلما سقطت دولة بنى أمية لبثت لا أجد منتجعا لى عند الخليفة العبـاسى الاول ، ثم جاء الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور فكان ينكر على أهل بيته وعلى قواده وعظماء دولته ، سماعهم الغناء ، ويمنع أن يرتفع صوت بالغناء أو عزف الطنبور فى قصره ! ..

حتى ذهب أبو جعفر وجاء ابنه الخليفة المهدى ، فانفتح لى وللمغنين باب الارتزاق عنده .. وقدمت من الحجاز الى بغداد على المهدى فى أول خـلافته مع كثير من مطربى مكة والمدينة الذين أوشكت صناعتهم أن تبور ..

ولم يبق فى بغداد بعد طول التردد على الخليفة المهدى أحد من هؤلاء ، وبقيت وحدى ، يسمعنى ويجيزنى ، ورأيت عنده المطربين الناشئين ابراهيم الموصلى واسماعيل بن جامع .. كلاهما نابغة فى باب من هذه الصـــناعة ، ولكنهما لم يكونا على علم تام بالغناء القديم ، ولا يرويان منه ما يرتفـع به شأنهما عند الخليفة ، فكانا ـ ومعهما آخرون من طبقتهما ـ يفزعـــون الى دارى وينفرد كل منهم بى فيقاسمنى جائزته ويأخذ عنى بعض ما أرويه من غناء القدماء .. فلما اشتد ساعدهم ورووا مما حفظته شـيئا غير قليـــل ، أخذوا ينافسوننى ويكايدوننى ويطعنون فى روايتى للغناء القديم ويزعمـــون اننى أنتحل غناء القدماء فأنسبه لنفسى ، ثم انحل هؤلاء القدماء من غنائى ما ليس لهم ، فأنسبه اليهم ! .

وقال بعضهم : قد كثر الانتحال والوضع فى الغناء كما كثرا فى الشعر وفى الحديث وفى أخبار أيام العرب ، ولابد من ضبط رواية الالحان القديمة ضبطا محكما حتى لا يقع فيها تخليط للرواة والوضاعين ! ..

لكن المغنين لم يثبتوا لى ، لانهم ليسوا على شيء فى رواية الغناء ولم يفلحوا عند الخلفاء الا بما صنعوه من الالحان الجديدة .. حتى نشأ اسحاق بن ابراهيم الموصلى فضبط رواية الغناء القديم ، وأخذه من مظانه ، واجتهد فى تدوينه ، وصيره علما بذاته ، وأخذ يبين للناس منحولاتى .. وطاردنى فى مجالس الخلفاء وكشف أمرى ! ..

كنت أغنى فى سهرة عند بعض الكبراء ، واسحاق الموصلى فيمن حضر ، فغنيت من الحان مالك ، فسألنى بعض من حضر عن صانع هذا اللحن ، ولم أتنبه الى وجود اسحاق الموصلى ، فقلت : هذا من صنعتى ، فصاح اسحاق : ماذا تقول يا شيخ ؟! .. فتنبهت وقلت : انما كنت أمزح ، فهذا من ألحان مالك ! ..

ثم غنيت لحنا لى فسئلت عن صاحبه فنسبته الى الغريض فقال لى اسحاق: يا يحيى .. هذا ليس من نمط الغريض ولا طريقته فى الغناء ، فاستحييت من كذبى ، فلما انصرف اسحاق ، بعثت اليه بهدية استرضيه بها وأكف شره عنى وكتبت اليه : « لست ممن يتصدى لمباغضتك ومباراتك فتكايدنى .. وانت محتاج الى أن أفيدك وأعطيك مما أرويه وحدى ولا تجده عند غيرى، فاذا أخذت ذلك عنى سموت به على أكفائك ، وحملت سلاحا اذا حمله عليك غيرك لم تقم له » ! ..

فعرف اسحاق أننى صدقته النصيحة فاعتذر الى وحلف لا يعارضنى بعدها ، ولكنه شرط على الوفاء له بما وعدته من الفوائد ، فوفيت له بها ، وأخذ منى كل ما أراد من غناء المتقدمين الذين رأيتهم وسمعتهم ولم يرهم هو ولم يسمع منهم شيئا .. ولم يعاود اسحاق معارضتى بعد ذلك ، لكنى كنت اذا سئلت فى حضوره عن شيء صدقت فيه ، واذا غاب اسحاق قلت ما شئت وأكثرت من التخليط ، لانى لا أحب أن أبذل علمى لمن يطلبه بغير مقابل من المال أو النفائس ، فقد تعبت أشد التعب طوال ثمانين عاما فى جمع ما ارويه من الغناء ، ثم يجيء الناس فيسألوننى أن ابذله لهم ، ولم يبذلوا لى شيئا .. فكيف يلوموننى اذا ضننت عليهم ولم أعطهم مايطلبون ؟!

## ● اليوم الثانى :

نقض اسحاق الموصلى عهده الذى قطعه لى وكادنى عند أمير المؤمنين الرشيد مكيدة موجعة ، لم أعرف كل تفاصيلها الا بعد وقوعها وافتضاحى بها ! ..

فقد قال اسحاق للرشيد : أتحب يا أمير المؤمنين أن أظهر لك كذب يحيى المكى فيما ينسبه الى القدماء من غناء ، وما ينسبه الى نفسه وخلطه بين صناعته وصناعتهم ؟! ..

قال له الرشيد :

ـ نعم ! ٠٠ وهذا شعر جديد فأصنع فيه لحنا جديدا وغننى فيه ٠٠ ثم أسألك اذا حضر وسمع اللحن عمن صنعه فتذكر لى اسما لا أصـــل له ، ثم نرى ما يقع من يحيى ! ٠٠

فلما حضرت مجلس الرشيد غنى اسحاق اللحن ، فسأله الرشــــيد : لمن هذا اللحن يا اسحاق ؟! ٠٠ قال اسحاق : هو يا أمير المؤمنين لغنـــاديس المدينى ٠٠ كان من حذاق المغنين فى المدينة ومكة ، وكان ممن أخذ عن معبد والغريض ! ٠٠

فاقبل الرشيد فقال لى ، وأنا غافل عن المكيدة :

ـ يا يحيى ٠٠ أكنت لقيت غناديس فى مكة أو فى المدينة ، وأخـذت من صنعته شيئا ؟! ٠٠

قلت بثقة وغرور :

ـ نعم لقيته وأخذت عنه صوتين ! ٠٠

قال الرشيد :

ـ فغننا صوتا مما أخذت عن غناديس !

فاندفعت فغنيت لحنا من ألحانى لم يكن الرشيد ولا أحد غيره قد سمعه ٠ ثم قلت : هذا يا أمير المؤمنين أحد الصوتين اللذين أرويهما عن غناديس ! ٠٠

فضحك الرشيد حتى استلقى على فراشه ، وقال لى :

ـ يا لكع ! ٠٠ الآن عرفنا كذبك وتخليطك فى رواية الغناء ٠٠ فما خلق الله مغنيا فى مكة ولا فى المدينة اسمه غناديس ٠٠ وانما وضع اسحاق هذا الاسم هنا فى وقته ٠٠ وقد انكشف الآن أمرك ! ٠٠

فكدت أموت غما وكمدا ، ولم أحر جوابا من فرط الخجل والسقوط حتى أشفق على الخليفة فقال لى :

ـ لا بأس عليك يا يحيى ! لئن كنت وضاعا مختلقا فيما تنسبه الى القدماء ٠٠ انك فيما تنسبه الى نفسك من غناء لمطبوع كثير الصـــنعة ، ولقد رويت ما لم يروه أحد من المغنين ، وعلمت ما جهلوا ٠٠

ثم التفت الى اسحاق وسأله :

ـ ما تقول يا اسحاق ؟!

قال وكأنه يسترضينى بعد الذى نكبنى به :

ـ والله ما أعرف أحدا أروى منه ، ولا أصح أداء للغناء ، ان كان مايغنيه له أو لغيره !

فابتسم الرشيد وأمر له ولى بجائزة !

## ● اليوم الثالث :

صنعت حتى يومى هـذا ثلاثة آلاف لحن ، منهـا زهاء الف لحـن لم يقاربنى أحد فى جودتها ، والباقى متوسط ، وأنا والله أستاذ هذه الطبقة من المغنـين التى تتصـدر مجالس الرشيد ورجال دولته ‥ وان ابراهيم الموصلى واسماعيل بن جامع وهما المقدمان فى الغنـاء والتلحين ، ليعترف كلاهما بأستاذيتى ‥ وأرى أن اسـحاق الموصـلى أفضل من أبيه رواية وصنعة وان لم يكن أطيب حلقا ، وهما فى الحقيقة يجيئان فى حسن الحنجرة بعد ابن جامع ومخارق وعلويه واكثر المغنين ، ولكنهما يتقدمان كل التقدم بالصناعة والعلم والحذق فى الاداء ، وهذا ما برعا به جميع هؤلاء المغنين ذوى الحناجر المطربة ! ‥

وقد غنيت مرة عند الرشيد ، فسألنى كم لحنا صـنعت ، فذكرت له عددها ، فسألنى كم سنة عشت حتى يوم الناس هذا ، فقلت : قرابة مائة وعشرين عاما ! ‥ فصاح ابراهيم الموصلى :

ـ انى والله ما عشت بعد نصف عمرك هذا ، وقد شاب رأسى وسـقطت أسنانى ، ويكاد القولنج أن يقتلنى ، وأراك على شـيخوختك التى حطمت السنين ، صحيح السمع والبصر والعقل ، قادرا على الغناء والتلحـين ! ‥ فزادك الله يايحيى من عافيته وأحسن اليك ، ورزقنا بعض ما رزقـك من العمر والعافية ! ٠

فاختلط حسد الموصلى بدعائه ، وعرف ذلك فى كلامه كل من سـمعه ، ورأيت الخليفة يشيح بوجهه عن الموصلى ، فان هارون الرشيد ـ على جبروته ـ رقيق القلب ، محب للناس ، كثير العطف على الشيوخ والضـعفاء ! ‥ وقد كانت حالى ساءت عند الرشيد لما وقر فى نفسه من كذبى فى الرواية ، ثم صلحت حالى عنده وعرف أن قدرى فى الصناعة فوق أقدار من يغشون مجلسه من المغنين ، مع كل ما يعتقده الرشيد من تخليطى فى الرواية ونسبة الالحان ! ‥

وقد غنيته أمس :

**متى تلتقى الاحبـاب والعيس كلما**
**تصـعدن من واد هبطـن الى واد**

فلم أزل أغنيه اياه ، ويتناول قدحا ، حتى عددت عشر مرات ، استعاد فيها اللحن ، ثم أمر لى بعشرة آلاف درهم ‥ وقال : والله ما يحسن غناء هذا الا يحيى المكى ! ‥

## ● اليوم الرابع :

غنى ابن جامع فى السهرة عند الرشيد هذا الصوت القديم :

**انى امـرؤ مالى يقى عرضى**
**ويبيت جارى آمنا جهـلى**

وأرى الذمامة للرفيـق اذا
ألقى رحـــالته الى رحـلى

فلم يزد ابن جامع على غناء البيت الاول شيئا ، فاطرب الرشيد وأعـطاه عشرة آلاف درهم وعشرة خواتيم وعشر خلع .. فلما انصرفنا جاءنى ابراهيم الموصلى واستغاث بى أن أطرح عليه هذا اللحن كله فى بيتى الشعر جميعا ، لا فى البيت الاول وحده الذى غناه ابن جامع ووقف عنده ولم يعرف كيف يغنى البيت الثانى ..

قلت للموصلى :

ـ أفرأيت ان زدتك البيت الثانى الذى لم يعرفه ابن جامع أو كان يعرفه ثم نسيه ، وطرحته عليك حتى تأخذه وتحكمه وتغنيه للخليفة .. ما تجعل لى ؟! ..

قال :

ـ النصف مما يصل الى يدى بهذا الصوت ! .

فألقيت عليه الصوت فى البيتين معا حتى أتقنه ، فلما حضر مجلس الرشيد غنى الصوت وجاء بالبيت الثانى الذى لم يجىء به ابن جامع ، فطرب الرشيد واستعاده مرارا ، وحمل الموصلى الجائزة الى بيتى فقاسمنى ! ..

## اليوم الخامس :

امتد بى طريق الحياة .. حطمت العشرين بعد المائة من عمـرى ، ومات زملائى فى الصناعة ممن يصغروننى سنا .. مات ابن جامع والموصلى وما أظن الموصلى بلغ الخامسة والستين حين قضى .. وبقيت طبقة الشـــبان كمخارق وعلويه .. وأميرهم فى العلم والرواية والصنعة والاداء هو اسحاق ابن ابراهيم الموصلى ، الا انه أقلهم حلاوة صوت ، وهو فى هذا كأبيه ، ومثله أيضا فى التفوق على منافسيه بالحذق فى الصنعة والاداء والتبحر فى العلم بالغناء القديم ..

ويزاحمنا فى الغناء ابراهيم بن المهدى ، وقد مات أخوه هارون الرشيد ، وتولى الخلافة محمد الامين وما زال شابا حدثا طياشا ولكنه شـــديد الحب للغناء .. وقد غنيته أمس :

خليـــل لى اهيم به
فما كافا ولا شكرا

بلى .. يدعى له باسمى
اذا ما ريـع او عشــرا

فأمر لى بعشرين ألف درهم ، وأراد ابراهيم بن المهـدى أن يأخـــذ عنى الصوت فأبيت أن أعطيه حتى حـكم عليه الامين بأن يعـطينى عشرة آلاف درهم ! ..


من غناء كأنه سكرات الحب
يصبي القلوب والآذانا

# تأويل الرؤيا

## ● اليوم الاول :

قلت لاستاذى ابراهيم الموصلى : الناس يعلمون أن أصلك من فارس ، وان بيتا شريفا كان لك في العجم ، ثم نزل جدك بالكوفة ، ونشأت أنت بها ، فمن أين جاءك لقب الموصلى ؟! ..

قال :

ـ ما أخبرت احدا بسر هذا اللقب ، لكنى أخبرك ، وذلك انى لما صرت صبيا اشتهيت الغناء فطلبته عند بعض المغنين ، فنهانى عنه أخوالى وضيقوا على الخناق ، فهربت الى الموصل وليس لى دينار ولا درهم ، فصحبت جماعة من الصعاليك يقطعون الطريق ويصيبون من هذا الاثم بعض المال ، فيشربون ويغنون ، وكان فيهم بعض من يحسنون الغناء فاخذت عنهم الحانا وتعلمت منهم ، ولم أكن أشاركهم قطع الطريق ، ولكن انتظرهم على مقربة حتى يفرغوا من سلب الناس ما يقدرون على سلبه ، فيقولون لى : الا تشاركنا هذا العمل ؟! .. فأقول : لا أستطيع ! .. فيقولون : نحن نكفيك ونسمع غناءك ، فأنك أشدنا حذقا ، وان كنت تزعم انك تأخذ الغناء عنا ! ..

ثم قال لى الموصلى :

ـ فهذه والله يا مخارق قصة لقبى ، فاكتم هذه القصة عن كل الناس !

قلت :

ـ أفعل ان شاء الله .. ولكن كيف قلت الشعر ، فانك فيه حسن الطبع مجيد ، على أنك لم تتعلم القراءة والكتابة الا كبيرا حين حبسك أمير المؤمنين المهدى ؟! ..

قال :

ـ لا يجيء الشعر من القراءة والكتابة وان عظم شأنهما ، ولكنى نشأت فى بنى تميم الفصحاء ، وأكثرهم شعراء فكنت مثلهم !

ثم احتضن الموصلى عوده ، وضرب عليه ، وغنى :

**اذا سرها امر وفيه مساءتى**<br>**قضيت لها فيما تريد على نفسى**

وما مر يوم ارتجى فيه راحة
فاذكـــره الا بكيت على امسى

فسمعت والله لحنا لم أسمع مثله من قبل جمالا واكتمالا فى أقســامه وأدواره وسائر صنعته ، فقلت له وقد هزنى الطرب :

ـ والله ما يقدر على مثل هذا ابن سريج ولا معبد ولا ابن محــرز ولا امثالهم من شيوخ الغناء العظماء الذين سبقونا ..

فضحك الموصلى ، وكان متواضعا لطيفا ، وقال :

ـ على رسلك يا أبا المهنا .. فوالله ما أنا الا صبى صــغير يلعب بين أيديهم ! ...

● **اليوم الثانى :**

التقيت والمطـــرب الملحن الكبير اســماعيل بن جامع الذى يقــول له الرشيد كلما سمعه : « صوتك يا اسماعيل كالعسل » ! .. فصــحبنى الى بعض قصور آل الربيع .. فجلسنا نســـتمع هناك الى جارية قندهارية الاصل كانوا قد اشتروها صبية وعلموها الغناء على أيدى الموصـــلى وابن جامع وغيرهما ..

غنت الجارية أصواتا من صنعة القدماء ، ثم غنت اللحن الذى ســمعته من ابراهيم الموصلى : « اذا سرها أمر وفيه مساءتى » .. فرأيت ابن جامع يشرئب الى الجارية ويصغى اليها بكل جوارحه ، فما فرغت منه حتى كان ابن جامع قد أثخن طربا ، فقال لها : أعيــديه .. لله أنت ! .. فأعادته مرارا ، وهو يزداد طربا حتى أوشــك أن يشــق ثيــابه ، وانا فى ذلك مثله ، ولكنى أغالب نفسى ، احتشاما لاصحاب القصر ، فانى ما زلت صغيرا، وما كنت منذ سنوات الا خادما عند الخليفة ، أما ابن جامع فأشهر واكبر من أن يحتشم احدا فى مجالس الغناء ، اذا طرب أو شرب ، وهو قرشى من بنى سهم ، فله دالة وحرمة من جهة شهرته العريضة ، ومن أصله الكريم !

فلما خرجنا وركبنا الى قصر أمير المؤمنين ـ وكنا مدعوين للغنــاء فى سهرته ـ قال لى ابن جامع :

ـ ويحك يا مخارق .. نسيت أسأل الجارية عن صاحب ذلك اللحن !

قلت له :

ـ صاحبه ابراهيم الموصلى ! ..

قال ابن جامع ، وكان فيه ميل الى الانصاف :

ـ لظننت والله انه هو صاحبه ، فما يحسن أحد فى أيامنا هــذه أن يصنع ذلك الا الموصلى !

ثم قال لى :

ـ قد ذكرت الساعة رؤيا رايتها فى منامى البارحة :

قلت :

ـ خيرا ان شاء الله ! ••

قال :

ـ رأيت فى منامى كأنى وابراهيم الموصلى راكبان فى محمل ، فهبط الموصلى بالجانب الذى يجلس فيه من المحمل حتى كاد يلتصق بالارض ، وعلوت بالشق الذى أنا فيه ، حتى كأننى ارتفعت الى السماء ، فما تأويل ذلك عندك ، فانى أعلم انك من ذوى الفطنة فى هذا الباب ؟!

فوجدتنى أشعر بالحزن على ابن جامع ، كأنه يموت أمام عينى ، فأنى أظن أن تأويل هذه الرؤيا ان الموصلى يبقى على الارض حيا ، وان ابن جامع يموت وتصعد روحه الى السماء ! ••

لم أرد على سؤاله ، فاستحثنى فادعيت انه لم ينفتح لى باب للتأويل ، فقال لى :

ـ أنا أقول لك تعبير هذه الرؤيا •• فانا والموصلى الان متنافسان ، فلأعلونه فى الغناء حتى أرتفع فوقه ، ويسفل هو حتى يلتصق بالارض !

قلت :

ـ أبقاك الله أيها الاستاذ ، وبلغك أملك ، ولا حرمنا منك أبدا !••

وكدت أجهش باكيا ، فقال لى ابن جامع :

ـ ما دهاك يا مخارق ؟! •• كأنما طرقك من الحزن شىء ! ••

قلت :

ـ لا •• ولكنى ذكرت غناء تلك الجارية القندهارية ، فابتعثت هذه النفثة من صدرى ! ••

قال وقد عاوده طربه لغنائها :

ـ لله تلك الجارية •• ما أحسن غناءها ! •• والله لو غنت لمدنف أوشك أن يموت ، لظننت انه ينهض صحيحا معافى ! ••

قلت فى نفسى :

ـ أنا لله ! •• يأبى أستاذنا هذا الآن يذكر الموت ! ••

### ● اليوم الثالث :

جلست فى سهرة أمير المؤمنين الرشيد بجنب أستاذى ابراهيم الموصلى ، فقصصت عليه ما وقع لى مع ابن جامع ، منذ غنتنا الجارية القندهارية الى أن حدثنى عن رؤياه وتأويله للرؤيا ••

فرأيت الموصلى يصمت واجما ، فانه من أقدر الناس على تعبير الرؤى ثم قال لى :

ـ والله ما يسرنى أن أعيش ويموت ابن جامع .. والله ما أطرب لغناء فى الدنيا طربى لغنائه ، ولوددت أن أشاطره عمرى ! ...

ثم انفرجت أساريره قليلا ، وهمس :

ـ ليت هذه الرؤيا تكون أضغاث أحلام ! ..

بدأت السهرة ، فغنيت أمير المؤمنين لحنا من صنعة ابراهيم الموصـلى فطرب ، وقال لى :

ـ أحسنت يا مخارق وأحسن أستاذك صاحب هذا اللحن ! ..

ثم قال لابن جامع :

ـ يا اسماعيل .. هل من جديد عندك ؟!

قال :

ـ يا أمير المؤمنين .. والله لقد سمعت صوتا جديدا لابراهيم الموصلى ، وددت لو اننى غنيته فى حضرتك ، ولكنى لم أحكمه بعد ولم أتقن حفظه !

ثم قص ابن جامع على الرشيد قصة الجارية القنـدهارية وما غنت من صنعة الموصلى ، فتفكه الرشيد بالقصة ، وأمر الموصلى فغنى الصـوت فطرب له حتى صار يقوم ويقعد من شدة الطرب !

ثم غناه الموصلى لحنا من صنعة شيخ الملحنـين والمغنـين ابن سريج رحمه الله :

**فياحبهـا زدنى جـوى كل ليلة**
**ويا سلوة الايام موعدك الحشر**
**ويا هجر ليلى قد بلغت بى المدى**
**وزدت على ماليس يبلغه الهجـر**
**وانى لتعرونى لذكـراك هـزة**
**كما انتفض العصفور بلله القطر**

فرأيت الرشيد ـ من فرط طربه ـ قد سكن فوق سريره كأنه جمد فلا حراك به ، واتسعت عيناه ، وهو يحاول أن يستمسك بوقاره الملوكى !

انتهت الليلة على خير حال ، وخرجنا نثنى على كرم الرشيد ، ونذكر دقة ذوقه ومعرفته بالغناء ، وقال الموصلى لابن جامع :

ـ كيف لا يكون أمير المؤمنين أحسن الناس معرفة بالغناء وهو يسمعنا منذ خمسة وعشرين عاما ؟! ..

قال ابن جامع ضاحكا :

ـ كأنك تثني على غنائنا لا على معرفة أمير المؤمنين بالغناء ! ..

خشيت أن يذكر ابن جامع رؤياه للموصلي ، أو يذكر له الموصلي ماحدثته عن تلك الرؤيا لكنهما افترقا في سلام ، فحمـــدت الله وقلت : عسى أن تكون هذه الرؤيا أضغاث أحلام كما قال الموصلي ! ..

## ● اليوم الرابع :

صحوت في بكرة النهار ، وليس ذلك من عادتي حين أقضي الليل ساهرا في مجلس أمير المؤمنين ..

تحيرت أين أتجه ، والى من أذهب في تلك الساعة ، ثم صرت الى منزل ابراهيم الموصلي ، فوجدته قد صحا مبكرا مثلي ، وبين يديه ابنه اسـحاق يطارحه لحنا ، فلما فرغا من شغلهما ، قال لي ابراهيم :

ـ يا مخارق .. خذ هذا اللحن الذي سمعته فأتقنه وغنه ، فانك تنتفع به ..

ثم طارحنيه حتى حفظته وأتقنته ، وأسمعته اياه متحفظا مجتهـــدا في أدائه ، لا خوفا منه بل خوفا من ولده اسحاق الذي لا يتهـــاون في خطأ يسمعه حتى من أبيه ، فلما أتممت اللحن ، جعل ابراهيم الموصـــلي يبكي طربا ، ويقول لي مداعبا :

ـ يا مخارق .. نعم وسيلة ابليس أنت في الارض ! .. أنت والله بعدي صاحب اللواء في هذا الشأن ! ..

ثم ازداد بكاء وهو يقول :

ـ والله مافي الدنيا صوت يعدل صوتك الا صوت ابن جامع ؟ ..

واذا خادم للموصلي يدخل عليه ويقول :

ـ يا سيدي ! .. آجرك الله في صديقك وصـــفيك ابن جامع فانه مات منذ ساعة ! ..

انصرف الخادم مسرعا ، ووجم ثلاثتنا ـ أنا والموصلي وابنه ـ ثم انفجرنا باكين ! ..

# الأمير فى ثياب المغنين

## اليوم الاول :

أخيرا وقعت فى قبضة شرطة الخليفة ! ..

وكنت قد استترت مدة عند بعض أقاربى من الهاشميين ، منزويا فى غرفة ضيقة من بيتهم ، لا تفتح نوافذها نهارا ولا ليلا ، أما بابها فلا يفتح الا بيد جارية كلفها أقاربى هؤلاء بخدمتى ، فهى تأتى لى بالطعام والشراب ، ثم تخرج وترد الباب وأقوم أنا فأحكم اغلاقه من الداخل ، لشدة خوفى ، فقد ذهبت من دنياى وذهبت منها ولم يبق لى أمل الا فى عفو ابن أخى الشاب القادم من خراسان عبد الله المأمون ، الذى طالما لاعبته ولاطفته صغيرا فى خلافة أبيه هارون الرشيد أخى ، وسمعته أيامها يهتف باسمى ويقول لى : يا عم .. أحب أن أسمع غناءك ، فأضحك وأقول له : انك مازلت صغيرا يا عبد الله ، ولا يأذن لك أمير المؤمنين بسماع الغناء ! ..

لكنى اليوم مطلوب لسيفه ، ولا ذنب لى ، فان الذى شن الحرب عليه هو أخوه المفتون المأفون ، محمد الامين الذى تولى الخلافة بعد أبيهما الرشيد ، فزينت له أمه « زبيدة » ان ينقل ولاية العهد الى أحد أطفاله ، ويحرم منها أخاه « المأمون » .. ابن « مراجل » الجارية الفارسية التى تزدريها زبيدة الهاشمية التى لم يمسسها الرق ! ..

فلما انهزم الامين وخلع وقتل ، خشى بنو العباس أن تضيع الخلافة من بيتهم ، ويثب عليها بنو على بن أبى طالب ، فأجمع العباسيون فى بغداد أن يبايعونى بالخلافة ، فامتنعت مخافة تبعاتها ، ثم قبلت اذ وجدت ان المأمون لا يبرح خراسان كأنه لا يريد الجلوس على سرير الخلافة الذى ينتظره فى بغداد ! ..

توليت الخلافة وصار لقبى « المبارك » وسمعت من الناس قولهم لى : « يا أمير المؤمنين » .. فأنسانى الجهل ان المأمون مهما يتلبث فى خراسان فلابد من عودته الى بغداد بعد انتصار جيوشه وذهاب خلافة أخيه المقتول

وها انذا أدفع ثمن الجهل ، فان المأمون دخل بغداد وبويع بالخلافة واستقر له الامر ، وأطلق المنادين يصيحون باسمى فى كل مكان ، منذرين كل من يعرف مكمنى ولا يرشدهم عنى ! ..

وقعت فى أيديهم ، ولا أشك أن المأمون قاتلى اليوم أو غدا لاجترائى على

منصب الخلافة بعد سقوط الامين ، وأنا أعلم ان الخـلافة بعد الامين هي للمامون وحده ، وقد علق الرشيد ـ رحمه الله ـ كتابا بذلك في الكعبة وأشهد عليه الناس منذ سنين ! ..

وما تهون نفسي على نفسي ، ولا أجد الدنيا بغيضة الى قلبي ، ولو علمت ان الامور تفضي الى هذه العاقبة ، ما أجبت بني العباس الى بيعتهم لى بالخلافة ولو أجلسوني على عرش في السحاب ! ..

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت مني
هوى الدهر بي عنها وولى بها عني
فان أبك نفسا أبك نفسا عزيزة
وان احتسبها احتسبها على ضـن

وما أعجب تصاريف الزمان ! .. بالامس كنت أميرا للمؤمنين في بغداد ، واليوم أعود الى الشعر أرثي به نفسي ، وأعود الى الغناء والتلحين ، فأعمل في هذين البيتين لحنا ، كأني ذاهب الى مجلس غناء وشراب ، لا الى مجلس أقف فيه على « النطع » ـ بكسر النون ـ والسيف مصلت على عنقي ، ينتظر اشارة من أصبع ابن أخي الخليفة الجديد الذى امتلأ قلبه مني موجدة وغضبا ! ..

## ● اليوم الثاني :

ساقوني مكبلا بالاغلال الى ابن أخي الخليفة المأمون ، ورأيت على وجهه فرح الظافر بعدوه .. وأنا عمه .. أخو أبيه ـ فلم أجد بيانا يسعفني، وخانني لساني ، وكان الناس قديما يصفون فصاحتي وخطابتي وقوة عارضتي وبلاغة شعري ونثري ، ويقولون : ما في الدنيا أفصح من ابراهيم بن المهدى ! ..

لم أجد في ذاكرتي كلمة كان سعيد بن العاص كلم بها معاوية بن أبي سفيان يستعطفه بها ، فاذا بالمأمون يروى هذه الكلمة ويحفظها منذ صباه، فلم تؤثر فيه ولا عطفته الى العفو عني ، وقال لى :

ـ هيهات يا ابراهيم ! .. هذا كلام سبقك به فحل بني العـاص بن أمية وقارحهم سعيد بن العاص وخاطب به معاوية في سالف الزمان ! ..

قلت والدمع في عيني :

ـ مه .. يا أمير المؤمنين ! .. وأنت أيضا ان عفوت فقد سبقك فحـل بني حرب وقارحهم الى العفو .. فلا تكن حالى عندك أبعد من حال سعيد عند معاوية ، فانك أشرف منه ، وأنا أشرف من سعيد ، وأنا أقرب اليـك من سعيد الى معاوية ، وان أعظم الهجنة أن تسبق أمية هاشما الى مكرمة!

أطرق المأمون ـ بعد هذا الحوار القصـير ـ يفكر فقلت في نفسي : ما أظنه يميل الى العفو عني وهو الذى حين دخلت عليه فسـلمت ، رماني بحجر من كلامه صك به وجهي كله وشج جبهتي ، اذ قال : « لا سلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلأك يا ابراهيم » ! ..

فكيف أطمع منه وهو فى هذه الحال من الحقد أن يعفو أو يخفف العقوبة فلا يجعلها قتلا ؟!

حرك المأمون رأسه فى اطراقته فظننت ان حركته التالية هى أن يأمر بضرب عنقى •

فبادرت أقول مرتعدا :

ـ على رسلك يا أمير المؤمنين ! •• فلقد أصبحت وليا لثارى ، وان القدرة تذهب الحفيظة ، ومن مد له الاغترار فى الامل هجمت به الاناة على التلف • وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو •• فان تعاقب فبحقك ، وان تعف فبفضلك ! ••

رفع المأمون رأسه فقال لى :

ـ يا ابراهيم •• ان هذين أشارا على بقتلك ! ••

فالتفت الى « هذين » فاذا المعتصم بن الرشيد ، والعباس بن المأمون ، فاردت الا أغضبهما وهما فى تلك المكانة عند الخليفة فقلت :

ـ يا أمير المؤمنين •• أما حقيقة الرأى فى معظم تدبير الخلافة والسياسة فقد أشارا عليك به ، وما غشاك ، اذ كان منى ما كان •• ولكن الله عودك من العفو عادة جريت عليها ، دافعا ما تخاف بما ترجو ، فكفاك الله !••

فرأيت المأمون كأنه يبتسم ، ثم أقبل على جلسائه ، فقال :

ـ ان من الكلام ما يفوق الدر ، ويغلب السحر ، وان كلام عمى منه !•

ثم أمر الحراس :

ـ أطلقوا عن عمى هذا الحديد وردوه مكرما ! ••

## ● اليوم الثالث :

كان المأمون قد صادر أموالى وأملاكى ، فلم يبق لى بيت أسكن فيه ، واليوم أعاد لى ما صادره ، وأمر لى بخمسة آلاف دينار فنظمت قصيدة فى مدحه ارسلتها اليه ، فبلغنى ان المأمون لما قرأها بكى ، وأمر بأن أرجع الى المنادمة والانس به في مجلسه ، وقال : « لن يرى منى ابراهيم الا مايحب » •• ودعا ببعض الفراشين فقال له : « اذا رأيت عمى مقبلا فاطرح له تكأة فى المجلس » •

فلما دخلت على المأمون ، قبلت البساط بين يديه ، وأنشدت هذه الابيات:

البربى وطأ العذر عندك لى
دون اعتذارى فلم تعدل ولم تلم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى
مقام شاهد عدل غير متهم

رددت مالى ولم تمنن علي به
وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
تعفو بعدل وتسطو ان سطوت به
فلا عدمناك من عاف ومنتقم

فقال لى :

ـ اجلس يا عم آمنا مطمئنا ، فلن ترى منى ما تكره الا أن تحدث حدثا أو تتغير عن طاعة وأرجو الا يكون ذلك منك ان شاء الله ! ..

## ● اليوم الرابع :

دخلت الليلة الى مجلس المأمون متبذلا فى ثياب المغنين وزيهم ، فلما رأى ذلك ضحك وقال : « نزع عمى ثياب الكبر عن منكبيه » ! ..

وانما أردت أن يعلم المأمون من تبذلى فى ثياب المغنين ، ان الناس يروننى فيها فيعلمون انى تركت الطمع فى الخلافة ، وفرغت للغناء واللهو وقد هجانى أحد الشعراء عندما بويعت بالخلافة قديما فوصفنى بأننى « خليفة مصحفه البربط » .. فأنا أريد منذ اليوم الا يعرفنى الخاصة والعامة الا مغنيا أضرب بالعيدان والبرابط والطبول ، فانى متى اشتهرت بذلك بين الناس ، اطمأن المأمون الى سقوطى من أعينهم ، فلا أطمع فى الخلافة بعد ..

وليست هذه حيلة لى على المأمون ، وانما هى مذهب وطريقة فى الحياة ، فانى آليت أن اقطع بقية حياتى فى هذه الصناعة التى أحببتها منذ الصبا حتى قال اسحاق الموصلى يوما : « ان ابراهيم بن المهدى أشد خلق الله تعظيما لصناعة الغناء ، وأحرصهم عليها » ..

ثم انى أعلم أن المأمون لم يستبقنى ـ وكان يعتزم قتلى ـ الا حبا منه للغناء ، ومعرفة بمكانى فى هذا الفن ، وتفوق صوتى على كل صوت سمعه أو يسمعه ، حتى شهد لى بذلك أصحاب أجمل الاصوات كاسماعيل بن جامع ومخارق ، فضلا عن ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق هذا الذى لا يشهد لمغن بشيء .. وقد قال مخارق وهو أجمل المغنين صوتا : « ابراهيم بن المهدى أحسن منى غناء بعشر طبقات ، وهو أحسن الجن والانس والوحش والطير ، صوتا » ..

وحسبى هذه من شهادة ! ..

وفى مجلس المأمون الليلة قال لى :

ـ يا ابراهيم .. تغن :

هل تطمسون من السماء نجومها
بأكفكم أو تسترون هلالها

فأخذت فى غنائه ، حتى بلغت قول الشاعر يمدح العباسيين ويسفه حجة الطالبيين :

**او تجحدون مقـــالة عن ربكم**
**جبريل بلغهـــا النبى فقالها**

فاذا المامون ومن فى مجلسه يموجون طربا ، وقال لى بعض من حضر :

ـ لقد هززت حلقك ، ورجعتـــه ترجيعـــا ، ظننت معه أن الارض قد زلزلت ! ..

وقال لى القاضى أحمد بن أبى دؤاد :

ـ كنت أتجنب الغناء واطعن على اهله حتى سمعتك ، فعدلت الى رأى من يقبل الغناء ويحب المحسنين فيه ! ..

اذكرنى هذا مجلسا غنيت فيه للامين المخلوع ، منذ ســـنوات .. فانى ذهبت الى قصره ، فاذا هو جالس فى شرفة تطل على حديقة جعلها للوحوش التى يؤتى اليه بها من الغابات البعيدة ، فغنيته :

**وكاس شربت عـلى لـــذة**
**واخرى تداويت منها بهـــا**
**لكى يعلم الناس انى امرؤ**
**اتيت الفتـــوة من بابها**
**وشاهدنا الجل والياسمين**
**والمســمعات بقصـــابها**
**وبربطنـــا دائم معمـــل**
**فاى الثـــلاثة ازرى بهـــا**

فكاد الامين يقع من الشرفة على الوحوش ، طربا .. وقال لى أخى منصور ابن المهدى وكان حاضرا معنا : لقد غنيت يا ابراهيم على أشد طبقة يتناهى اليها العود ، وما سمعت مثل غنائك اليوم قط ، ولقد رأيت هذه الوحوش تمد أعناقها الى الناحية التى يجىء منها صوتك اليها ، ودنت ثم دنت حتى أوشكت أن تضع رءوسها فى مجلسنا .. فلما فرغت من غنائك نفــرت وبعدت منا كما كانت .. ولولا انى رأيت ذلك بعينى ما صــدقت أبدا أنه يكون ! ..

وجعل الامين يومئذ يبدى العجب ويقول : حتى الوحش الاعجم الفــاتك أحس لذة غنائك يا عم ؟! ..

# مُطـربـة القصُور

**● اليوم الاول :**

جلست أفكر فيما مضى من طفولتى وصباى ! •• زعمت احدى العجـائز فى دار سيدى الامير ابراهيم بن المهدى أننى قرشية الاصل ، وان لصـوصا سرقونى طفلة وباعونى فدخلت فى الرق ! ••

لا أدرى أصدقت فى قولها ، أم توهمت ! •

أتذكر الآن ان امرأة هاشمية من البصرة ، حملتنى فى صباى الباكر الى بغداد لتبيعنى ، فعرضتنى على اسـحاق الموصـلى ، فلم يزد فى ثمنى على ثلاثمائة دينار ، ثم كأنه اسـتغلانى ، فلم يدفع شـيئا ، وانصرفت بى سيدتى الهاشمية الى الامير ابراهيم بن المهدى ، فقالت له : قد أرادها اسحاق الموصلى بثلاثمائة دينار ، وأنت أيها الامير ـ أعزك الله ـ أحق بهـا ! •• فأعطاها الدنانير وأخذنى ، ثم دعا بقيمة قصره ، فقال لها : خذى هـذه الصبية ، ولا ترينيها الا بعد سنة كاملة ، وقولى للجـوارى يطـارحنها ما يحفظن من الغناء ، فانى أرى لها صوتا وان كانت صغيرة ! •

فلما انقضت السنة ، أخرجتنى قيمة القصر اليه ، فنظر الى وجهى فأعجبته وأمرنى بالغناء فغنيت ساعة ، وهو يسمع ولا يقول شـيئا ، ثم أمـرنى فانصرفت ••

وفى اليوم التالى دعا اسحاق الموصلى واسمعه غنائى ، ثم قال له :

ـ يا اسحاق •• هذه جارية تباع ، فبكم تأخذها لنفسك ؟!

قال اسحاق :

ـ آخذها بثلاثة آلاف دينار •• وهى رخيصة بهذا الثمن ! ••

تبسم الامير وساله :

ـ أتعرفها ؟! ••

قال :

ـ ما رايتها الا الساعة !

فضحك الامير وقال للموصلى :

ـ يا أبا محمد ‥ هذه هي الجارية التي عرضت عليك الهاشمية بثلاثمائة دينار فلم تقبل ! ‥

فتعجب اسحاق وتحير من حالى ، وكيف صرت من صبية تجهل الغناء ، الى مغنية بارعة ! ‥

**● اليوم الثاني :**

كانت نزهتنا فى دجلة البارحة والقمر يتوسط السماء ، وقال لى سيدى الامير : غننا شيئا ، فغنيت ، فكأنى رأيت ماء دجله يتوقف ليستمع! ‥ ووضع الامير يده على فمي وقال لى : اسكتي يا شارية ، فوالله لو سمعك أمير المؤمنين المعتصم لاخذك منى ! ‥ أنت والله أحسن من الغريض غناء ، وأحسن من البدر وجها ! ‥

ثم عدنا الى قصره ، واستأنفنا ما كنا فيه من الغناء ، حتى طرقنا ضيف يأنس اليه الامير ، فأمسكت عن الغناء ، وأخذا يتحدثان فى أمور شتى ، حتى قال له الامير :

ـ أتحب أن أسمعك شيئا لم تسمعه قط ؟ ‥

ـ نعم أيها الامير أعزك الله ! ‥ وانى لى بذاك ؟! ‥

فأمرنى مولاى أن أغنى ! ‥

فلما فرغت من الغناء قال لضيفه :

ـ هل سمعت مثل هذا الغناء قط ؟! ‥

ـ لا والله يا سيدى ما سمعت هكذا ! ‥

ـ أتحب أن تسمعه أحسن من هذا ؟! ‥

ثم غنى الامير الصوت الذى غنيته ، واجتهد فيه وبلغ منتهاه ، حتى صاح الرجل :

ـ والله ما ظننت قط أن مثل هذا يكون أبدا ! ‥

فقال الامير :

ـ أفتحب أن تسمع هذا الصوت أحسن من هذا وذاك ؟ ‥

قال الرجل متعجبا :

ـ فهذا الذى لا يكون أيها الامير أعزك الله !

قال الامير :

ـ بلى والله ! ‥ بحياتي يا شارية ، قوليه وأحيلى حلقك فيه من حال الى حال ، ارتفاعا وانخفاضا وكما تشائين !

ففعلت ما أمرنى به الامير ، حتى كاد الرجل يخرج من جلده طربا وهو

يصرخ ويستغيث ، والامير ينعر ويصفق ، ويقول للرجل : أرأيت ؟! أسمعت ؟! ..

## ● اليوم الثالث :

نمى الى أمير المؤمنين المعتصم خبرى ! .. قيل له : ان عمك يا أمير المؤمنين ـ ابراهيم بن المهدى ـ يضن على الناس جميعا بجارية مغنية لديه اسمها شارية ، لم يخلق الله مثيلا لجمال صوتها ، وجودة غنائها .. وان عنده غيرها من الجوارى المغنيات الحاذقات ، على رأسهن « ريق » المغنية الضاربة المحسنة ..

ولكن المعتصم يجفو الان عمه ابراهيم بن المهدى ، ويضيق عليه فى العطاء لسبب لا أدريه ، حتى ان البساتين والضياع وسائر ما يملكه ابراهيم بن المهدى لا تدر عليه الا ما يستره بين الناس ، ويقوم بنفقة قصره الكبير .

مع ذلك أرسل المعتصم الى عمه يستزير منه جواريه المغنيات ، وبخاصة أنا ..

وسمعت الامير يقول لرئيستنا « ريق » : اننى أتحمل ذهابكن الى أمير المؤمنين على ضعف منى ، فان جواريه يلبسن الثياب الفاخرة ، وعليهن الجوهر الثمين ، وانتن فى سراويلات كادت تبلى .. الا اننى أرجو أن تظهرن على جواريه بحسن غنائكن بين يديه ، فليس عنده جارية مثلك ولا مثل شارية ! ..

مضينا الى قصر الخليفة ، فرأينا فخامة ما ترتديه جواريه ، فتضاءلنا فى سراويلاتنا ، وتقاصرت أنفسنا ، وشمخن علينا بأنوفهن ، ثم أخذن يغنين ، فلم يجئن بشىء ، ولم يطرب لهن المعتصم ! ..

فلما غنينا اهتز المعتصم ، ولما انفردت بالغناء أوشك أن يطير عن سريره طربا ! ..وأمر لنا بمائة ألف درهم ، حملناها الى مولانا الامير ، فأخرجته من تلك الضيقة التى نالته من جفوة المعتصم ! ..

## ● اليوم الرابع :

هذا اليوم يجىء بعد زمن طويل من آخر يوم سجلته فى مذكراتى . فقد مات مولاى ابراهيم بن المهدى فاشترانى المعتصم من ورثته بثلاثمائة ألف درهم ، وكان المعتصم قد أراد أخذى منه قبل وفاته بأكثر من ألف ألف درهم فلم يقبل ، فأرسل اليه أحد ثقاته يعاتبه ، فجلس مولاى واياه الى مائدة يأكلان ، فأحضر الغلام سفودا فيه فراريج ، فأكلا منها ، ثم شربا ارطالا ، ثم أمر مولاى فضرب الستر ، وجلست وراءه ، وقال لى : ياشارية تغنى :

فلما غنيت صاح الرجل كأنما لسعته النار ، فقال له سيدى :

ـ ويحك .. تجلد ! ..

فقال :

ـ كيف التجلد وقد سمعت شيئا ذهب بعقلي ؟! .. لا والله .. لو كانت هذه في ملكي ما أعطيتها للمعتصم ولو أعطاني فيها خراسان والاهواز وأرمينية والجزيرة ..

كان ذلك منذ سنين ! ..

وقد مات المعتصم أيضا ! .. وصرت حرة بعد موته ، وكبرت منزلتي في قصور بني هاشم وأعلى الخليفة الجديد مكانتي ، ولا عجب فان أمير المؤمنين الواثق مغن ملحن مطبوع ، يقضي وقته في السماع ، ولا يكاد يفارق اسحاق الموصلي ومخارقا وعلويه وابن بانة والجواري المغنيات ، وهو يعظمني كثيرا ، ويقول لي أحيانا من فرط تعظيمه اياي واعجابه بي : يا ستي ! ..

وعهد الى بتعليم جاريته المغنية الجميلة الموهوبة « فريدة » وهي متعلمة ولكنه يريدها أن تزداد علما ، والحق ان صوتها رائع وأداءها متقن ، ويقول من سمعوها انها مثل المغنيات العظيمات في عصر المأمون والمعتصم والواثق وهن : بذل ومتيم وشارية وريق وعريب وفريدة ! ..

ولكن الواثق مات في عمر الزهور ، ورأيت « فريدة » في مجلس أمير المؤمنين المتوكل ، يضربها غلمانه بالسياط لرفضها الغناء للمتوكل وفاء لاخيه الواثق رحمه الله ! ..

ونحن الان في عصر المتوكل ، وهو شاب يحب القصف والغناء ولكن علمه به أقل من علم أخيه الواثق .. وقد غنيت بين يديه والجواري من حولي هذا اللحن :

بالله قولوا لمن ذا الرشا
المثقل الردف الهضيم الحشا
اظرف ما كان اذا ما صحا
واملح الناس اذا ما انتشى
وقد بنى برج حمام له
ارسل فيه طائرا مرعشا
ياليتني كنت حماما له
او باشقا يفعل بي ما يشا

فطرب المتوكل وقال لي : لمن هذا الغناء يا شارية ، فقلت : لا أدرى يا أمير المؤمنين ! . فوثبت المغنية « ملح » ـ بضم الميم وفتح اللام ـ وقالت له : هذا اللحن لخديجة بنت أمير المؤمنين المأمون رحمه الله ، قالته في خادم لابيها كانت تهواه ، فنظمت فيه هذا الشعر ولحنته وغنته ! .. فوجم المتوكل وقال لها :

ـ يا عطارة ! .. لا يسمع هذا منك أحد ! .

و « ملح » تسمى « العطارة » لكثرة استعمالها العطــور .. وهى من أحسن الجوارى غناء ! ..

## ● اليوم الخامس :

الزمان يمر كالسحاب .. انقضى عهد المتوكل وخلفاء اخرين بعـده .. ونحن الآن فى عصر أمير المؤمنين « المعتمد » ..

تغيرت الدنيا ، وانتشرت الفاقة فى البلاد ، وأذل الفقر الناس وأثارهم، وأقعدهم وأقامهم ووثب القرامطة بالسيوف والرماح على دولة الخـــلافة ، وغاض نهر الاموال الذى كان من قبل يجرى بين أيدى الخلفـــاء .. ولولا ما أدخرته فى أيام المعتصم والواثق والمتوكل من الجوهر والذهب والفضة، لساءت حالى كما ساءت حال كثير من أهل صنعتى ! ..

لم يدهشنى أمس اننى رأيت أمير المؤمنين « المعتمد » يجلس فى ايوان قصره وحيدا حزينا ينشد لنفسه هذين البيتين :

اليس من العجـائب أن مثــلى
يرى ما قل ممتنعـــــا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيـا جميعا
ومـا مـن ذاك شيء فى يـديه

ان أمير المؤمنين يشكو أخاه « الموفق » ــ ولى العهد ــ الذى يجبى الاموال ولا يعطيه الا القليل ، ولكن الموفق انما ينفق الاموال على حرب القرامطة التى لا تنتهى ، وأمير المؤمنين لا يقتدر الآن على مكافأة مغن ولا شاعر ، ولو بدراهم معدودة ! ..

أردت الترفيه عن أمير المؤمنين ، فجئت اليه من بيتى بثلاث من جــوارى المغنيات البارعات اللاتى احتفظ بهن ولا أبيعهن لكســاد الســـوق .. وهن مهرجان ، ومطرب ، وقمرية .. فغنين له حتى طرب وتســـلى .. ثم أكل طعاما طيبا حملته اليه فى سلة صغيرة ، وكان معتادا أن يأكل من يدى منذ أيام أبيه المتوكل ! ..

ان المعتمد أمير المؤمنين يخشى أن يقتله الجند الاتراك كما قتلــوا أباه واخاه وبعض أقاربه .. وما أكثر تقلبات الايام واعجبها ! ..

# قصـــة حـب

## ● اليوم الاول :

يسمع الناس صـوتي فلا يعجبهم ، ويعجبهم تلحيني وضربي على العـود ، فاذا عرفوا ان اسمي « معبد » .. عبسوا في وجهي وقالوا لى : اما وجدت اسما آخر يعرفك الناس به ، فان اسم « معبد » اسم عظيم في الغنـاء ، وانت ضعيف خامل غير طيب المسموع ؟! .

ولا أدرى من سماني معبدا ، فقد نشأت في المدينة المنورة ، طفلا خلاسيا، من أب أبيض وأم سوداء ، كلاهما من الموالى ، فاشتراني أحد وجهاء المدينة وهو من أولاد على بن يقطين ، فصرت يقال لى : « معبد اليقطيني » .. ولما جيء بى الى بغداد أخذت الغناء عن جماعة من علية المغنين مثـل ابن جامع والموصلى ولكنى لم أبلغ منزلة كبيرة في الغناء عند هارون الرشيد ، وقلما كان يسمعنى ، فقد شغله اولئك الفحول الذين يغنونه كل ليلة ..

يئست من بلوغ شيء عند الرشيد ، فانقطعت الى البرامكة ، وصرت في جملة من يخدمهم بالغناء والمنادمة ، وغمرنى كرمهم كما غمر جميع اللائذين بأبوابهم ! ..

وكنت أجلس في بيتي فيجيء بعض صغار المغنين ممن لم يرتفع قدرهم ولم يبلغوا أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والكبـراء ، فاقتصروا على الغناء لبعض أصحاب الوظائف ، والغناء في أفراح المياسـير من التجـار والصناع والعامة المستورين ! ..

كان هؤلاء المغنون يجيئون بأبيات من الشعر جيدة أو رديئة ، يطلبـون منى تلحينها لهم ، فاذا دفعوا الاجر ، طارحتهم اللحن حتى يحفظـوه وينصرفوا الى شأنهم ! .. قد يصيب أحدهم رزقا ونجحا ، وربما لا يصيب شيئا ..

فبينما انا ذات يوم في منزلى ، استأذن بعضهم في الدخول فظننته أحد هؤلاء المغنين الصغار ، فدخل شاب حسن الوجه نظيف الثياب ، تبدو عليه آثار السقم ، فعجبت منه ، وقلت له :

ــ ما رأيت مثلك مغنيا قط ! ..

فلم يتكلم ، وأخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدى ، وقال لى : أسألك أن تقبلها وتصنع في بيتين قلتهما لحنا ، وهذان هما البيتان :

والله يا طرفي الجاني على بدني
لتطفئن بدمعي لوعة الحـــزن
أو لأبوحن حتى يحجبوا سـكني
فــلا أراه ولو أدرجـت في كـفني

فقلت :

ـ ما رايت كاليوم .. تضع بين يدي ثلاثمائة دينار وأنا أبيع اللحن بمائتي درهم ، وتسألني أن أقبل هذا المال ، كأنك تظن انى لا أقبله .. فماذا تبتغي مني ، وهل أنت مغن جديد .. والا تكن مغنيا جديدا ، فما تكون ؟! ..

قال الشاب :

ـ لست مغنيا ، وما سألتك تلحين هذا الشعر لاغنيه ، بل لتغنيه أنت لى ، وهذه الدنانير جائزتك ، ولو ملكت أكثر منها لاضعفتها لك ! ..

فصنعت اللحن وغنيته للشـــاب ، فأغمي عليه حتى ظننته قد مات ، فصرخت :

ـ يا هذا .. والله ما سمع أحد غنائي فاغمى عليه طربا الا أنت ؟ .. وما اظن أن لى من جمال الصوت ما يدفعك الى الاغماء ! ..

أفاق الشاب ، وقال متوسلا باكيا :

ـ بالله يا سيدى .. أعد الصوت ! ..

قلت :

ـ أخشى ان أعدته ان تموت ، وما أراك الا مريضا ، يذهب بلبك الغنـاء وان كان ضعيفا لا يذهب بلب انسان صحيح النفس والبدن ! ..

فاخذ يتضرع حتى أعدت عليه الصوت ، فصعق عند سـماعه ، وقلت : قد مات الشاب ، ما أشك هذه المرة في موته ! ..

وظللت متحيرا لا أدرى ما أصنع ، حتى رايته يتحرك ، ثم أفاق ، فأسرعت فرددت اليه الدنانير ، وقلت له :

ـ يا هذا خذ دنانيرك وانصرف عني فلست أحب أن أكون مسـئولا فى دمك ! ..

فقال :

ـ لا حاجة بي الى الدنانير ! ..

قلت :

ـ كأنك تريد أن أعيد عليك الصوت ، وتعيد أنت الاغمـاء ، لا والله ، لا والله ، ولا بعشرة أضعاف دنانيرك هذه ! ..

فانصرف الشاب ، وتبعته أحاول أن أعيد اليه دنانيره ، فلم يقبل ! .

**● اليوم الثانى :**

عاد فتى الامس يسألنى أن أغنى له الصـــوت ، ومعه دنانير أخـــرى ، فقلت له : أغنيك على شرط أن تقيم عندى وتتحرم بطعامى ! .. ثم تمد يدك وتشرب أقداح نبيذ تشد قلبك وتســـكن ما بك من برحاء ! .. وان تحدثنى بقصتك فاعرف منها أعاقل أنت أم مخالط فى عقلك ..

ودفعت اليه دنانيره فأخذها .. ثم طعمنا وشربنا ، وغنيته فى غير الشعر الذى كنت غنيته فيه ، فلم يثنه ذلك عن التوجد والتلهف وظل يشرب ويبكى أحر بكاء ، ولكنه تماسك فلم يقع مغشيا عليه كحاله أمس !

فلما رأيت منه ذلك قلت له : حدثنى بقصتك فلعل لك عندى ما تستطب به لدائك هذا الذى برح بك وأضناك ! ..

فقال مستعطفا :

ـ الا تغنينى شيئا قبل أن أحدثك ؟!

قلت :

ـ أخشى أن يغمى عليك ، فلا تصحو بعدها أبدا ، ولعل الكلام أن يخفف عنك ! ..

قال :

ـ فموعدنا غدا ان شاء الله ! ..

ثم انصرف ، وأنا أضرب كفا بكف ، وأقول فى نفسى :

ـ أن لم يكن هذا مجنونا ، فكيف يكون أهل الجنون ؟! ..

**● اليوم الثالث :**

جاء الشاب « المجنون » .. وجلس بين يدى صـــامتا ، فقلت له : الا تحدثنى بما خفى من أمرك ، كما وعدتنى أمس ؟! ..

قال :

ـ الشرط أعزك الله ! ..

قلت :

ـ وأى شرط لك عندى ؟!

قال :

ـ أن تغنينى قبل أن أحدثك ! ..

فغنيته مكرها ، فبكي قليلا ، ورأيت القدح الذى شربه قد شد من قلبه ، فطمعت فيه ، وسألته أن يحدثنى حديثه ..

تفكر الفتى بعض الوقت ، كأنه يستجمع اشتات عقله ، ثم قال :

ـ أنا رجل من أهل المدينة ، خرجت يوما فى فتية من أقرانى متنـزها فى ظاهر المدينة وقد سال وادى العقيق بما انهمر من المطر فى ذلك اليوم ، فبصرت بفتيات فيهن واحدة باهرة الجمال .. تنظر بعينين ما ارتد طرفهما الا بنفس من يلاحظهما .. فأحدثت بقلبى جرحا بطيئا اندماله ، فعـدت الى منزلى وأنا صريع ! ..

فقطعته قائلا :

ـ ويحك ! .. فما أظنك الا ذهبت تخطبها من أهلها ، فاذا بها زوجة لاحد الرجال ، فقتلك الحب واليأس من الحب ! ..

قال :

ـ كأنك قاربت الحقيقة ، فانى خطبتها بعد ان شاع حديثى فى الناس ، فحجبها أهلها عنى ، وتشدد عليها أبوها ، وهذا هو معنى قـولى فى البيت الثانى من شعرى الذى تغنيه لى منذ أيام ! ..

قلت :

ـ ويحك ! .. أما فكرت أن تمضى بمشيخة من قومك يشفعون لك عند أبيها ؟!

قال :

ـ قد فعلت .. فقال أبوها لمشيخة قومى : لو كان بدا بخطبتها قبل أن يفضحها ويشهرها لاسعفته بما التمس ! .. فلما قال أبوها ذلك انصرفت على يأس منها ومن نفسى ، وعلمت انى قتيل حبها لا محالة !

قلت للفتى :

ـ بل تعيش ان شاء الله ، وتسعد بحياتك ، فوافنى بعد غد ، فلعـل الليل والنهار يحدثان لك سلوة عنها ! ..

قال الفتى :

ـ هيهات ! ..

ثم انصرف ! ..

## ● اليوم الرابع :

مضيت الى قصر الوزير جعفر البرمكى ، فكان أول صوت غنيته صوتى فى شعر الفتى العاشق ، فتأمل الوزير فى الشعر والغناء وقال لى : ويحك .. كأنى أسمع وراء هذا الشعر حديث قلب جريح ! ..

قلت :

ـ كذاك والله هو ! ..

ثم حدثته حديث الفتى العاشق ، فأمر باحضاره من وقته ، واستعاده الحديث فأعاده عليه ، فقال الوزير :

ـ هى فى ذمتى حتى ازوجك اياها ! ..

وغدا جعفر البرمكي الى أمير المؤمنين الرشيد فحدثه الحديث ، فعجب منه ، وأمر باحضاره وأنا معه ، فلما صرنا بين يديه أمرنى بأن أغنيه الصوت ، فغنيته ، فرأيت الفتى يتحرك وقد دمعت عيناه وهو يتماسك حتى لا يفتضح فى مجلس أمير المؤمنين ! ..

ورأيت أمير المؤمنين يلحظ الفتى ، مشفقا عليه ، ثم يتشاغل عنه بسماع غنائى ، وانه ليضيق بسماع صوتى ولكنه سمعنى هذه المرة كأنه يجد ارتياحا لسماعى ! ..

فلما فرغت من الغناء ، أشار أمير المؤمنين الى الفتى يستدنيه الى مجلسه فدنا منه على وجل واعظام ، فتلطف الخليفة فى الكلام معه ، حتى حدثه الفتى ، حديثه ، على استحياء واحتشام ! ..

قال له الخليفة :

ـ كأنك يا فتى قيس بن الملوح أو قيس بن ذريح ، وأراك شاعرا مثلهما ولك فى الحب شأن كشأنهما ، الا أنهما ذهبا بالشهرة دونك ! ..

## ● اليوم الخامس :

جاءنى الفتى العاشق كعادته منذ كنا فى حضرة أمير المؤمنين ، فتجارينا فى الحديث عن أمور كثيرة ، حتى خطر لى أن أغنيه صوته الذى يبكى عند سماعه ، فلما غنيته رأيته متماسكا رابط الجأش ، فأعجبنى ذلك ، وقلت فى نفسى ان الفتى يثق بأن أمير المؤمنين لا يخذله ! ..

ونحن كذلك ، طرق الباب ، ودخل بعض خدم جعفر البرمكي يستحثنى والفتى على الركوب الى قصره ، فلما بلغنا ساحته ، ألفينا جعفرا يتأهب للركوب الى قصر الخليفة ، وقد تريث انتظارا لنا ، فصرنا ضمن حاشيته الى هناك ، وأنا أقول فى نفسى : أرى أن هذا الفتى يبلغ مراده اليوم ان شاء الله ! ..

وفى حضرة الخليفة وجدنا رجلا توسمت فيه أنه من أهل الحجاز ، واذا بالفتى العاشق يقول لى : هذا هو أبوها .

وعرفنا عندئذ أن أمير المؤمنين كتب الى عامله بالحجاز أن يشخص اليه الرجل وابنته وأقاربه فأشخصهم اليه .. ووصل الرجل الى مجلس الخليفة حيث رأيناه ..

قال الخليفة للرجل :

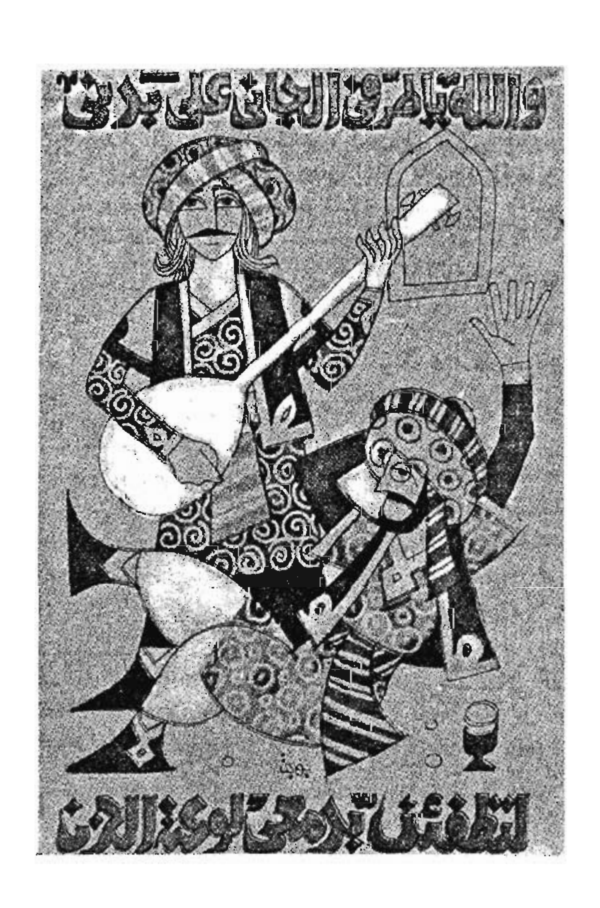
ـ قد خطبت اليك ابنتك لهذا الفتى من أهل المدينة وأقسمت عليك أن تقبل ! ..

فأجابه الرجل وقبل تزويج ابنته للفتى ! ..

وحمل الرشيد الى الرجل ألف دينار لجهاز العروس ، وألف دينار لنفقة الطريق ، وأمر للفتى بألف دينار ! ..

فلما خرجنا من قصر الخلافة ، أمر لى جعفر البرمكى بألف دينار ، وللفتى بمثلها ! ..

وانتصر الحب بقوة السلطان ، وقوة الدينار !



# مطرب قليل البخت

## اليوم الاول :

في شبابي كنت مقربا من ابراهيم الموصلي كبير المطربين والملحنين واحبهم الى قلب أمير المؤمنين الرشيد ..

ولكنني رأيته اليوم يتجهم لي ، بل انه ليتجهمني منذ مدة ، ولا يحاول أن يعلمني شيئا جديدا من الفن ، ولا يناصحني في صناعة الغناء ، ولا يستمع الى ما أصنعه من ألحان .. واذا سألته في ذلك قال لي : يا سليم انك كبرت وبرعت وكثرت روايتك للالحان فماذا تبتغي مني بعد هذا كله ؟! .

ولو ساندني الموصلي في قصر الرشيد ، لكان لي شأن ، أماوهو يباعدني ، فان الرشيد يكاد يسقطني من عينه حين أغني له بعد الموصلي وابن جامع وفليح ابن العوراء وحكم الوادي ، وهم سادة المطربين والملحنين .. وأنا بالاضافة اليهم كالساقط ! ..

وقد جدت على مجلس الرشيد أصوات أخرى كمخارق وعلويه ولا أستطيع منافسة هذين أيضا .

ويقال لي أحيانا : انما أخرك عن أصحابك هؤلاء عند الرشيد ، انك شديد الولع بالاهزاج ، فليس لك غناء عظيم الصنعة الا في النادر ، على جمال صوتك وجهارته ! ..

ووالله لأنا أحق بخيرات هذه الدولة من هؤلاء المغنين جميعا ، فأنا سليم « بضم السين وفتح اللام » وأبي سلام الكوفي ، كان من أصحاب أبي مسلم الخراساني ، الذي أقام بسيفه هذه الدولة .. وكان أبي من دعاة أبي مسلم وثقاته ، يكاتب عنه شيعة آل البيت في العراق ، ويصحبه في خراسان قبل هزيمة آخر خلفاء بني أمية « مروان الحمار » وقيام دولة بني العباس !

كنت جديرا بمنصب في دولة العباسيين هذه ؟! .. ولكن كيف أبلغ ذلك ، وقد ضربت هذه الدولة عنق أبي مسلم الخراساني نفسه ، ورمت برأسه الى أصحابه من فوق سور بغداد ؟! .

فأنا أحمد الله على اني مازلت حيا ، وان الخليفة يأذن لي في أن أكون من المغنين في سهراته .. ولي من صناعتي هذه مورد للرزق جمعت منه بالاقتصاد والتدبير جملة عظيمة وافرة من المال ، لعل بعض كبار المغنين لم يجمعوا مثلها ، وهذا ما يحملهم على وصفي بالبخل وركوبهم اياي بالسخرية والدعابة في هذا الشأن ! ..

حتى برصوما الزامر « النافخ فى الناى » الاعجمى اللسان الذى يعجز عن نطق الكلام ، يهزأ بى ويسخر منى ! ..
كنت فى مجلس أمير المؤمنين الرشيد ، فأحب الخليفة أن يتضاحك معه فادناه وسأله :

ـ يا برصوما .. اخبرنى عنك .. ما تقول فى ابن جامع ؟!

قال برصوما :

ـ زق من أسل « يريد : من عسل » ! ..

قال الرشيد :

ـ فابراهيم الموصلى ؟!

ـ بستان من فاكهة .. وريهان « يريد : وريحان » .

ـ فيزيد حوراء ؟! ..

ـ ما أبيد أسنانه « يريد : ما أبيض » ! .

ـ فحسين بن محرز ؟!

قال برصوما :

ـ ما أهسن خظامه « يريد : ما أحسن خضابه » .

فنظر الرشيد ناحيتى ضاحكا وقال لبرصوما .

ـ فسليم بن سلام ؟! ..

قال برصوما ساخرا بى :

ـ ما أنظف ثيابه ! ..

وكانت كلمته عنى هى الكلمة الوحيدة التى نطقها بلسان صحيح ! .. ويعنى بها ان كل بضاعتى نظافة الثياب ، أما الغناء فلست من أهله .

فضحك الرشيد ! .. ثم قال لى :

ـ غن يا سليم ، وبرصوما يزمر عليك .

فلما أخذت أغنى وبرصوما يزمر ، فاجأنى فى موضع صيحة عالية من اللحن ، فأخرج الناى من فمه وقال لى غاضبا :

ـ يا سليم .. صيهة أشد من هذه ! ..

يريد برصوما ان يقول : « صح صيحة أشد من هذه حتى يستقيم اللحن ، ويستقر الصوت على الموضع الصحيح من جواب الصيحة » ! ..

فكانت تخطئته لغنائى أشد على نفسى من كل شىء ، وسقطت من عين الرشيد وصرت له أضحوكة ، فطفق يضحك من كلمة برصوما حتى استلقى على فراشه ! ..

وخرجت من عنده بلا جائزة ، أما برصوما فأجزل له المكافأة ! ..

## ● اليوم الثانى :

ما زال أصحابنا ينكرون أهزاجى ، ويقولون : انما اخرك عند الرشـيد كثرة أهزاجك ، وقلة غنائك الثقيل ! ..

ولكن الاهزاج كانت خيرا وبركة لى اليوم ! .

فان الرشيد كان نشيطا مرحا ، فامرنى ان أغنى له بعض الاهزاج ، فبدأت بهزج صنعته فى شعر للعباس بن الاحنف :

مت على من غبت عنه اسفا
لست منه بمصيب خلفا
لن ترى قوة عين ابدا
او ترى نحوهم منصرفا
قلت لما شفني وجدى بهم
حسبى الله لما بى وكفى
بين الدمع لمن أبصرنى
ما تضمنت اذا ما ذرفا

فرأيت الرشيد لما سمع هذا الهزج ، يتحرك كأنما مسه بعض الطـرب ، فاستبشرت وغنيته هزجا ثانيا :

اسرفت فى الاعراض والهجر
وجزت حد التيه والكبر
مالى وللهجران حسبى الذى
مر على رأسى من الهجر
ودون ما جربت فيما مضى
ما عرف الخير من الشر

فرأيت الرشيد يزداد طربا ، فأسرعت أغنى هزجا ثالثا فى شعر أبى نواس:

اصبح قلبى به ندوب
اندبه الشادن الربيب
تماديا منه فى التصابى
وقد علا راسى المشيب
اظننى ذائقا حمامى
وان المامه قريب
اذا فؤاد شجاه حب
فقلما ينفع الطبيب

فاشتد طرب الرشيد ، وقال لى : أحسنت والله يا سليم ، ولو كنت حكم الوادى مازدت على هذا الاحســان فى أهزاجك ، يعنى ان حكم الوادى كان

منفردا بالاجادة فى الأهزاج .

ثم أمر لى بثلاثين ألف درهم .. فخرجت من عنده أحمل المال وأنا اسعد الناس ! ..

**● اليوم الثالث :**

قال أمير المؤمنين للمغنين وأنا فيهم : ليصنع كل منكم لحنا جديدا لمجلسنا بعد غد ..

فغدوت الى صديق لى شاعر فقلت له : أريد أن أغنى الخليفة فى شعر لم يعرفه من قبل ولم يعرفه أحد من المغنين ، فقل أبياتا ملاحا أغنى فيها ..

ورددت دابتى الى بيتى مع خادمى ، وأقمت عند صديقى الشاعر ، لننظم هذه الابيات :

**اتيتك عائذا بك منك**
**لما ضاقت الحيل**
**وصيرنى هواك وبى**
**لحينى يضرب المثل**
**فان سلمت لكم نفسى**
**فما لاقيته جلل**
**وان قتل الهوى رجلا**
**فانى ذلك الرجل**

رأيت الابيات لا بأس بهـــا ، لولا ان البيت الاخير منها مأخوذ من قــول مشهور لمسلم بن الوليد :

**متى ما تسمعى بقتيل ارض**
**فانى ذلك الرجل القتيل**

ونشطت لتلحين الابيات ، ولم أر نفسى أنشط للغناء والتلحين منى ساعتئذ حتى أتممت اللحن ، واستأذنت فى الانصراف ، فقال لى صديقى : الا تأخـذ بيتين اخرين من الشعر تلحنهما اذا احتجت اليهمـا .. قلت له : هات .. فقال :

**يا بعيد الدار موصولا**
**بقلبى ولسانى**
**ربما باعدك الدهر**
**فأدنتك الامانى**

فضحكت وقلت لصديقى :

ـ وهذان أيضا من قول مسلم بن الوليد :

**ذاك ظبى تحير الحسن فى الاركان**

منه وجال كل مكان
عرضت دونه الحجال فما يلقاك
الا فى النوم أو فى الامانى

قال صديقى :

ـ صدقت ، ولكني والله ما سرقت من شعر مسلم بن الوليد ولا غيره الا المعنيين اللذين رأيتهما فى هذين القولين ! ..

فضحكت وضحك ، وانصرفت استعد لمهرجان الغناء فى قصر الخليفة ! .

## ● اليوم الرابع :

فزت أمس بجائزة فى مهرجان الغناء بقصر الخليفة على كثرة من غنى من فحول المغنين ! ولكن جائزتى كانت أقل من ثلث جائزة الموصلى وابن جامع ولا أحسدهما ، ولكنى والله لم أقصر عنهما فى التلحين ولا فى الغنـاء لولا البخت والقبول ! .. رزقهما الله بختا وقبولا عند الخليفة ، فهو يطرب لكل ما يسمعه منهما ، وقد غناه ابن جامع مرة فأخطأ فى بعض أقسـام اللحن ، فغمز ابراهيم الموصلى جليسه القريب منه وهو ابراهيم بن المهـدى ـ أخو الرشيد ـ وهمس له بحيث سمعته يقول له :

ـ الا ترى كيف أخطأ هذا الرجل أقبح خطأ يقع فيه ناشئة المغنين ، وهو شيخهم كما يزعم ؟!

فقال له ابراهيم بن المهدى :

ـ هو والله لا يدرك خطاه لانه شرب نبيذا كثيرا فلا يعى ما يغنى ! ..

ولكن الرشيد أجاز ابن جامع فى تلك الليلة وغفر له خطأه ، ولو كان هذا الخطأ منى لما سلمت من تقريعه ، ولنادى خدمه وقال لهم : « اسحبوا هذا من رجليه الى خارج القصر » ! .. وانما هذا كله من سوء بختى .

جاءنى فى بكرة الصباح المغنى المشهور مخارق الذى يزعم بعضهم انه أجمل صوتا من ابن جامع .. أو انه خليفته ..

غنيت مخارقا صوتا لى لم يسمعه من قبل فلبث عندى يشرب ويسمع الى الليل ، ثم استاذن منصرفا ، فسألته : اين تذهب الآن ؟! .. قال : اذهب الى قصر ابراهيم بن المهدى فقد دعانى الى الصـبوح ، فأنسانى غنـاؤك موعده ، فأنا أذهب اليه الآن ، واعتذر اليه وان كنا فى الليل ! ..

فحدثنى مخارق بعد ذلك ، قال ان ابراهيم بن المهـدى حين رآه ، ولا فضل فيه لشراب ولا طعام بعد الذى شربه وأكله عندى ، اغتم لذلك وعاتبه على ما صنع وقال له : أما يكفيك اننا ندعوك للصبوح فتجىء الينا وقد ذهب من الليل نصفه أو أكثر ؟! .. فقال له مخارق : أيها الامير .. لا واللهماكان آفتى الا سليم بن سلام الكوفى ، فانه غنانى صوتا جديدا فاحتجزنى ، فقال

له ابن المهدى غننا هذا الصوت فنغفر لك ما صنعت ولا تزد فى الصوت ولا تنقص بل غننا اياه كما أخذته ..

فغناه اياه وهو :

اذا كنت ندمانى فبـــاكر مدامة
معتقـــة زفت الى غير خـــاطب

اذا عتقت في دنها العام اقبلـت
تجر رداء الحسن فى عين شـارب

فلم يكد مخارق ينصرف بعد أن حدثنى هذا الحديث ، حتى جاءنى خـدم ابراهيم بن المهدى بجائزة هذا الصوت الذى سمعه من مخـــارق ، وقال لى الخادم :

ـ الامير يدعوك ان تطرح هذا اللحن على جواريه ، فانه أعجبه ! ..



# الأيّـام الجميلة

## اليوم الاول :

طارحت اليوم بعض الحـاني ، تلميذى ابراهيم الموصـلى حتى حفظها وأحكمها ، ولئن عاش هذا الفتى ليكونن له شأن ، فانه مطبوع على الغناء والتلحين عظيم الموهبة فيهما ، وان كان تلميذى اسماعيل بن جامع أندى منه صوتا .. أتوقع أن يكون هذان أحسن من يغنى ويلحن بعدى ، وسيدخلان قصور الخلفاء ويبلغان الثراء والجاه والشهرة العريضة !

قلت لابراهيم الموصلى مازحا :

ـ انصّرف راشدا فقد أحكمت ما حفظت من الاصوات ، ولكنى لو عشـت لك ولزميلك ابن جامع ، ما وجدتما شيئا تأكلانه ! ..

قال لى الموصلى :

ـ كأنك تمزح ، ولكنك والله صدقت ، فانه لا يسمعك أحد ثم يعبأ بى أو بابن جامع بعدك !

قمت الى بعض شأنى فى بغداد .. الجو اليوم بارد .. الناس فى ثياب ثقيلة ، الا أبا ريحانه المدنى ـ صديقى القديم ـ رأيته جالسا فى الشمس ، عليه ثوب رث ممزق ، فوثب حين رآنى وقال : غننى بلحنك فى شعر ابن جندب :

لكل حمـام انت باك اذا بكى
ودمعك منهل وقلبك يخفـق

مخافة نأى بعد قرب وهجرة
تكون ولما تات والقلب مشـفق

ولى مهجة ترفض من خوف عتبها
وقلب بنار الحب يصلى ويحرق

اظل خليعا بين اهلى متيمـا
وقلبى لما يرجـوه منك معلق

فملت به الى ناحية خالية الا من رجلين اثنين ، فغنيته اللحـن ، فضرب بيده على قميصه الرث الخلق فشقه حتى خـرج منه وغشى عليه ، ثم أفاق

فرجع الى موضعه من الشمس وقد ازداد بردا وجهدا •• فقال له أحد الرجلين يا هذا ان صاحبك لذو صوت حسن ، ولكن ما أغنى عنك ما غناك بصـــوته الجميل ، من شق قميصك ، ووقوفك عريان فى هـــذا اليوم البارد ؟! •• فقال أبو ريحانه واثقا بما يقول :

ـ يا ابن أخى •• ان الشعر الحسن من المغنى الحسن ذى الصوت المطرب، أدفأ للمقرور من حمام الخليفة المهدى اذا أوقد سبعة أيام كاملة ! ••

فقال له الرجل الآخر :

ـ أنت عندى من الذين قال الله عز وجل : « فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين » ! ••

قال أبو ريحانه :

ـ بل أنا من الذين قال تبارك وتعالى « الذين يستمعون القول فيتبعـون أحسنه » ••

فلما انتهى الجدال والنقـار بين أبى ريحـــانه والرجلين ، قلت له : انه لا يصلحك فى هذا البرد الا ثوب صوف ثقيل ، فتعال الى هذا البزاز القريب منا فى الشارع نشتره لك ! ••

قال أبو ريحانه :

ـ لا والله •• قد كسوتنى من حرير غنائك ، فلا ألبس معه شيئا ! ••

وخلف صديقى الذى يظنه الناس مجنونا ، ليجلسن فى الشمس ، ليس على جسده الا بقايا تلك الاسمال البالية ! •• فلم أكد أبلغ بيتى حتى وجهت اليه بقميص وجبة وسراويل وعمامة ! •• فاغتبط بها واكتساها ••

اذكرنى هذا ، ما صنعه أبو ريحانه يوما وقد مرت به جارية على ظهرها قربه ، وهى تغنى بصوت أثار قديم أشجانه :

وابكى فلا ليلى بكت من صبابة
الى ولا ليـلى لذى الود تبـــذل

واخنع بالعتبى ، اذا كنت مذنبا
وان اذنبت كنت الذى أتنصــــل

فقام أبو ريحانه الى الجارية فقال : يا سيدتى •• أعيدى ! •• فقالت : مولاتى تنتظرنى والقربة على ظهرى ، فقال : أنا أحملها عنك ، فدفعتها اليه فحملها وغنته اللحن ، فطرب ورمى بالقربة فشقها ! •• فقالت له الجارية : أمن حقى عليك أن أغنيك وتشق قربتى ؟! •• فقال لها : لا عليك تعـــالى معى الى السوق ! •

فمضت الجارية معه الى السوق ، فباع ملحفته واشـــترى بثمنها قربة جديدة ، ملأها بالماء وحملها على ظهره الى الموضع الذى قصدته الجارية ! •• ثم عاد الى مجلسه يبكى ويردد البيتين اللذين أطرباه !

## ◉ اليوم الثانى :

لا أدرى ما أصنع لصديقنا المجنون أبى ريحانة ، فانى مررت اليوم فى الشارع الذى يجلس فيه لا يريم مكانه ، ولا يتعتعه حر ولا برد ولا مطر ولا ريح ولا موكب من مواكب الخليفة أو ذوى السلطان .. وقد مر به موكب أحد هؤلاء منذ أيام ، فلم يقف اجلالا له ، ووقفه الناس جميعا ، فبصر به أعوان السلطان فأخذوه وضربوه ، وأوشكوا أن يلقوا به فى السجن لولا انى علمت بالقصة ، فأسرعت اليهم أشرح لهم حقيقة حاله ، وحدثتهم عن جنونه ، حتى أطلقوه ! ..

وقد مررت به اليوم فاخذ بلجام دابتى ، وقال لى ضارعا :

ـ ياسيدى ، بحق القبر ومن فيه .. غننى صوت ابن جندب :

فؤادى رهين فى هواك ومهجتى
تذوب وأجفانى عليك همول

فغنيته دندنة حتى لا يجتمع علينا الناس ، وقد استويت على ظهر دابتى كأنى أتحدث اليه فلم أكد أتم اللحن ، حتى فضحنى ، فانه لطم وجهه حتى خرج الدم من أنفه ، ووقع على الارض صريعا فاجتمع الناس ليحملوه ويدالجوه ونزلت اشتغل فى أمره معهم ، حتى أفاق ، فلما فتح عينيه ورآنى انتفض واقفا ، وخرق جبته وقميصه وكل ما اشتريته له من الملابس الجديدة !..

انصرفت آسفا عليه وقد أيقنت انه لا شفاء له من دائه ، وان الغناء يهيج فى قلبه أمرا أشد حرارة من الطرب الذى تعرفه قلوب الناس .. وهذا داء ليس له دواء ، وشفاء صاحبه أن يعيش عمره يتداوى منه بلا شفاء ! ..

## ◉ اليوم الثالث :

اعتللت أخيرا .. ذهبت أيامى الجميلة ! ..

عشت عمرى كله قويا لا يصيبنى مرض ، فما الذى أرقدنى هذه الرقدة ، ومن أين تسللت الى جسدى هذه الآلام ؟!

زارنى اخوانى أهل صناعتى ، فأنست بهم وقتا . ولكن الالم عاودنى بعد انصرافهم ، ثم جاء تلاميذى يسألون عنى .. قال لى كبيرهم ابراهيم الموصلى :

أعزز علينا بأن نراك فى هذه العلة يا أبا وهب . ولو كانت مما يفتدى لفديناك منها ! .. وقال اسماعيل بن جامع كقول صاحبه وزاد عليه بعض الدعاء ! ..

قلت لهم :

ـ أيها الابناء ، كيف كنت لكم أيام صحتى وعنفوانى وأخذى اياكم بالتعليم والتخريج ؟!

قالوا :

ـ نعم الاستاذ والسيد ! ..

قلت :

ـ قد غنيت ستين لحنا من صنعتي ، فأحب الا يغيرها احد منكم أو ينتحلها ! ..

فصمتوا الا الموصلى قال :

ـ نفعل أبا وهب ان شاء الله ، ونحفظك فيما تترك من صنعتك ، على اننا نرجو أن نكون فداءك ، وتكون أنت بعدنا .

قلت :

ـ دع ذا عنك ، فوالله انى لاحس دبيب الفناء فى أعضائى وأرانى أموت عضوا فعضو !! ..

فسمعت بكاء تلاميذى ، فلما انقضت ساعة قال لى الموصلى :

ـ قد حلفنا أن نحفظك في تراثك من الالحان ، ولكن ماذا كرهت منا ؟! .. أن يكون فى غنائك فضل عظيم فنقصر عنه ، فيعرفه الناس لك علينا ، أو أن يكون فى غنائك بعض نقص فنحاول تحسينه فينسب الناس احساننا فيه اليك ، ويأخذه من يأخذه عنا على الوجه الذى استحسناه ؟! ..

انصرف تلاميذى .. فساورتنى ذكريات كثيرة قديمة .. ذكرت ، مثلا ، أن الخليفة المهدى كان يشرب يوما ، فصاح فجأة فى أحد حراسه : « جئنى بسياط وعقاب وحبال » .. فارتاع كل من كان حاضرا مجلس الخليلة وظنوا انه يريد الايقاع بهم ، أو ببعضهم ، ولم يكونوا يعرفون ذنبهم ، ولكنهم كانوا يعرفون بطش المهدى وسطوته أحيانا بغير حق ! ..

أما الحرس الذى تلقى أمر الخليفة ، فانه فهمه على وجهه الصحيح ، فخرج ثم عاد بعد قليل وأنا معه وورائى صديقى « عقاب » الذى يتولى الضرب والايقاع لى حين أغنى وصديقى « حبال » الزامر الذى يزمر لى عند الغناء ، وكلاهما بارع فى صناعته ! ..

فلما وقفنا بين يدى الخليفة فهم جلساؤه أنه كان يعبث بهم ، فجعلوا يضحكون فى أكمامهم ونسمع شتائمهم لنا ! .. ويهمس بعضهم لبعض : هؤلاء سياط وعقاب وحبال ! ..

وأمرنى المهدى فى ذلك اليوم فغنيت ، وضرب عقاب فأحسن الضرب ، وزمر حبال فأجاد الزمر ! ..

ما أكثر الذكريات ، وما أوجعها اذ تعتادنى فى هذه الساعة ، وقد بلغت الروح الحلقوم ! ..

## ● اليوم الرابع :

هذا اليوم لم يكتبه سياط ، بل كتبه تلميذه المطرب الكبير ابن جامع ،

بعد أن شيع هو وأصحابه استاذهم الى مقره الاخير ..

قال ابن جامع :

دخلت على سياط في مرضته الاخيرة أعوده .. رأيته يدخل فى النزع ، فاستعبرت وانتحبت فالنفت نحوى وقال بصوت متقطع خافت : « لا تزيدوا فى غنائى شيئا ولا تنقصوا منه شيئا .. دعـوه رأسا برأس .. فانما هو ثمانية عشر صوتا » ! ..

قلت له :

ــ كنت قد سمعتك تخبر الموصلى ان غناءك ستون صوتا ! ..

فلم أسمع منه ردا .. لقد قضى الامر ! ..

بحثت عن والدته فى منزله فلم أجدها فى تلك الســاعة ، وكان يعيش معها ، وجاء بعض أصدقائه ، فشهدوا معى موته .. ثم جاءت أمه ، فقالت : أمات سياط ؟! .. قلنا : يرحمه الله ! .. فلم تزد على أن قالت : هكـذا مات أبوه فجأة ! .. قلنا : ولكنه مريض منذ حين ! .. قالت : انه كان يمرض ثم ينهض ، حتى جاءته هذه الفجاءة كما جاءت أباه من قبل ! ..

فلم نجد خيرا فى الكلام معها ، فقد خرفت هذه العجوز ..

وقمنا فاصلحنا أمره ودفناه رحمه الله ! ..

قال ابن جامع : « وقد سمعت المغنين وأخذت عنهم وتفقدت أغانيهم فما رأيت مثل سياط قط » ! ..

[illegible] فیه جعفرا
[illegible]
[illegible] نوقتربرا
[illegible] پشتر

# دمـــوع متـــيّم

## اليوم الاول :

اسمي « بذل » أبذل للناس فن الغناء كما يبذل الكرام أموالهم للمحتاجين!

يصفني شيوخ فن الغناء بأنني أحسن الناس غناءفى هذا الزمن ، ويزعمون انى أستاذة كل محسن ومحسنة من المغنين والمغنيات الآن ، واني أعظم رواة الغناء العربى القديم من أيام طويس فى عهد عثمان بن عفان في المدينة المنورة الى أيام الموصلي فى بغداد ..

اشتراني الامير جعفر بن موسى وأنا صبية صغيرة .. وفى قصره تفرغت للغناء وسمعت أكابر المغنين ، ورويت عنهم الحانهم والحان الاقدمين ونبغت وصرت أشهر مغنيات بغداد .

ولما تولى الخلافة محمد الامين بعد أبيه هارون الرشيد ، أراد شرائى من ابن عمه الامير جعفر ـ وهو ابن الخليفة الاسبق موسى الهادى رحمه الله ـ فأبى جعفر أن يبيعني للامين ، فاحتال عليه حتى اختطفنى من منزله وانصرف بى الى قصر الخلافة ..

وفى اليوم التالى بعث اليه الامين فجاء وأنا جالسة بين يديه ، فلم يتكلم جعفر بشىء ، وكظم غيظه ، ثم قام منصرفا فصاح الخليفة فى الخدم

ـ أوقروا سفينة ابن عمي دراهم ! .

فانطلق الخدم الى سفينة جعفر التى كانت راسية على شاطىء دجلة تحت شرفات قصر الخليفة وملأوها بقناطير من الدراهم ، ونظر جعفر الى سفينته مشحونة بالاموال . فنسيني وانطلقت به فى مياه دجلة حتى ألقت مراسيها قرب قصره .. وأسرع خدمه ينقلون منها الى خزانته الاحمال الهائلة من المال .. فلما فرغوا من نقلها وجدوها قد بلغت عشرين ألف ألف درهم ! .

فأنا أغلى الجوارى المغنيات ثمنا فى تاريخ الغناء كله ، ولا يقع فى وهم مغنية مهما كانت جميلة بارعة أن يشتريها خليفة أو أمير بعشر معشار هذا المال الجليل الذى اشترانى به محمد الامين .

## اليوم الثاني :

بلغت عند الخليفة الامين غاية الحظوة .. أعجبه غنائى حتى كاد يطير

بلبه .. أعجبه جمالى .. راقته شمائلى فى جميع الاحوال ولكن الايام ركضت بنا كالخيـــــل الجـــامحة ، فسرعان ما تولى السرور ، وأقبلت الحوادث المزعجة ، فالحرب دائرة منذ مدة بين الامين وأخيه المأمون .. أراد الامين أن يعزل أخاه عن ولاية العهد ويجعلها لطفل صغير ولدته احدى جواريه ، وقد نصحته الا يعزل أخاه فلم ينتصح ، وبصرته بالعواقب فأبى أن يتبصر .. وها نحن أولاء نجنى معه الثمرة المرة لعناده ! .. فجيوش المأمون اقتحمت أبواب بغداد ، وشرعت تزحف على قصر الامين تطلب رأسه ! ..

فزع الامين فزعا شديدا حين اقترب جنود المأمون من قصره ، وخلع ثيابه حتى صار عاريا الا من سروال قصير ، ورأيت جنديا اسود الوجه يجرى وراءه، والخليفة يصيح :

ـ الله .. الله فى دمى ! .. لا تقتلنى فأنا ابن عم رسول الله .. جدى العباس بن عبد المطلب ، وأبى هارون الرشيد ، وأخى المأمون ! ..

ولكن العبد الاسود هجم عليه مصلتا سيفه فوق عنقه ، والامين يصـيح فى العبد مذكرا اياه بنسبه وحسبه ، حتى سقط رأسه على الارض وسيف العبد الاسود يقطر من دمه ! ..

## ● اليوم الثالث :

تغيرت الدنيا بعد زوال دولة الامين وقيـــام دولة المأمـون .. ليس لى مورد رزق الآن ، ونفقتى من مدخراتى ، فقد وهب لى جعفر بن الهـادى ومن بعده محمد الامين مقدارا عظيما من الجواهر الثمينة ، وأنا أبيـــع من هـذه الجواهر شيئا بعد شىء وأعيش من ثمنه ! ..

وقد لبث المأمون مدة فى بلاد فارس ، ولم يعد الى بغداد الا أخيرا ، ويقال انه على علمه وفضله وديانته ، دموى المزاج ، وكذلك كان أبوه الرشـــيد وجده المهدى ، يتذكرون الله فتنهمر دموعهم على خدودهم ، ثم يقتلون أقرب الناس اليهم بلا رحمة ! ..

والا فكيف يعقل انسان ان خليفة استودعه الله دماء الناس ، وحرم عليه سفكها الا بالحق ، يقتل شاعرا من أجل بيتين مدح بهما رجلا يستحق المدح!

لقد مدح الشاعر على بن جبلة ، قائدا من قواد المأمـون ، هو القاسم بن عيسى أبو دلف ، المشهور بالشـــجاعة والكرم والرقة ومعـرفة الغناء وقول الشعر ، فكان مما قاله ابن جبلة :

**انما الدنيـــا ابو دلف**
**بين مغـــزاه ومحتضره**
**فـاذا ولى ابـو دلـف**
**ولت الدنيـــا على اثره**
**كل من فى الارض من عرب**
**بين باديـه الى حـضره**

مســـــتعير منه مكرمة
يكتســــيها يوم مفتخره

بلغت هذه الابيات المأمون ، فأحفظته على الشاعر ، وملأته عليه حقـدا ، فامر بأن يسل لسانه من قفاه ! ..

الى هذا الحد بلغت وحشية المأمون الذى تذرف عيناه أحيانا من خشية الله ! ..

ان ابن جبلة لم يكن يقصد بطبيعة الحال ان يضع الخليفة المأمون فى جملة العرب الذين ذكر الشاعر انهم يستعيرون من مكارم أبي دلف كسوة لهم ، بل كان يقصد عامة العرب ، من غير بيت الخلافة ، ومن غير بنى هاشـــم ، وانما ذكر ابن جبلة العرب ، لان ممدوحه أبا دلف العظيم عــــربى خالص النسب ، والشاعر ينوه بذلك لان كثيرا من قواد جيش المأمون هم من الفرس والترك والاجناس الاخرى ..

والمأمون من أبصر الناس بالشعر فلا يفوته ان الشاعر لم يقصده بما قال لان للخليفة محلا رفيعا فوق العرب والعجم ، ولكن المأمون حسد قائده أبا دلف على الشعر البليغ الذى قيل فى مدحه وتناقله الناس وطبق الافاق ،فأسرها فى نفسه للشاعر البرىء المسكين حتى قتله شر قتله .. ولم يشف غليله الا أن ينزع لسانه من قفاه لا من فمه ! ..

وما سمعنا ان قطاع الطرق بين بغداد والبصرة ، أو بين البصرة والاهواز ، يفعلون مثل ذلك بمن يسقط فى قبضتهم ! ..

## ● اليوم الرابع :

استدعانى المأمون ، وأمرنى أن اتردد على قصره من حين الى حين ، أغنى له وأطربه كما كنت أطرب أخاه الامين .

وكثرت زياراتى لقصر الخليفة حتى صارت لى فيه مقصورة أبيت فيهـــا وتقوم الجوارى على خدمتى .

وتبسط معى المأمون حتى صرت أمازحه واقلب فى غنائى بعض كلمـــات الشعر الى كلمات تخدش الحياء ، تفكها وتظرفا ، فيضـــحك المأمون ويسره ما أفعل ويجيبنى بكلمات مثلها ، أو أشد منها تعبيرا عن واقع الحال الذى نحن فيه ! .

لم يعشقنى المأمون ، بل أعجبه غنائى وظرفى لا أكثر ، أما الذى عشقنى حقا فهو القائد على بن هشام ، وهو من أعظم قواد جيش المأمون ..

وقد تصنعت الغضب عليه منذ أيام فشكانى الى المأمون ، فأمره بأن يزورنى فى بيتى ويسترضينى ! .

فلما دخل بيتى وقف على مقربة منى فلم أكلمه ، فقال لى ضارعا

— انى جئتك يا بذل بأمر أمير المؤمنين ، فقد سألنى عنك فقلت له : هى

غضبى لا تكلمنى ! ‥ فقال لى : فبحياتى عليك يا ابن هشام لا تدخل منزلك حتى تذهب اليها فى منزلها فتسترضيها ! ‥

فقلت لعلى بن هشام :

ـ ان كنت جئت بأمر الخليفة فأنا أرضى عنك ! ‥

فقال لى :

ـ يا ستى ! ‥ لقد كذب الوشاة على عندك ! ‥ ولن أنسى ما حييت انى جئت أسلم عليك أمس فلم تأذنى لى بالدخول ، ولمحت الوشاة جالسين من حولك ‥ وما وجدت الا الشعر أخفف به من وجدى ! ٠

فسألته أن ينشدنى هذا الشعر ، فقال :

ومما شجانى اننى يوم زرتكم
حجبت واعدائى لديك جلوس
فان ذهبت نفسى اليكم تشوقا
فقد ذهبت للعاشقين نفوس

## ● اليوم الخامس :

أنا لا أغار من تلميذتى « متيم » الجارية الجميلة المغنية الحاذقة ، التى تعلمت على يدى شيئا كثيرا ، وعلى يد اسحاق الموصلى شيئا أكثر ‥

ان كل من يراها ويسمعها يقول انها أحسن الجوارى وجها وغناء وأدبا ، ويعترف لها اسحاق الموصلى الذى لا يعترف لاحد بشىء ، أنها أحذق المغنيات والمغنين جميعا فى التلحين ‥ وقد سمعها البارحة فى سهرة بقصر على بن هشام ، فطرب وشرب وصفق ونعر ، ثم نهض يصيح وقد تملكته النشوة التى قلما تتملكه :

ـ يا متيم ‥ أنت أنا ‥ فمن أنا ؟! ٠

كأنه يريد أن يقول لها ان محلها فى صناعة التلحين والغناء قد صار مثل محله ، وانها تساويه فى التقدم والعبقرية ! ‥

وهذه شهادة لها من اسحاق ، لو عرضوه على السيف لما أعطاها لاحد غيرها ! ‥ فانه كثير التيه على أهل صناعته ، كثير التحامل على المغنين والملحنين ، مسرف فى حط درجاتهم ! ‥

وقد أخذت « متيم » مكانى فى قلب على بن هشام ، ولست أكره ذلك ، فأنا اغنى لكل الكبراء فى هذه الدولة ، وبخاصة الخليفة ، ولا اريد أن أعرف بالميل الى على بن هشام خاصة ، فهذا يضره ولا ينفعنى ٠

وعلى بن هشام شديد التعلق بمتيم ، يرى أنها دنياه كلها ، ويضن بها على سهراته التى تغنيه فيها الجوارى وحوله جلساؤه ، فاذا أراد سماع «متيم» اقتصر مجلسه على خواصه من المغنين كاسحاق الموصلى ! ٠

ولكن ندماء المأمون سمعوا عنها ، فوصفوا للمأمون روعة غنائها ، وحلاوة وجهها ، فتلطف ذات ليلة الى ابن هشـــام وطلب اليه أن يحضرها الى قصره ليسمعها ! ..

فلما سمعها المأمون ، طرب لها طربا شديدا ، وحلت من قلبه محلا رفيعا ، فسأل ابن هشام أن يهبها له ، فتجاعل الرجل سؤال الخليفة كأنه لم يتنبه اليه ، وأخذ جاريته وعاد بها مسرعا الى منزله ! ..

وساءت العلاقات بين المأمون وقائده الكبير منذ تلك الليلة ، فان هـــذا الخليفة الذى سمعت بعضهم يصفونه بأنه من رجال الفكر والفلسفة ، يختزن فى أعماقه ميراث الملك العضوض ، أو الملك العقيم ، فيجفو أقرب الناس اليه لذنوب طفيفة قد لا تكون ذنوبا ولا حتى هنات هينة جدا ، ولكنها تملؤه حقدا على أصحابها حتى يشتهى ان يرى دماءهم البريئة تجرى بين يديه ! .. ولن أنسى ما حييت ما صنعه مع على بن جبلة الشاعر المظلوم !

## ● اليوم السادس :

زارنى اليوم على بن هشام ، والهم يبدو فى وجهه وقال لى :

ــ يا بذل .. قد احتجت الى نصحك ورأيك فى أمر أهمنى وأطار النوم من جفونى ! ..

سألته مشفقة :

ــ وما ذاك يا على ؟! ..

ــ متيم ! ..

قلت جازعة :

ــ ماذا جرى لها ؟!

قال وقد أغمض عينيه متفكرا واجما :

ــ المأمون يلح فى طلبها .. يريدنى أن أهبها له ! ..

قلت له بعد لحظة تفكير :

ــ يا على احرص على ان تعلق متيم منك حتى تحبل ، فييأس المأمون منها . فانه لا يحب الجوارى ذوات الاولاد ! ..

وليتنى ما نصحته ، فما كاد المأمون يعلم بعد حين ان « متيم » قد حبلت، حتى غضب وفهم ان ابن هشام قصد أن يصرفه عن الجارية ، وأضـــمر له الشر ..

وقد وقع الذى كان على بن هشام يحذره ، وكنت أحذره أنا أيضا وجميع من يعرف كرم هذا الرجل وشهامته وطيب أخلاقه ! ..

ان المأمون الذى أخرج لسان الشـــاعر من قفاه ، قد عاودته دموية الملك

العضوض ، فأمر بقتل على بن هشام متذرعا بأمور لفقها له تلفيقا .

ثم زاد على قتله فأمر بمصادرة أملاكه وأمواله ! ..

وركبه الحنق على القصر الذى كان ابن هشام يعيش فيه مع متيم ، فأمر باخرابه فأخربوه وأحرقوه حتى صار اطلالا تثير الاحزان ! ..

ثم بلغ حقده عليه ، بعد قتله ومصادرته وتخريب قصره ، أن أصدر أمرا قاطعا بألا يقف أحد على أطلال القصر المخرب ، ولو لمجرد العبـرة والعظـة بأحوال الدنيا وتقلبات الايام ! ..

فمرت متيم مع بعض الجوارى بالقصر ، فرأته قد علت اطلاله الاتربة ، ونسج العنكبوت خيوطه ، وطرحت فى أفنية القصر المزابل ، فتوقفت تبكى عنده بهذه الابيات :

**يا منزلا لم تبل اطـــلاله**
**حاشا لاطـلالك ان تبـــلى**
**لم ابك اطـــلالك لـكنني**
**بكيت عيشي فيـــك اذ ولى**
**قد كان لى فيك هوى مرة**
**غيبــه التراب ومـا مـلا**

ثم بكت متيم حتى سقطت على الارض ، وجعلت الجوارى يناشدنها ويقلن لها : الله .. الله فى نفسك يا متيم ، فانك ان توقفت هنا جاءت الشرطة فاخذتك وعوقبت أشد عقاب لمخالفتك أمر الخليفة ! ..

ثم انتزعنها من ذلك المكان قبل أن يراها جند الخليفة متلبسة بالوقوف على اطلال قصر الرجل الذى أحبها واحبته ! ..

# مطرب عظيم .. ولكن ..

## اليوم الاول :

لا ادرى أين اهرب من لقبى هذا الكريه ! .. فأنا ذو اسم جميل يحبه الناس ويحترمونه . وكنيتى أيضا طيبة ، ولكن لقبى يجعل بعض الناس يضحكون أحيانا ، حتى أصدقائى ومعارفى الذين اعتادوا لقبى هذا يبتسمون أحيانا ضاحكين منه ! ..

اسمى محمد بن حمزة بن نصير ..

كنيتى « أبو جعفر » ..

لكن لقبى « وجه القرعة » !

وكثير ممن يخاطبوننى ، لا يستعملون الا لقبى هذا !

وأنا ـ والله ـ أحد المغنين الحذاق الضراب الرواة ، يعترف لى جميع أهل صناعتنا بذلك ، الا من حسدنى أو جهلنى أو جحدنى حقى ! ..

أخذت صناعة الغناء وأسرارها عن شيخ المغنين والملحنين ابراهيم الموصلى، وأخذت أيضا من آخرين فى طبقته ، واعترف لى الموصلى وطبقته بجمال الصوت ، لا عيب فى صوتى ولا غنائى ، الا اننى كنت وما زلت اذا غنيت الهزج لم أتحكم فى غنائه فيخرج صوتى عن الصواب فى أدائه ، لسبب لم أكن ادريه ولا أدريه حتى اليوم ! .. سألت عنه أستاذ أهل الصناعة ـ الآن ـ اسحاق الموصلى ، فقال لى هى آفة تعرض للحس أو الطبع ، فى جنس من أجناس الغناء ، فلا يصح له اللحن مهما اجتهد !

قلت له

ـ وما أصنع فى هذه الافة يا سيدى ؟!

قال

ـ تترك غناء الاهزاج ، وتقتصر على الغناء الثقيل ، فانه هو الغناء حقا !

ما زلت أذكر أول مرة سمعنى الموصلى الكبير وابنه الموصلى الصغير ، أعنى ابراهيم واسحاق الموصليين ، فقد سأل ابراهيم ابنه بعد أن سمعانى يومئذ وكنت شابا صغيرا

ـ ما رأيك فى غناء هذا الغلام ؟!

قال اسحاق

ـ لن يبلى فن الغناء ما دام مثل هذا الغلام الموهوب ينشأ فيه !

## ● اليوم الثاني :

كنت اليوم فى مجلس بعض الهاشميين فى بغداد ، فجاء اسحاق الموصلى ·· ولم يطلب منى أحد أن أغنى لانهم يعلمون اننى اذا سئلت أن أغنى ، أبيت ذلك كل الاباء ، فاذا أمسكوا عن سؤالى ، وطال امساكهم عنه ،كنت أنا المبتدىء بالغناء

وكذلك كان فان القوم أمسكوا عن سؤالى الغناء ، حتى طلبت العود فأتونى به فغنيت لحنا من صنعة اسحاق الموصلى كأننى أحييه وأعلى مكانته لحضوره فى المجلس :

**مر بى سرب ظبـــاء**
**رائحات من قبـــاء**
**زمرا نحو المصـلى**
**يتمشـــين حـذائى**
**فتجـاسرت والقيت**
**سرابيـــل الحيـــاء**
**وقديما كان لهـــوى**
**وفتـونى بالنســـاء**

فأحسنت والله أداء هذا اللحن وجعل اسحاق يشرب ويستعيده حتى شرب ثلاثة أرطال ·· ثم قال

ـ أحسنت يا غلام ·· هذا الغناء من صنعتى ، ولكنك تتقدمنى فى أدائه !

كانت هذه شهادة كبرى من اسحاق الموصلى لا يظفر بمثلها منه كبـــار المغنين المشهورين الذين يغنون للخلفاء ·

## ● اليوم الثالث :

جلست مع بعض الهاشميين فى بستان بضواحى بغداد ، فغنيتهم

**يا دار اقفـــر رســــمها**
**بين المحصــب والحجـون**
**يا بشر انى ، فاعــــلمى**
**والله مجتهــــدا يمينى**

فاذا برجل راكب على حمار ، يقصد الينا وهو يصيح

ـ أحسنت يا وجه القرعة ·· أعنى أحسنت يا أبا جعفر ! ·· أحسنت والله !

فقال القوم للرجل :

ــ ادخل الينا كائنا من كنت ! ..

فدخل يقول :

ــ لو منعتمونى الدخول لما امتنعت ! ..

كان الرجل ملثما ، فسفر اللثام عن وجهه فاذا هو أمير المغنين أبو المهنا مخارق ! ..

فاحتفى القوم به ، وأكرموه ، وسروا به سرورا عظيما ، وقمت فعانقته وقبلت رأسه ، فقال لى :

ــ يا أبا جعفر .. أعد علينا صوتك ! ..

فأعدت اللحن مجتهدا متحفظا ، حتى أحسست انى أتيت فيه بأجمل شيء، فطرب مخارق وطرب الهاشميون . وقال لى مخارق :

ــ لولا انى مدعو الخليفة ، وقد حان موعد الدعوة ، لاقمت استمع الى هذا الغناء الذى هو أحسن من الزهر فى هذا البستان ! ..

ثم أنصرف مخارق ليغنى فى مجلس الخليفة ، وبقيت أغنى فى البستان ، وقد ارتفع قدرى عند الهاشميين الذين سمعوا ثناء مخارق على غنائى ، وهو من هو فى شهرته ومكانته فى الغناء ، ومحله فى مجلس الخليفة لا يجهله أحد ! ..

## ● اليوم الرابع :

قصدت دار اسحاق الموصلى أعوده فى مرض أنهكه ، فصادفت عنده مخارقا وعلويه واحمد بن المكى وغيرهم من أهل صناعتنا ، يتحدثون ، فاتصل بينهم الحديث وتفرع شجونا ، حتى عرض عليهم اسحاق أن يقيموا عنده ذلك اليوم ليخرج بهم من ضائقة المرض ! ..

وجيء بالنبيذ فوضع بين أيديهم .. وأخذوا فى الغناء واحدا بعد الاخر ، فغنى علويه لحنا من الغناء القديم ، فلما رأيته يخرج فى أدائه عن وجهه الصحيح خالفته فيه ، وطال جدالنا ــ وأنا وعلويه ــ فى ذلك ، وان علويه لذو مكابرة ولو كان الحق واضحا ! ..

لم يتكلم اسحاق الموصلى .. ظل يتابع المناقشة فى صمت كأنها لا تعنيه، وان كان لم يفته حرف منها ، ولم ينتصر لى ولا لعلويه ، فتحاكمنا اليه .. فامتنع من الحكم ، وقال :

ــ انتما فى بيتى ، ولا أحب لكما التنازع فى هذا الصوت ولا فى غيره .

فقال له علويه :

ــ يا أبا محمد قد احتكمنا اليك ، فاحكم ! ..

فصمت اسحاق ولم يتكلم ، واستحثه علويه فى لجاجة يعرفهـا عنه عارفوه جميعا فقال اسحاق :

ـ يا علويه .. قد حكمت لمحمد ! ..

فازداد علويه لجاجة ، وراجع اسحاق فى حكمه ، فرده اسحاق قائلا فى صوت المريض الواهن :

ـ حسبك ، فوالله ما فيكم أدرى منه بما يخرج من رأسه ، من هـذه الصناعة ! ..

ثم غنى أحمد بن يحيى المكى : « قل للجمانة لا تعجل باسراج » .. فلما فرغ من غنائه ، قلت :

ـ هذا اللحن لمعبد ، ولا يعرف أحد لمعبد هزجا غير هذا ..

فقال أحمد المكى كأنه يسخر :

ـ أما على ما شرط أبو محمد اسحاق الموصلى من انه ليس فى جماعتنا هذه من هو أدرى منك بما يخرج من رأسه فلا أعارضك يا وجه القرعة ! ..

فقال اسحاق لاحمد بن المكى :

ـ يا أبا جعفر ، ما عنيتك والله فيما قلت آنفا .. ولكن قـد قال لـك أبو جعفر محمد بن حمزة ، انه لا يعرف لمعبد هزجا غير هذا ، وكلنا نعلم أن هذا الهزج لمعبد ، فجىء أنت بهزج آخر له ، مما لا يشك فيه العـرفاء بالصناعة ! ..

فوجم أحمد بن المكى .. ثم قال :

ـ صدقت والله يا أبا محمد .. فما أعرف لمعبد هزجا آخـر لا يداخلنى شك فى نسبته اليه ! ..

فانتصرت على أحمد بن المكى وعلى « علوية » فى تلك الساعة .. ورأيت مخارقا ـ وهو لى صديق ـ يبتسم كأنه شامت فى علويه وابن المكى ، وما أكثر شماتة المغنين بعضهم فى بعض ! ..

● **اليوم الخامس :**

دخلت على اسحاق الموصلى مهنئا بالسلامة من علته التى كان فيها ، فدعا بعود فغنيت اصواتا للقدماء وأصواتا لابيه ابراهيم الموصلى ـ رحمـه الله ـ واصواتا له هو ، أعنى اسحاق ، فى ايقـاعات مختلفة ، فوجـه خادما الى جوارى أبيه المغنيات ، فجئن وجلسن وراء الستار يسمعننى ! ..

فبلغنى أننى لما انصرفت قال اسحاق لجوارى أبيه ولجواريه :

ـ ما عندكن فى هذا الفتى ؟! ..

فقلن :

ـ قد ذكرنا به والله أباك فيما غناه ! ..

فقال لهن :

ـ صدقتن ! .. انه والله لمغن محسن ، ولكنه لا يصلح للمطارحة ، لانه يزيد فى أصول الالحان من ارتجاله ، فلا يعرف من يأخذ عنه اين أصل اللحن وأين زوائده .. فهو لهذا لا ينتفع به في الرواية .. ولكنه مغن مطـــرب لا نظير له ، وان كان قليل الحظ عند الخلفاء ، وليس الاستحقاق للحظوة عندهم ، الا ضربا من الحظ أحيانا ! ..

واسحاق كثير النقد لمن يتزيدون فى أصول الالحان ويضيفون اليها من ارتجالهم ، لانه ملحن أكثر منه مطربا .. فدفعه ذلك الى الحرص على أصول الحانه ، ولكن المطرب ذا الصوت الجميل المتمكن .. يغنى أصل اللحن ، ثم يضيف اليه ما يقدر عليه من ارتجال زيادة فى اطراب السامعين ، والا فكيف يظهر فضل مغن على مغن آخر ، كلاهما يروى اللحن على أصله ؟! ..

على ان اسحاق يحق له الحرص على الدقة في رواية الالحان غير محـــرفة عن أصولها ، لان الغناء العربى انما قام على هذه الاصـــــول ، ولو اختلت الرواية لاختل هذا الفن وتهدم .. ولا سبيل الى تثبيت هذه الاصـــــول الا بالرواية الصحيحة .. غير أن المطرب الراوية المتمكن يؤدى الغناء بأصـــوله حتى تثبت عند من يحب أن يرويها ، ثم يضيف اليها من ارتجـــاله ما شاء بحيث يعرف سامعوه ذلك ، ويميزون الاصل من الارتجال ! ..

ولكن هذا قلما يتاح ! .. واسحاق على حق فى تشدده ! .

## ● اليوم السادس :

زرت مخارقا فى منزله ، فصـــادفت عنده كثيرا من المغنين ، فلما رأونى تغامزوا ، وتهامسوا : قد جاءكم وجه القرعة ! ..

فلم أبال بهم ، وسلمت على مخارق ، فأقبل مرحبا بى ، وبسط لى وجهه .. ثم قال :

ـ يا أبا جعفر .. ان جواريك « اللواتى فى ملكى » قد تركن الدرس من مدة ، فأحب أن تدخل اليهن ، وتصلح من غنائهن ، وتذكرهن ما نسين من دروس الغناء ! ..

ثم صاح مخارق بخدمه ، فسعوا بين يدى الى الجوارى ، فأتممت عندهن ما سألنى مخارق .. ثم خرجت اليه وأولئك المغنـــون عنده ، فأعلمته بما صنعت ، فشكرنى وأجلسنى الى جانبه .. فأقبلت على المغنين فقلت لهم :

ـ قد رأيت غمزكم ولمزكم ! .. فهل فيكم أحد رضى أبو المهنا مخارق ـ أعزه الله ـ حذقه وأدبه وأمانته ، ورضيه لجواريه غيرى ؟! .. وهل رأيتم رقتـه وظرفه حين قال لى : « جواريك اللواتى فى ملـكى » .. وانمـــا هن جواريه هو ، وهن ملك يمينه ، ولكنه يتطلف فى الكلام شأن كرماء الناس وأشرافهم .. وقد رأيتكم تغمزون وتلمزون كالسوقة ! ..

فصمت المغنون جميعا من فرط خزيهم ، ولم يحيروا جوابا ، كأنما ألقمتهم حجرا ! ..

# سوق الغناء الطنبوري

## اليوم الاول :

حظى طيب والحمد لله ، ففي عصرنا هذا لا يحصل المغني اذا كانت آلته التي يضرب عليها هي الطنبور ، الا القليل من الرزق ، في حين اتسعت الدنيا للمغنين الذين يلحنون على مقتضى نغمات العود ، ثم لايتركون العود من أيديهم أبدا حين يلحنون أو يغنون ! ..

العود سيد آلات الضرب .. من أجاد الضرب عليه ، أجاد التلحين اذا كان موهوبا فيه ، وهذا اسحاق الموصلي ، يتيه على الخلفاء والامراء والكبراء بالحانه ، ومكانته في الدولة أعلى من مكانة حاجب الخليفة أو وزيره .. وكل ما اكتسبه اسحاق انما اكتسبه بعلمه الغزير في « العود » ومذاهب الغناء عليه قديما وحديثا .. أما صوت اسحاق فكل صوت غيره أحسن منه او مثله .. ولولا صناعته الفائقة في التلحين ، وأداؤه الفذ في الغناء ، لما بلغ شيئا مما بلغه ، أبقاه الله ورعاه ، فانه والله رجل تقى ورع صالح الاخلاق ، لولا اشتهاره بالغناء لتولى القضاء أو الوزارة ، وهو رأس صناعة الغناء الآن ، وأستاذ كل من يتعاطى هذه الصناعة من مغنين ومغنيات ! ..

لكنى أعتب عليه لانه يقول : غناء الطنبور باطل كله ، ولا يتعاطاه الا من عجز عن الغناء المتقن على العود ..

ولا أنكر ان أكثر من سمعتهم من الطنبوريين ليسوا على شيء من العلم بالصناعة ، لكن هؤلاء يغنون في الاسواق والافراح والولائم وسهرات السوقة فقط ! ..

أما أمثالي ، فلا يقل قدرهم شيئا عن أقدار المغنين على العود .. وقد سمع الخلفاء بعض الطنبوريين ، وأنا أكبرهم حظوة عند الخلفاء ، ولا أعلم أحدا ينافسني في الغناء على الطنبور في بغداد أو في غيرها من مدائن الاسلام .

ولكن صناعتي مع حذقي فيها ، لا تقوى على مزاحمة فحول الغناء في بغداد .. وكيف أزاحم هذا الحشد من المغنين والقيان ، مشهورين ومغمورين ومن جميع الاجناس والالوان .. امتلأت بهم بغداد حتى لم يعد فيها لامثالي موضع قدم ! ..

ما من كبير ولا أمير ولا صاحب مال في هذه المدينة الا لديه الجواري المغنيات أو الغلمان المغنون ، حتى لتنبعث الاغاني والاهازيج ليلا ونهارا من

النوافذ والشرفات في هذه المدينة التي التقت فيها أربعة أركان الدنيا ! ..

ولما وجدت الامر كذلك ، وأن استخلاص الرزق هنا صعب جدا ، يريق ماء الوجه .. قلت في نفسي : ما مقامك يا أحمد بن صدقه في بغداد ، ودمشق أطيب لك ، والرزق فيها ميسور موفور ؟! ..

حملت متاعي القليل ، وأخذت طريقي الى الشام ، حيث لا يوجد المغني البارع الا في النادر ، ، وحيث أستطيع أن أغني بالطنبور وأرتزق واغتني، ويقول عني الناس : ما في الدنيا من يغني على الطنبور مثل أحمد بن صدقة

## ● اليوم الثاني :

ها هم أولاء يتذكروننا بعد نسيان ! ..

اقمت بالشام ما أقمت ، وظننت ان العراق لا يحتاج الى طنبوري ، حتى جاءني رسول من الخليفة المأمون يقول لي :

ـ أمير المؤمنين يدعوك ..

قلت

ـ السمع والطاعة ! .. وأنا على الاهبة ! .. ثم سألت رسول الخليفة متلطفا

ـ كيف خطر اسمي على بال أمير المؤمنين أعز الله نصره ؟! ..

قال بكبرياء :

ـ جاء اسمك في معرض حديث عن الطنبوريين الحذاق ، فوصفوك لامير المؤمنين ، فأمرني باحضارك ! ..

هكذا عدت الى بغداد !

سمعني أمير المؤمنين المأمون ، فاستحسن غنائي ، وأجزل صلتي ، وعرف الامراء والكبراء اني أعجبت الخليفة ، فأكثروا من دعوتي للغناء في قصورهم فكسبت منهم أضعاف ما كسبته من الخليفة ! .. ولو لم يرفع الخليفة من قدري ما عرفَ قدري أحد من هؤلاء ..

الا أن بعض حسادي يزعمون أن في بغداد من يساويني أو يفوقني في الغناء على الطنبور ، ويذكرون مغنيا طنبوريا اسمه « المسدود » .. سمعته فعرفت تقصيره في الصناعة ، ويذكرون أيضا عبيدة الطنبورية ويزعمون أن اسحاق الموصلي قال لما سمعها : « غناء الطنبور اذا تجاوز عبيدة هذيان » ! .. ويزعمون كذلك ان الامير ابراهيم بن المهدي قال : « غناء الطنبور كله باطل الا من أبي حشيشة » ! ..

وان أبا حشيشة لمغن طنبوري قدير جميل الصوت ، لكني لست أقل منه صوتا ولا صناعة ، وقد غنى للخلفاء والامراء فراجت بضاعته ، وأما أنا فأقمت بالشام بعيدا عن عاصمة الدوله فأخملني هذا البعد عنها ، وتقدمني من كنت جديرا بأن أتقدمه ! ..

أما عبيدة الطنبورية ، فلا أنكر أن لها صوتا وفنا في الغناء بالطنبور ، بل هي أفضل عندي في هذا الفن من أبي حشيشة ، وقد شهد لها اسحاق الموصلي بالحذق ، ولم يشهد لابي حشيشة ، وحسبها بشهادة اسحاق ! ..

الا أن عبيدة الطنبورية على اعتراف الطنبوريين لها بالرياسة والاستاذية، امرأة متبذلة يلوك العامة سيرتها ، ويرون تهالكهـا على الرجال .. وقد أرخصت نفسها كما أرخصت صناعتها .. ولو كانت هـذه المرأة جارية مشتراة من سوق الرقيق لصانها سيدها ، ولكان لها شأن في الغنـاء عند الخلفاء .. ولكنها خرجت تغني وتعمل بين الناس وهي حرة لم يمسـها الرق ، فهان أمرها على الاحرار والارقاء ، وصار أجرها دينـارين فقـط ، لا يزيد دانقا .. وقد تحرج الخلفاء من دعوتها للغناء عندهم فسـقط أمرها وستبقى كذلك الى نهاية أمرها ..

قلت ذلك للمغني الطنبوري المسمى بالمسدود فقال لي :

ـ لا تقل ذلك يا أحمد بن صدقة ، فانها المتقدمة على جميع الطنبـوريين والطنبوريات .. وقد أذلها الزمن واضطرها الى كسب عيشها بهذه الطريقة التي جعلتها من بنات الهوى ، وهي أستاذة فن الطنبور ! ..

ثم ضحك المسدود وقال :

ـ أتعرف غلامها الذي يلقبونه « ظئر عبيدة » ؟!

ـ ولماذا يلقبونه « ظئر عبيدة » .. أترضع عبيدة من ثديه كما يرضـع الطفل من ثدي ظئره ؟! ..

ـ لا .. ولكنها تقول هازلة غير مبالية : هو بمنزلة بغل الطحان ، يصلح للطحن والحمل والركوب .. وأصفعه اذا شئت ! ..

قلت :

ـ أشتهي والله سماعها ! ..

قال المسدود :

ـ هذا يتاح لنا بعد يوم أو يومين ان شاء الله ..

◉ اليوم الثالث :

جلست عند بعض الكبراء اسـمع غنـاء عبيدة الطنبورية .. وحضر جماعة من بينهم اسحاق الموصلي ، فلما غنت طرب اسحاق وشرب نصف قدح، ففعلنا مثله ، وجعلنا نشرب على غنائها نصفا بعد نصف ، حتى والى اسحاق بين عشرة أنصاف وقد تملكه الطرب لغناء عبيدة ! ..

ثم انصرف اسحاق وبقينا نسمع ، فقال لها بعضهم :

ـ لاتبالي ياعبيدة بعد اليوم أن تموتي ! ..

ـ لماذا ؟! ..

ـ لان اسحاق الموصلي استحسن غناءك وشرب عليه ما شرب ، ولولا انك كنت متهيبة لحضره لكان غناؤك أحسن ، وطربه اكبر ! .. ووالله لقد رأيته مرات يستمع الى مخارق والى ابراهيم بن المهدى وهما اجمل الناس صوتا ، فما اهتز لاحد منهما ولا طرب ولا شرب ! ..

قالت :

ـ انه يهتم بالصناعة لا بالصوت ، وصناعتى فى الطنبور دقيقة جدا لا يعرفها أحد ، حتى ان اسحاق نفسه ليعجز عنها ! ..

خرجت من سهرة عبيدة الطنبورية ، فمررت بخالد بن يزيد الكاتب ، فقلت له : أنشدنى بيتين من شعرك حتى أغنى فيهما ، قال : وأى حظ لى فى ذلك؟! .. فحلفت له انى ان كسبت بهذا الشعر شيئا ، جعلت له نصفه ، فأنشدنى:

تقول : سلا ! .. فمن المدنف
ومن عينه ابدا تذرف ؟
ومن قلبه قلق خافق
عليك واحشاؤه ترجف ؟

فلما دعانى المأمون للغناء ، غنيته هذين البيتين ، فانقلبت عيناه غضبا وقال لى : يا ابن كذا وكذا .. ألك جاسوس فى قصرى ؟! ..

فوثبت مرعوبا اقول :

ـ يا سيدى ما السبب ! ..

قال والشرر يتطاير من عينيه :

ـ من أين عرفت قصتى مع جاريتى فغنيت فى معنى ما بينى وبينها من هجران وسلوان ؟!

فحلفت له انى لا أعرف شيئا من ذلك ، وحدثته كيف أنشدنى خالد الكاتب هذين البيتين ! ..

فهدأ وقال :

ـ ان هذا الاتفاق لعجيب ظريف ! ..

ثم امر لى بخمسة الاف درهم ولخالد بمثلها !

فلما انصرفت تبعنى بعض خدم القصر ممن أثق بهم فقال لى :

ـ أوشكت يا احمد أن تموت بسبب تفاحة عنبر ! ..

فأستخبرته الخبر ، فقال :

ـ ان أمير المؤمنين غضب على جارية له حظية عنده ، فوجهت اليه الجارية بتفاحة من عنبر ، عليها مكتوب بالذهب : « يا سيدى .. سلوت ؟! » ..

فلما غنيته أنت هذا الشعر الذى أوله : « تقول : سلا ؟! ·· فمن المدنف ؟!»
ظن أنك تعرض به ، وانك عرفت قصته مع الجارية فغضب حتى أوشك أن
يأمر بضرب عنقك ! ··

## ● اليوم الرابع :

دخلت على المأمون فى يوم عيد السعانين الذى يحتفل به أهل الذمة ،
فغنيته وغناه المغنون ، ثم جاءت اليه عشرون وصيفة روميات باهرات الجمال،
يلبسن الزنار فى خصورهن ، وعليهن الحرير والذهب ، وفى أيديهن الخوص
وأغصان الزيتون رمزا لعيد السعانين ·· فأعجب بهن المأمون وحركن قريحته
للشعر فقال هذه الابيات :

ظبـــاء كالدنانير
ملاح فى المقاصــير
جلاهن الســـعانين
علينـــا فى الزنانير
وقد زرفن أصـــداغا
كأذنـــاب الزرازيــر
واقبلن باوســـاط
كأوســاط الزنابير

ثم قال :

ــ يا احمد ·· غن على طنبورك فى هذه الابيات ! ··

فعملت على البديهة لحنا فى هذه الابيات ، واخذت أغنيه للمامون ، وهو
يظهر ارتياحه وطربه لغنائى ، ويشرب ، والجوارى يرقصن بين يديه أنواع
الرقص العجيبة التى لم أر مثلها ·· ففى احدى الرقصـــات واســمها
« الدستبند » يتماسكن بالايدى ثم يفترقن ثم يتماسكن ·· وفى رقصة أخرى
يقلدن الراكب على البعير فى حركته ، ثم يقلدن الجمل فى أنواع مشيه الذى
يشبه الرقص ! ··

ولم يزل المأمون يشرب ويتلهى بالرقص والغنـــاء حتى انتشى واكتفى ،
فامر لى بالف دينار ! ··

ثم امر بعض غلمانه أن ينثروا على الجوارى الراقصات ثلاثة الاف دينار ،
فنثروها عليهن فوقعن عليها يلتقطنهـــا ويضعنها فى منـــاديلهن ، فوقعت
مثلهن التقط ما أستطيع التقاطه من هذه الغيمة الماطرة ذهبا ! ··

وعرفت عندئذ ان للغناء الطنبورى قيمة وثمنا ·· وأننى أستطيع به أن
أعيش ! ··

# فريدة تقطّع أوتارها

## ● اليوم الاول :

اصلي فارسي عريق ٠٠ كان أبي الحارث بن بسخنر رفيع القدر عند الخليفة هارون الرشيد ، فولاه الاهواز كلها ، وهي عظيمة الغلة والخراج ، فكان أبي ينال على عمله فيها أموالا جليلة ، ويفي للدولة بالخراج ، فضلا عن هدايا للامراء من الجوهر والذهب والرقيق والخيل والبراذين وأشياء ثمينة كثيرة

سماني أبي محمدا ، محبة في محمد المهدى والد هارون الرشيد ، فلما كبرت صار من لا يعرفني يظنني عربي النسب حين يسمع الناس يسمونني « محمد بن الحارث » فاذا ذكروا اسم جدى « بسخنر » عرف حقيقة نسبي ، وانى لذو نسب في العجم عظيم ٠٠ كان أجدادى من المرازبة ذوى الابهة والسلطان قديما ! ٠٠

لم أرث مالا كثيرا عن أبي الذى أنفق ما كسب طول حياته في قضاء حاجات الناس والاحسان اليهم بالجوائز والصلات ، كأنه عربي بل هاشمي ٠٠ كان يتصده الشعراء وذوو الحاجات فيعطيهم أكثر مما يعطيهم بنو هاشم حتى ليأمر بأربعين ألف دينار لرجل يلقاه في الطريق ، أو بمائة الف درهم لشاعر أو لذى حاجة يطرق بابه ! ٠٠

هكذا ضاعت ثروته ، وتركني وأهلي فقراء يحسبنا الجاهل أغنياء من التعفف ! ٠٠

كان أبي صاحب ذوق مرهف في السماع لا يصطفي لتعليم جواريه الا شيخ الملحنين اسحاق الموصلي ، فصرن أبرع الجوارى غناء ٠٠ وكان اسحاق يستحسن غناءهن ويعتمد عليهن في تعليم بعض جواريه اللاتى يعدهن للبيع أو لاهدائهن الى الخليفة وكبار رجال دولته ، استدامة لمودتهم وحسن رأيهم وعطائهم ٠

وعن جوارى أبي استطعت أن آخذ ما حفظن قديما من ألحان اسحاق الموصلي فحذقتها حتى صار اسحاق يقول من أراد أن يأخذ من ألحاني شيئا على أصله ، فليأخذه من محمد بن الحارث ، فانه أسرع خلق الله أخذا لالحاني !

احترفت الغناء لما نفد ميراثي المتواضع ، وصرت في حاجة الى الكسب ، ولكني وجدتني ضعيفا في التلحين المتقن على العود ، فصرت أغني ارتجالا ، وبرعت في الارتجال واعجبت الناس ودخلت مجالس الخلفاء ! ٠٠

لم انتفع في غنائي المرتجل بآلة موسيقية ، الا معزفة صغيرة أضرب عليها حين أغنى ، فكان بعض المغنين يضحكهم شكل هـــذه المعزفة حتى سموها « مصيدة الفأر » ·· فحلفت الا أغنى بها أبدا !

## ● اليوم الثانى :

فى سهرة أمير المؤمنين الواثق ، والمغنون حاضرون وفيهم اسحاق الموصلى ، قال لى الواثق :

ـ يا محمد بلغنا ان اسحاق يزعم انك أقدر من يأخذ عنه الالحان بلا خطأ البتة ، فغن شيئا مما أخذت عنه !

فالتفت الى اسحاق كأنى أسأله ماذا أغنى ؟! ·· فلم يرنى لضعف بصره ، فغنيت لحنه الذى صنعه فى بيتين من شعره

اذا المرء قاسى الدهر وابيض راســه
وثلم تثليـــم الاناء جوانبـــه
فليس له فى العيش خير وان بــكى
على العيش او رجى الذى هو كاذبه

فرايت اسحاق يشرب رطل النبيذ ويميـمـل طربا ، وما أطيب هيئته فى شيخوخته وقد أخذه الطرب ، لولا انه صار يعانى من ضعف بصره ، كان الله فى عونه وهو يحمل عبء الثمانين !

أما الواثق فانه قال لى

ـ احسنت يا محمد ما شئت ! ·· فبحياتى أعد اللحن

ثم أمر فجاءت جواريه ، وعلى رأسهن « فريدة » البارعة الجميلة ، فجلسن وراء ستارة ، ليأخذن اللحن عنى ··

فلما كثر ترديدى اللحن ـ وهو صعب ـ اجتهد كل من حضر أن يأخـذه عنى ، حتى أخذوه جميعا ، وعلى رأسهم الخليفة الواثق ! ··
وقال عمرو بن بانة الذى يغنى ارتجالا مثلى وهو الذى أهدى للواثق جاريته « فريدة » التى صارت أحظى جواريه :

ـ يا أمير المؤمنين ·· علمت منذ سنوات ان هبة الله بن ابراهيم بن المهدى يغنى هذا اللحن اجمل غناء ، فسمعته منه فكان كذلك ، فلما سمعته الآن من محمد بن الحارث علمت انه أحذق الناس جميعا بالحان اسحاق الموصلى مع انه مغن مرتجل لا يعرف ضرب العود ·· وانما كان يغنى الى عهد قريب على مصيدة الفأر ! ··

فضحك الواثق ، وتبسم اسحاق ، وتغامز المغنون ، وســـمعنا من وراء ستارة الجوارى همسا وضحكا خافتا !

خجلت فلم أرد على ابن بانة ، وخفت من سلاطة لسانه وقربه من الخليفة

بعد أن أهدى اليه جاريته « فريدة » أحب جواريه اليه ..

ثم قال الخليفة لاسحاق الموصلى كأنه يتوسل اليه :

ـ وأنت أبا محمد .. الا تغنينا الليلة شيئا ؟! ..

فأخذ اسحاق العود فجسه فكأنما لعب عفريت من الجن بأوتار العود ، ثم غنى ، وقد ضعف صوته لشيخوخته لكن بقيت فيه صناعته الفائقة :

**ذكرتك اذ مرت بنا ام شادن**
**امام المطايا تشرئب وتسنح**
**من المؤلفات الرمل أدماء حرة**
**شعاع الضحى فى متنها يوضح**

فطرب الواثق وصاح :

ـ احلفتك بحياتى أن تعيده وتطرحه على الجوارى حتى يأخذنه ! ..

فقال اسحاق :

ـ لا يستطيع الجوارى أن يأخذنه منى ، ولكن يأخذنه من محمد بن الحارث فانه يحفظه ! ..

ثم انصرف اسحاق الى منزله بجائزة كبيرة .. وقمت أنا الى بهو فى القصر أطارح الجوارى هذا اللحن ، وبقى الخليفة والمغنون فى مجلسه يتابعون الغناء والمنادمة ! ..

فلما عدت ، وجدت جارية تغنى :

**اصبح الشيب فى المفارق شاعا**
**واكتسى الراس من مشيب قناعا**
**وتولى الشباب الا قليلا**
**ثم يابى القليل الا وداعا**

فلما أتمته الجارية ، تجادل فيه المغنون فى حضرة الواثق .. قال مخارق : أظن هذا اللحن لمحمد بن الحارث .. فقال علويه : هيهات ! .. ليس هذا مما يدخل فى صنعة ابن الحارث .. لكنه يشبه صنعة ذلك الشيطان اسحاق الموصلى ! .. فقال الواثق : أظنه كذلك ! .. ثم أومأ ناحيتى كأنه يسألنى : لمن هذا اللحن ؟! ..

قلت : صدق علويه يا أمير المؤمنين .. هذا لاسحاق ومنه أخذته ، وعنى أخذته هذه الجارية اذ أمرنى أمير المؤمنين منذ مدة أن أطارحها به ..

فتذكر الواثق وقال :

ـ نعم .. كذلك كان ! ..

## ● اليوم الثالث :

صـــارت نوبتي في خدمة أمير المؤمنين في كل جمعة ، اذا جاء للوعـد ركبت الى قصره ، فأجده أحيانا مع اسحاق الموصلي وأحيانا مع جاريته فريدة .. ولكل مغن نوبة لا يحضر الى القصر الا فيها ، أما السهرات الجامعة فتكون بأمر من الخليفة ، وليس لاسحاق نوبة ولا يحضر الى الخليفة الا بعد تتابع الرسل اليه والحافهم في استدعائه ! ..

كانت نوبتي أمس ، ولم يكن عند الواثق الا فريدة ، فسألني الواثق :

ـ من احسن من سمعت من المغنيات منذ عهد المامون الى اليوم ؟! ..

قلت :

ـ فريدة وشارية اطيب المغنيات صوتا واتقانا للاداء .. ومتيم احسنهن تلحينا ، وعريب أغزرهن .. وعلى الجملة فانى لم أسمع احسـن من فريدة وشارية ومتيم وعريب وريق .. وقال لى اسحاق الموصلى ان ( بذل ) كانت فى طبقتهن ولم أسمعها ! ..

قال الواثق :

ـ صدقت .. كذا سمعت منه ! ..

ثم انصرفت الى دارى ، فلم آكد أجلس حتى هجم على مجلسى رسل الخليفة وقالوا لى : أجب امير المؤمنين ! .. قلت خائفا : خيرا ؟! ..قالوا : خيرا ان شاء الله .. قلت : لعلكم غلطتم ! .. قالوا : الله المستعان .. لا تطل ! فقد أمرنا الا ندعك تستقر على الارض ! .

فداخلني فزع شديد ، وخفت أن تكون وشاية قد غيرت رأى الخليفة فى امرى ، فأوصيت ثم ركبت حتى وافيت القصر ، وهممت أن أدخل من الباب الذى رسم الخليفة أن يكون دخول المغنين منه ، فمنعنى الحراس ، واخذنى الخدم فأدخلونى فى ممرات لا أعرفها فزدت جزعا ، ولم يزل الخدم يسلموننى من حارس الى حارس حتى أفضيت الى صحن مفروش بأبهى الرياش ، حيطانه ملبسة بالوشى المنسوج بالذهب ، واذا الواثق على سرير مرصع بالجوهر ، وعليه ثياب منسوجة بالذهب .. والى جانبه فريدة جاريته الاثيرة الحظيـة لديه جدا ، عليها مثل ثيابه ، وفى حجرها عود ، فلما رآنى قال : أسرعت يا محمد الينا ! ..

فقبلت الارض وقلت : يا أمير المؤمنين .. خيرا ..

قال : خيرا .. أما ترانا ؟! .. طلبت والله ثالثا يؤنسـنا فلم أر أحق بذلك منك ! .. فبحياتى بادر فكل شيئا وبادر الينا .. فقلت وقد اطمأن قلبى : قد والله يا سيدى أكلت وشربت أيضا ! ..

فأمر لى برطل نبيذ ، واندفعت فريدة تغنى :

**اهابك اجـلالا وما بك قـــدرة**

**على ولكـن ملء عين حبيبهـــا**

**وما هجرتك النفس يا ليل انها**

**قلتك ولا ان قل منك نصيبها**

فجاءت والله فى غنائها بالسحر ، وأوشكت أن أفتضح من شدة طربى فى مجلس الخليفة ، وجعل الواثق يجاذبها ، وفي خلال ذلك تغنى اللحن بعد اللحن ·· ثم يأمرنى فأغنى أنا فى خلال غنائها وغنائه ·· فمرت بنا أطيب ساعة تمر بانسان فى الدنيا ! ··

وفجأة رفع الواثق رجله فضرب بها صدر فريد ضربة عنيفة تدحرجت منها من أعلى السرير الى الارض وتكسر عودها ، وقفزت تعدو وتصيح ! ·· وأنا مشدوه مرعوب كالمنزوع الروح ! ·· ولم أشك انه غضب لشدة طربى لها وما اجتمعنا عليه نحن الثلاثة من التبذل ورفع الكلفة ·· وأطرقت أتوقع أن يأمر بضرب عنقى ، وأعددت نفسى للموت ! ·· على اننى فى الحقيقة برىء لا ذنب لى ! ··

فانى لكذلك ، اذ قال لى : يا محمد ! ·· ويحك ! ·· ارأيت أغرب مما تهيأ علينا ؟! ··

قلت :

— يا سيدى ·· الساعة والله تخرج روحى ! ·· فعلى من أصابنا بعين الحسد لعنة الله ! ·· فما كان السبب فيما حدث يا سيدى ؟! ··

قال وقد كسا وجهه اليأس والالم ! ··

— لا والله ! ·· ولكن فكرت في أن أخي جعفرا « المتوكل » يلى الخلافة بعدى ويقعد هذا المقعد مع فريدة كما كانت معى ، فلم أطق صبرا وخامرنى ما أخرجنى الى الغضب ! ··

فسرى عني ، وهان الامر عندى وقلت للخليفه :

— بل يقتل الله جعفرا ولا يجلس هذا المجلس ، ويحيـا أمير المؤمنين أبدا

ثم قبلت الارض وقلت :

— يا سيدى الله ·· الله ! ·· ارحمها ومر بردها ! ··

فجاءت وفي يدها عود جديد وعليها غير الثياب التى كانت عليها ، فجذبها وعانقها ·· فبكت فريدة وبكى الواثق بكاء مرا اليما ·· واندفعت أنا فبكيت لبكائهما ! ··

ثم قالت فريدة :

— ما ذنبى ياسيدى ، وبأى شىء استوجبت عندك هذه العقوبة ؟! ··

فاعاد عليها الواثق ما قاله لى وهو يبكى وهى تبكى ·· فقالت :

— سألتك بالله يا أمير المؤمنين الا ضربت عنقى الساعة وأرحتنى من الفكر فى هذا ، وأرحت قلبك من الهم بى ! ··

مات الواثق •• قال الاطباء وهم يعالجونه من مرض الموت انه شاب قوى وسيعيش خمسين اخرى ، فمات بعد خمسة أيام ••

تولى الخلافة المتوكل •• ومضت مدة •

دخلت نفس الصحن الذهبى الذى رأيت فيه الواثق يضرب فريدة برجله حين تملكه الوسواس الذى كان ينغث فى روعه انه يموت صغيرا ويرث الدولة من بعده أخوه جعفر المتوكل ، وقد صدق وسواس الواثق ، وصارت فريدة فى جملة جوارى المتوكل ! ••

رأيتها مع المتوكل فى الموضع الذى كانت فيه مع الواثق ، ولكنها لم تكن مع الخليفة الجديد كما كانت مع الخليفة الراحل ! ••

كانت ترفض أن تغنى للمتوكل •• فقال لى :

ـ اما ترى ما أنا فيه من النكد من هذه الجارية ؟! •• اننى منذ الصباح اطالبها بأن تغنى فتأبى ! ••

فتلطفت اليها وطلبت منها أن تغنى له•• وقلت لها :

ـ سبحان الله •• أتخالفين سيدك وسيدنا وسيد البشر ؟! ••

فضربت بالعود الارض فتقطعت أوتاره ، ورمت بنفســـها عن السرير الذهبى ، ومرت تعدو وتصيح حزنا على الواثق :

ـ واسيداه ! •• واسيداه ! ••

ثم ماتت فريدة من التعذيب ضربا بالسياط على وجهها وهى تابى ان تغنى للسيد الجديد ! ••

# ملك الطنبور

## ● اليوم الاول :

خدمت حتى يومنا هذا أربعة خلفاء ، أولهم أمير المؤمنين المأمون وآخرهم المتوكل على الله .. حياتى كلها فى قصور بنى العباس ومن يلوذ بهم من الكبراء وأرباب السيوف والاقلام ، وأول نشأتى فى صناعة الغناء عند الامير ابراهيم بن المهدى الذى شهد كل من استمع الى غنائه بأنه صاحب أجمل صوت فى الدنيا .. قال عنه بعض كبار المغنين انه أجمل الانس والجن والوحش والطير صوتا ! ..

ومنه تعلمت المثابرة فى طلب فن الغناء ، ولكنى لم أجد عنده رزقا يكفينى فانه أقرب الى البخل ، فانقطعت الى الامير أحمد بن الرشيد ، فأعجبه غنائى وعزفى على الطنبور ، غير انه كان يقول لى

ــ يا أبا حشيشة .. انك لن تتقدم فى صناعة الغناء الا اذا تعلمت ضرب العود وغنيت عليه ، وأراك تغنى بالطنبور وحده ولك فيه صنعة تفوقت فيها على كل طنبورى فى بغداد أو فى غيرها من البلاد ، ولكن الغناء الثقيل المتقن انما يكون على العود لا على الطنبور ! ..

ولكنى أخلصت للطنبور ، ولم أجد العود موافقا لمذهبى الخاص فى الغناء وصارت لى فى الغناء على الطنبور براعه لا يتعلق بها أحد ممن يتغنون على العود ، حتى ان المطرب الكبير مخارقا لما سمعنى قال لى

ــ والله ما فى الدنيا من يتغنى على الطنبور مثل غنائك .. وانى لاستهين بالطنبوريين وأراهم لا يحسنون الغناء المتقن ، الا أنت فقد صنعت على الطنبور ما لا نستطيع نحن أن نصنعه على العود ! .

شكرت لمخارق هذا الثناء الذى لم أكن أتوقعه منه ، وكنا حينئذ بدمشق وفيها معسكر للخليفة المأمون فى بعض غزواته للروم ، فأخذنى مخارق اليه ، وقدمنى ووصفنى وقرظنى فأمرنى الخليفة بالغناء على طنبورى ، فغنيته أحسن غناء أقدر عليه ، وظفرت منه بجائزة عظيمة ..

سألنى المأمون عن اسمى ،فقلت :

ــ اسمى محمد بن أمية بن أبى أمية ، ولقبى أبو حشيشة ، والناس لا يعرفوننى الا به ! ..

ضحك المأمون وقال :

ـ أظنك من أولاد بعض الكتاب ممن خدموا جدنا أمير المؤمنين المهدى رحمه الله ! ..

قلت

ـ نعم يا أمير المؤمنين .. كان جدى على كتابة السر وبيت المال والخاتم على عهد أمير المؤمنين المهدى رضى الله عنه ، وحج معه أربع حجج ! ..

## ● اليوم الثاني :

تذكرت اليوم وأنا فى قصر المأمون ببغداد ، بداية شهرتى بالغنـــاء منذ سنين ، فان بعض سراة بغداد سمعنى ، فصرت منذئذ مغنيهـم الوحيـــد ، لا يسمعون غناء من غيرى ويسموننى « الظريف » .. واغدقوا على المال حتى اجتمع لى منه ما اشتريت به منزلاً ، وكنت من قبل أســكن بالكــراء .. وسمنت عندهم من كثرة الاكل ، فقد كانوا أكثر الناس أكلا ..

رأيت رجلا منهم قد أكل هو وابن عم له اثنين وعشرين رأسا كبـارا من رءوس الغنم لم يتركوا من لحمها شيئا ، وشربا من النبيذ حتى غابا عن الوعى وناما ساعة أو ساعتين ، فلما انتبها دعوا بطعـــام آخر ، وعادا يأكـلان ، كأنهما لم يأكلا منذ ساعتين فقط اثنين وعشرين رأسا ! ..

ولكنى الآن خفيف رشيق ، فما يصلح لمجالسة الخلفاء ومنادمتهم والغناء لهم ، رجل ممتلىء شحما ولحما ! ..

جاءنى مخارق قال

ـ يا أبا حشيشة .. ان المأمون أمرنى أن أصحبك فى ســـهرتنا عنده الليلة ، ولعله يأمرك أن تغنيه لحنك فى شعر دعبل :

كان ينهى فنهى حــين انتهى
وانجلت عنه غيابات الصـــبا
خلع اللهو واضـــحى مســبلا
للنهى فضــــل قميص وردا
كيف يرجـو البيض من أوله
فى عيون البيض شيب وجلا
كان كحلا لمآقيهـــا فقـــد
صـــار بالشيب لعينيها قذى

فاذا أمرك الخليفة ان تغنيه هذا اللحن ، فاقتصر على البيتين الاولين ، لانه يكره أن يذكره أحد بالشيب ! ..

قلت

ـ عجبت لامير المؤمنين كيف وخطه الشيب وهو فى ســـن الاربعـين أو دونها ؟! ..

ضحك مخارق :

ـ هذا من هموم الملك ! •• ولو كنت يا أبا حشيشة أمير المؤمنين لاسرع الشيب الى رأسك ! ••

فلما جلسنا فى حضرة المأمون ، وجاء دورى فى الغناء ، كنت قد نسيت نصيحة مخارق لى ، فغنيت الابيات الاربعة ومررت فيها كلها وأنا ذاهل فسمعت المامون يقول وفى صوته أثر من غضب :

ـ يا مخارق •• الا تحسن تأديب هذا الفتى ؟! •

فتنبهت مذعورا ، وقلت وقد انتفضت قائما متوسلا :

ـ لا أعود الى مثل هذا يا أمير المؤمنين ! ••

ضحك المأمون وأشاح بوجهه عنى ، ثم أمر لى بجائزة اقل مما كنت أرجو ! ••

## ◉ اليوم الثالث :

دعانى ابراهيم بن المهدى •• قال لى :

ـ أحب أن تسمع ثلاث جوار عندى يغنين بعض ألحانك على الطنبور ، فان كان فيما يغنينه خطا فاصلحه لهن ••

جاء الخدم بالطعام والنبيذ ، وجالسني ابراهيم بن المهدى وشرب وسقانى وبسطنى كل البسط •• ثم غنت الجارية الاولى لحنا لى فى شعر خالد الكاتب :

كيف احتيالى وانت لا تصل
عيل اصطبارى وقلت الحيل
ان كان جسمى هواك ينحله
فان قلبى عليك يتكل

فسألنى ابن المهدى وقد طرب وطربت مثله :

ـ أهذا اللحن لك ؟ ••

ـ نعم •• أصلح الله الامير ! ••

ثم جاءت الجارية الثانية فغنت لحنا آخر لى فى شعر خالد الكاتب :

رب مالى وللهوى
ما لهذا الهوى دوا
حاز طرفى الذى هوى
الحسن قلبى وما حوى

فكاد عقلى يذهب طربا لما سمعت من غناء الجارية ، كاننى أسمع اللحن

لاول مرة ولا أعرفه وهو لى وقد غنيته فى مجالس الخلفاء والكبراء ! ٠٠

ثم الجارية الثالثة ، فلم يكن طربى لها أقل من طربى لاختيها ، وحميت نفسى وتشجعت وقلت فى نفسى : والله لاغنين لابراهيم بن المهـــدى بعض الحانى ٠٠ وغنيته :

**لئن لج قلبك فى ذكـــره**
**ولج حبيبـــك فى هجـره**
**لقد اورث العين طول البكا**
**وعز الفـــؤاد على صـبره**

فطرب ابن المهدى واستعادنى اللحن ، ثم قال لى :

ـ يا خليلى ٠٠ غناء الطنبور كله باطل ، الا هذا الغناء الذى نسمعه منك ٠٠ فلا تترك هذا اللون من الغناء ، فلئن كان الطنبوريون جميعا على باطل ، انك لعلى حق لجودة طبعك فى الغناء ، وتفننك فى الطنبور ٠

## ● اليوم الرابع :

لم يكرمنى أحد من الخلفاء كما أكرمنى أمير المؤمنين المتـوكل ٠٠ لقـد غنيت للمأمون والمعتصم والواثق وأخذت جوائزهم ، ولكن أحـدا منهـم لم ينبسط وجهه لى كما انبسط لى وجه المتوكل ٠٠ قال لى :

ـ يا أبا حشيشة تغن لنا فى شعرك :

**اطعت الهوى وخلعت العذارا**
**وباكرت بعد القراح العقـــارا**
**ونازعك الكاس من هاشـــم**
**كريم يحب عليهـــا الوقـارا**
**فتى فرق الحمـــد امـــواله**
**يجر القميص ويـرخى الازارا**
**راى الله جعفـــر خـير الانام**
**فملـكه ووقاه الحـــــذارا**

فطرب المتوكل وشرب أقداحا ، واستعادنى اللحن مرارا ، ثم قال لى :

ـ يا أبا حشيشة ٠٠ ما أدرى أشعرك خير من غنائك أم غنـــاؤك خـير من شعرك ، فقد أحسنت فيهما جميعا ٠٠ ولو كنت أبا عبادة البحترى لما جئت بأحسن من هذا الشعر فى مديحنا ، ولو كنت مخارقا أو علويه لما أطربتنـا كما أطربتنا وأنت أبو حشيشة ! ٠٠

ثم جاءت « محبوبة » جارية المتوكل الشاعر المغنية ، فدفع اليها تفـاحة فقبلتها قبلتين أو ثلاثا ثم كتبت على رقعة :

يا طيب تفاحة خلوت بهـا
تشعل نار الهوى على كبدى
لو ان تفاحة بكت لبكت
من رحمتى هذه التى بيدى

فاستظرفها المتوكل واستملحها جدا ، وأمرها فغنت فى هذا الشعر ، ثم أمرنى فغنيت فيه ..

ومحبوبة جديرة باسمها ، فانها بارعة الحسن والظرف والادب ، تحسن قول الشعر والغناء ، وقد حظيت عند المتوكل حتى انه يجلسـها الى جانبه فى السهرة اذا لم يكن عنده الا خواصه من المغنين والندماء ..

وهى تخصنى بعطفها ، وتقول للمتوكل :

ـ مافى الدنيا طنبورى يغنى كغناء أبى حشيشة ! ..

ولما قدم أحمد بن صدقة المغنى الطنبورى من الشام الى سامرا ، غنى فى مجلس المتوكل ، ولم أكن حاضرا ، فاستحسن غناءه وأجزل صلته ، وحاول بعض حسادى أن يوهم المتوكل ان ابن صدقة هذا أبرع منى فى الغنـاء على الطنبور ، وكانت محبوبة حاضرة فقالت تدافع عنى بظهر الغيب :

ـ يا أمير المؤمنين .. لا تسمع فى أبى حشيشة قولا من هذا الحاسـد ، فان ابن صدقة وان كان محسنا فى صناعته ، لا يبلغ أن يكـون غـلاما من غلمان أبى حشيشة فى الغناء بالطنبور ..

## ● اليوم الخامس :

توفيت « شجاع » والدة المتوكل ، ويسمونها « السـيدة » فلبث أياما لا يسهر ولا يشرب ! ..

فلما مضى شهر جلس للمنادمة ، وقال فيها هذا البيت :

تذكرت لما فرق الدهر بيننـا
فعزيت نفسى بالنبى محمـد

فأجازه بعض من حضر من الشعراء :

فقلت لها ان المنايا سـبيلنا
فمن لم يمت فى يومه مات فى غد

فتطيرت من هذا البيت الثانى ، وقلت فى نفسى : ما بال هذا الشـاعر الجاهل يذكر الموت ، كأنه يقول للخليفـة : ماتت أمك أمس ، وأنت ميت اليوم أو غدا ..

تملكنى الشجن ، فلما أمرنى الخليفة بالغنـاء ، انحنيت على طنبـورى أضرب وأغنى :

وليست عشيــات الحمى برواجع
اليك ولكن خل عينيــك تدمعــا
واذكــر ايـام الحـمى ثـم انثني
على كبدى من خشية أن تصــدعا

فرأيت المتوكل ينتفض طربا ، حتى اهتز قدح النبيذ في يده ، وشرب على غنائى مرات ، واستعادني ، وخامره من الوجد ما لا يمكن وصــفه ، ودمعت عيناه حتى تحدر الدمع على خديه ! .. ثم قال لى :

ـ ان اطرب الغناء وأشده تأثيرا ، ما يرجع القلب بكلامه وألحانه ، وهذا الذى أسمعتنيه جمع هاتين الصفتين ، فكان منى ما رأيت ! ..

فقمت على رجلى قائلا :

ـ يا امير المؤمنين .. أسعدك الله ، وأطال بقاءك ، ومتعك بحياتك ، وأصلح بك الدنيا ، وأعز الدين ! ..

ثم ارتج على فسكت وجلست ! ..

فتبسم المتوكل ، واســتدناني اليه فدنوت حتى قبلت طــرف ردائه ، وبكيت ! ..

لا أدرى لماذا بكيت ، ولكن السهرة من أولها الى اخرها كان يخيم عليهــا الحزن ، فهذا أول مجلس للخليفــة بعد وفاة والدته ، وكانت والله امرأة صالحة كثيرة الصدقات ، عظيمة المعروف ..

## ● اليوم السادس :

أكتب هذا بعد شهور انقضت على مفكرتى السابقة ..

غنيت فى مجلس أمير المؤمنين المتوكل ، فبينما أنا منصرف رأيت جندا من الترك يدخلون القصر بأسلحتهم ، ففزعت منهم فرأيت القــائدين التركيين وصيفا وموسى بن بغا ومعهما « باغر » التركى الجلف ، يدخلون على الخليفة وقد أخذ منه الشراب ، وعنده وزيره الفتح بن خاقان شبه نائم ، فهجم باغر على الخليفة فضربه بالسيف ، ثم أخذته السيوف من كل جانب حتى خمد وتمزق لحمه وصبغ دمه البساط ، فصحا وزيره وصاح فيهم :

ـ ويلكم .. أمير المؤمنين ! ..

ثم نظر فاذا أمير المؤمنين ممزق الاشلاء ، فهجم عليهم بيديه فأغمدوا فيه سيوفهم ، ورأيت الشاعر أبا عبادة البحترى يجرى هاربا فجريت معه وجرى الندماء وهربت الجوارى ..

وفى الصباح علمت أن القتلة لفوا الخليفة ووزيره فى البساط ودفنوهما معا بدمائهما من غير تغسيل ! ..

صادفت الشــاعر البحترى فى بعض الطريق بسامرا فقال لى ان سبب

ما جرى ، ان المتوكل كان قد أراد خلع ولده محمدا المنتصر من ولاية العهد وتقديم ابنه المعتز عليه ، لان المعتز أمه أحظى جوارى المتوكل وأجملهن على الاطلاق ، فصار المتوكل يوبخ ابنه المنتصر فى الملأ ، ويسلط عليه الغلمان يشتمونه ويهزأون به ، فحقد المنتصر على أبيه واتفق مع القادة الاتراك على قتله ليتولى مكانه .. وقد كان ! ..

اقتسم القواد جوارى المتوكل ، وهن ثلاثة الاف جارية ، فكانت « محبوبة» الشاعرة المغنية فى قسمة القائد « وصيف » مع مئات من الجوارى الاخريات!

استدعانى وصيف لاغنى ، فلما جئته رأيت عنده جوارى المتوكل متزينات متعطرات ، عليهن الثياب الملونة ، الا « محبوبة » فانها كانت فى ثياب الحداد حزنا على المتوكل ! ..

فاشتد ذلك منها على« وصيف » وأراد أن يقتلها ، وكان صديقه « بغا » حاضرا فاستوهبها منه ، فوهبها له ، فأمر باخراجها من سامرا الى بغداد ..

وبعد مدة رأيتها عند بعض معارفها من بنى هاشم ، وقد جلست تغنى باكية :

اى عيش يطيب لى
لا أرى فيه جعفرا
ملكا قد راته عينى
قتيلا معفرا
كل من كان ذا هيام
وحزن فقد برا
غير محبوبة التى
لا ترى الموت يشترى

ولم أزل منذ ذلك اليوم ، أزورها فأجدها تغنى هذه الابيات وتبكى ! .. فلا هى تبرأ من الهيام والحزن ، ولا هى قادرة أن تشترى الموت ، كما تقول فى شعرها وغنائها ! ..

# فهـــرس

صفحة

مقدمة ........ ٥
حكاية أول مطرب فى المدينة ........ ٧
أستاذ المطربين ........ ١٢
وجه الباب ........ ١٧
ابن الرومية ........ ٢٣
بطة الافراح ........ ٢٩
غلام من اليمن ........ ٣٥
الزرقاء تلتقط اللؤلؤتين ........ ٤١
مجلس الطرب والفكاهة ........ ٤٦
تلميذة الموصلى وجارية الرشيد ........ ٥٢
السجن طريق الشهرة ........ ٥٨
لعبة الجارية ........ ٦٢
إقطاعية ذى الرمة ........ ٦٧
غضب الرشيد وكرمه ........ ٧٢
تاجر الجوارى ........ ٧٧
الليالى الأربع ........ ٨٣
بائع الأهزاج ........ ٨٨
معابثة ابن المهدى ........ ٩٣
دماء الزنادقة ........ ٩٧
أيام الرشيد الأخيرة ........ ١٠٣

غناء على الذكريات ........................ ١٠٨
مليون درهم عباسى ........................ ١١٣
منادمة المأمون ........................ ١١٨
الطفيلى الظريف ........................ ١٢٣
مكائد المغنين ........................ ١٢٩
راحة الأرواح ........................ ١٣٤
الحياة ١٢٠ سنة ........................ ١٤٠
تأويل الرؤيا ........................ ١٤٥
الأمير فى ثياب المغنين ........................ ١٥٠
مطربة القصور ........................ ١٥٥
قصة حب ........................ ١٦٠
مطرب قليل البخت ........................ ١٦٦
الأيام الجميلة ........................ ١٧٢
دموع متيم ........................ ١٧٧
مطرب عظيم .. ولكن ........................ ١٨٣
سوق الغناء الطنبورى ........................ ١٨٨
فريدة تقطع أوتارها ........................ ١٩٣
ملك الطنبور ........................ ١٩٩



رقم الايداع بدار الكتب ٤٧١٢ ـ ٨٦
الترقيم الدولى ٥ ـ ٢٥٩ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

٣٠٠ قرش